الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

العدد الثاني عشر
ديسمبر (كانون الاول)
السنة السابعة

7ème ANNEE

No. 12 Dec. 1959

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

مصارعة الثيران في السياسة الدولية!

بقلم عبدالله القصيمي

كم نصاب بالذهول والحسرة حينما نجد شعبا باسره يتحول في غمضة عين الى جهاز دعاية ... كل شيء فيه: الصحافة والاذاعة والكتاب والمعلقون والمفكرون — ان وجدوا — يتحولون كلهم طفرة مثل صدى ذليل يكررون وينشدون بنفس واحد واسلوب كاسلوب الصلاة رأيا معينا او حكما معينا أو مذهبا او سببا معينا او المطالبة بالسير في طريق معين لان حاكمهم او زعيمهم او قائدهم الروحي قال ذلك او رآه او اتخذه اسلوبا من اساليب دعايته ضد قوم او حكام اخرين او ضد شيطان او شبح اخترعه لغرض سياسي او لعداوة شخصية او لعقدة نفسية او لحقد او حيلة وطمعا ومكرا ..

... والشياطين والاعداء والخصومات والحروب التي اغرقت الانسان في كل تاريخه بالالام والمخاوف والعداوات انما نبعت من نفوس الزعماء والحكام والمعلمين وحيلهم لا من مصلحة الانسان أو مصلحة الحياة !...

ومن الفظاعة ان يعادى شعب شعبا او حاكما او زعيما او مذهبا ويحول عداءه هذا الى عقيدة وتاريخ وشعار لان حاكما او زعيما او قائدا روحيا اراد هذا العداء وفرضه على شعبه واتباعه.

ومن الفظاعة المضاعفة ان يغير ذلك الزعيم او الحاكم رايه في اعدائه أو معاملته لهم فيراهم اصدقاء وطيبين بعد ان كان يراهم خصوما اشرارا خائنين او ينتقل بهم من الصداقة الى العداوة ومن فاعلي فضيلة الى فاعلي رذيلة فيصبح اتباعه والخاضعون لحكمه او لتعاليمه ملزمين بهذا التنقل من النقيض الى النقيض !..

.. ولا يخطر على البال هوان او استعباد او تحقير لاي شعب افظع من هذا ...

وفي كثير من المجتمعات لايوجد رأي جماهير ولا رأي مفكرين . وانما يوجد رأي واحد وشهوة واحدة وجهاز يتحرك فيتحرك كل شيء باسلوب التتابع الالي !..

وانا لا استطيع ان احتقر كاتبا او مفكرا اكثر من احتقاري لذلك الكاتب او المفكر الذي يذم ويمدح ويؤمن ويكفر ويؤيد ويناقض ويغير مواقفه من الاشياء لان السماء او شهب السماء ورجومها ارادت ذلك او فعلته ... واني بصدق وعمق لاهنىء هؤلاء الكتاب والمفكرين على صفاقتهم وقدرتهم على التحرر من قيود الاحترام للذات !...

ودعارة الرأي والضمير والقلم والمذهب والعقيدة شر انواع الدعارات . وهؤلاء الذين يفسقون بعقائد الناس ومذاهبهم وافكارهم واقلامهم هم أفسق الفاسقين !..

والناس يعدون الحاكم الذي يغتصب اعراض النساء فاجرا يستحق المقاومة واللعنة . ولكنهم لايرون هذا الرأي في الحكام والزعماء والدعاة الروحيين الذين يغتصبون شرف الكلمة ويزنون بالعقول والعقائد والاخلاق !..

.... وما ابشع أن يتفق رأي الناس في الاشياء ، يؤمنون جميعا ويفكرون جميعا ويؤيدون او يعارضون بلا خلاف — يتحركون بالجملة كأنهم حزم الحطب !..

اذا اختلف حاكم او زعيم او نبي او كاهن مع اخرين امثالهم من الحكام والزعماء والانبياء والكهان والشيوخ لم يوجد من يفكرون ويرون ويحكمون في هذا الخلاف ... وانما يوجد اتباع لهذا واتباع لذاك ، لايفهمون ولا يناقشون بل يمتثلون ويؤمنون ويهتفون .. واكثرهم أتباعا ومؤيدين هم اقواهم واوسعهم نفوذا ورشوة ودعاية وتضليلا ...

ولهذا لانجد رأيا ولا فكرا ولا حرية أو انصافا حين يشجر خلاف او يقع صدام بين هؤلاء وهؤلاء ولكن كفرا غبيا او ايمانا غبيا .. واقتناعهم بهذا او هذا ليس باقتناع ولكنه اتباع .. والمؤيد غبي جاهل وكذلك المعارض !..

ولن يجد البشر في كل مايجدون ماهو منكر وسخيف وعبودية مثل ان يجدوا ان الشعوب تتعامل : تتعادى وتتحارب وتتلاقى وتختار مذاهبها والهتها وافكارها واخلاقها واصدقاءها واعداءها من خلال احقاد الحكام والزعماء والدعاة الروحانيين وخلال اهوائهم ومخاوفهم وتوتراتهم وخصائصهم النفسية والعقلية !..

ولست اعتقد انه يوجد تشويه للانسان اخبث من هذا التشويه !

.... والعجيب جدا ان البشر لم يفطنوا حتى اليوم الى ان قادتهم هؤلاء هم الذين يصنعون خصوماتهم واحقادهم الكبرى التي تنتهي بالحرب او بالاستعداد الدائم للحرب ، وانهم هم الذين يقيمون الحدود والحواجز الفاصلة بينهم بالاسلاك الشائكة والمكهربة !..

واختلافات السادة والارباب وتنافسهم وتناقض اهوائهم ورغباتهم وما فيها من انحرافات لاتسدد حساباتها والأسفاه من دماء هؤلاء السادة والارباب !..

ومصارعة الثيران لاتصيب الثيران وحدها !..

ويظهر انها ليست هي اسبانيا وحدها المتخصصة او المختصة بفنها المتوحش الذي عرفت به !..

واذا كان الحكام والقادة والاقوياء يصرون على ان يتقاتلوا ويتصارعوا ويفعلوا الجنون فعلى البشر ان يعرفوا كيف يجعلونهم يصنعون ذلك بصفتهم الشخصية ويمنعونهم من ان يؤدوا العابهم الخطرة فوق رؤوس الشعوب او بعضلات الشعوب !..

يجب عليهم ان يتبارزوا بالسيوف مبارزة فردية كما كان القدماء يفعلون !..

وهذا اقرب الى العدل والشجاعة واخلاق الفروسية !.

✶

والمشكلة ان لكل انسان عام شخصية خاصة يحيا داخلها حينما يجب ان يكون انسانا عاما يحيا خارج ذاته . واخطر الاشياء ان يكون للانسان العام شخصية فردية – اي ان يحيا ويفكر ويتألم ويتلذذ من داخل ذاته ..

ان معنى هذا ان تخضع الاعمال العامة والمجتمعات لخصائص شخص واحد ولالامه وظروفه واخطائه – اي ان تتحرك الدنيا كلها وتساق بآلام فرد او بمخاوفه او بطموحه او بجنونه او بأي شيء من اخلاقه وتفسيراته النفسية او العقلية للمواقف العامة الكبرى !.

.... انه لا يوجد من يتصور ان جيلا كبيرا قد يمر من سم الابرة . .ولكن الناس لم يزالوا يشاهدون ملايين الناس يمرون من خلال غلطة رجل واحد او شهوته او كبريائه او من خلال تعاليمه المنحرفة – يمرون سراعا الى الموت او الى العبودية الدائمة – عبودية العقل والعقيدة والمذهب او عبودية العذاب !..

وقد حاول الانسان في تاريخه الطويل ان يتحاشى هذا المأزق ، فراح يفترض كائنات مركبة تركيبا عجيبا لتقود حياته وتشرف على العدالة والمنطق في هذا الكون بدون التزام لاحد الافتراضين .. وكأن ان افترض آلهة غريبة التكوين فيها بعض صفات البشر وليس فيها صفاتهم الاخرى لكي تكون هذه الآلهة قادرة وفاعلة ولكن بلا خضوع للصفات الاخرى التي تجعلها محكومة بها كما تحكم الزعيم او الحاكم او القائد شخصيته الخاصة ، فيكون في ذاته العامة محكوما بذاته الخاصة !..

... وقد تناقض الانسان في تصوره للاله : لقد تصور انه لابد ان يكون كاملا ، ثم تصور انه بدون النقائض والاغراض الذاتية لا يمكن ان يفعل شيئا او ان يدبر ملكه او يرغب في تدبيره . فحوافز الفضيلة والقوة هي حوافز الرذيلة والضعف !..

ثم تناقض مرة اخرى فذهب ينزه هذه الرذائل ويحولها الى فضائل لانها رذائل آله :

فصورة آلاله اذن في ذهن الانسان انه كائن له رذائل البشر وفضائل الآلهه – او له رذائل البشر دون فضائلهم .. لم يستطع ان يتصور هذه الفضائل الا في أطار هذه الرذائل !

لقد كانت دائما الصورة المثالية التي ابتكرها البشر لمن يقودون الجماعات او يحكمونها او يعلمونها صورة منزهة عن ذاتها ..

... فالذات خطر على الفضيلة وعلى القانون والعقل ولكن لا فضيلة ولا قانون ولا عقل بغير الذات ... المعلم او القائد الذي يخضع لذاته كيف يمكن ان يكون منزها او عادلا او عاقلا دائما ؟..

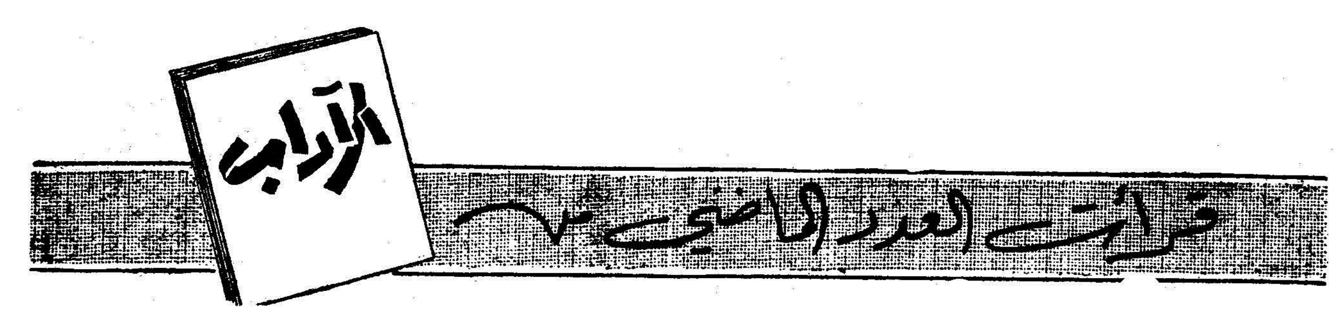
... ولكن من حسن الحظ ان المعلمين والقادة والحكام والزعماء الذين يحكمون المجتمعات هم محكومون ايضا بتلك المجتمعات على نحو ما حكما غير مباشر .. ولولا ذلك لكان الخطب اكبر !..

وكلما ضعف هؤلاء السادة ضعفت الاحتمالات التي تجعل الشعوب تتصافح بالسيوف ويزحف بعضها على بعض تحت رايات تقودها حشود متلاحقة من الحمقى والمجانين والمرضى والمنحرفين والطامحين والمقامرين بالبشر !...

✶

انه لولا الحكام والزعماء والمعلمون الخالدون لهبطت الخصومات بين الشعوب الى اكثر من تسعين في المائة !..

عبدالله علي القصيمي



الأبحاث

بقلم الدكتور عبدالله عبد الدائم

الناقد العربي والمسؤولية اللغوية بقلم نازك الملائكة :

دفاع عن العربية بقلم الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة . وحسب نازك الملائكة ان تكتب ، ان تكتب اي شيء ، لتكون كتابتها دفاعا عن عبقرية اللغة العربية . حسبها ان ترسل الكلم معبرة دقيقة لا فضول فيها ، وان تصوغ العبارات متآخذة شفافة عن تمام الفكرة الثاوية وراءها ، ان هي ارادت ان تثبت للمتشككين قدرة العربية ، ضمن اطرها الاصيلة المعروفة ، على تشقيق المعاني من الالفاظ ، دون تحطيم الالفاظ ، وعلى تفتيق المضمون من الشكل ، دون تمزيق الشكل .

وهل اولى من الموهبة الكبيرة للتدليل على ان اللغة العربية لاتشكو عجزا فيها ، وانما تشكو عجز جاهليها ، وان انصار الخروج على قواعدها حين يعجزون عن الابداع يتخذون هذا الخروج مبدأ يخفون به عجزهم وينصبون ضعفهم مثلا اعلى ؟

والحق مهما يكن الصراع قائما بين اللغة والفكر في أي لغة من اللغات ومهما تكن الالفاظ مقصرة عن المعاني مجمدة لها في كثير من الاحيان ضمن اشكال مالوفة وتعبيرات مجدبة معروفة ، يظل من الصحيح دوما وابدا ان العبقرية تصهر الالفاظ صهرا جديدا وتحملها حرارة جديدة وتجعلها طوع معانيها ومشاعرها . وامارة الابداع الحق ماهو في ان يتصدى للغة منكسرا ، فلا يجد سبيلا سوى كسر قيودها الشكلية ، وانما هو في ان يتصدى لها تصديا ايجابيا خلاقا فيكسر فيها ارنها وجموحها وابتذالها من داخلها وفي قلبها ، دون ان يكسر منها الشكل والاطار . ان الاطار ليصبح طوع ارادتك ان صهرته صهرا جديدا فاخرجت منه ، بعد اذابته في حرارة ابداعك ، ماتشاء من وشي وما تحب من صور مبتكرة جديدة . وليس الشان معه ان يغلبك على أمره فلا تجد مخرجا سوى ان تقتله وتقتل معناك معه ، ان تحطمه فلا تبقي فيه بقية من تعبير وتقذف بالوليد مع الوالدة .

والحق ان موقف التخاذل امام قيود اللغة ، موقف ينبيء عن سوء فهم للعقل الانساني . أن هذا العقل الذي اثبت قدرته على ادراك اكثر امور الكون تعقيدا والتغلب على اعوص مشكلاته ، يثبت دوما انه يعرف ان يخلق من كل قيد مناسبة لنوع جديد من الابداع . ان من الضعف الذي ان لنا ان نكشفه أن نزعم ان هنالك لغات عصية على الابداع العقلي ، وان هذا الابداع محطم بها مهيض الجناح بسببها . والصحيح هو ان العقل الانساني الجبار يعرف ان يخلق من طبيعة كل لغة ، بل من صعوباتها ، مجالا لابداع من نوع جديد يتناسب مع هذه الطبيعة وتلك الصعوبات . وكلنا يدرك كيف ان الصفات الخاصة التي تتصف بها بعض اللغات الاوروبية ، يجعل من ادب هذه اللغات وفكر هذه اللغات شيئا ذا مذاق خاص وابداعا من طراز فذ .

ثم ، مالنا وللبرهان على هذه البدهية ؟ اوليست اللغة اولا وآخرا وليدة عبقرية الامة ومعبرة عن طراز نظرتها وفهمها للاشياء ؟ أوليس ضعفها دليلا على تردي هذه العبقرية وانحدارها ؟ ان الابداع اولا واخرا صراع بين الفكر وبين اللغة ، اللغة التي ابدعها والتي يريد ان يتجاوزها ، وتجاوزه لها لا يكون الا بدءا منها ، من منطقها من اطرها .. واذا انقلبت المعركة الى فراق بين اللغة والفكر ، الى هجران احدهما للاخر ، لم تعد ثمة معركة ، ولم يعد ثمة مجال للابداع ، وكنا أمام فرار من جوهر الجهد الانساني الخلاق .

ان الكاتبة الكبيرة قدمت خير وصف للازمة القائمة ، أزمة اهمال اللغة لدى بعض المحدثين ولدى كثير من الشعراء المحدثين ، حين جعلت من هذه الازمة ازمة حضارة وازمة امة ، وحين عدت هذه الظاهرة سمة لظاهرة اعم واشمل ترتد في نهاية الامر الى ضعف الثقة بالذات، والى البحث عن الابداع خارج الذات . انها حقا أزمة لا يجوز اهمالها ولا يجوز ان نعدها مشكلة سطحية شكلية ، فهي في الواقع في القلب من مشكلتنا الكبرى ، مشكلة ايماننا ، كأمة عربية مبدعة ، بقدرتنا على الابداع . انها مشكلة بحثنا عن انفسنا خارج انفسنا ، مشكلة الطفولة الفكرية التي تجعلنا نتخلى عن الاستقلال الفكري ، عن الحرية ، عن الاصالة . انها أزمة الغراب الذي « اضل مشيته واخطأ مشيها . »

ان كلمة نازك صرخة في حينها تدعو ادباءنا الى مواجهة المشكلة الحقة ، بدلا من التلهي عنها والتعلل بغيرها . ليست المشكلة ان نحمل ادبنا آراء وافكارا نحاول ان نضعها فيها قسرا حبا منا في بضاعة مجلوبة. وليست المشكلة ان نجد فيه ادواء ليست ادواءه ومسائل ليست مسائله، وانما هي ان نستمد منه ، ومنه فعلا ، مواطن ضعفه ووسائل تطويره . ان الانسانية لا تنتظر منا كأننا هجينا ضل نسبه ، وانما تنتظر منا مولودنا ، مولودنا بقسماتهوسماته، بعد ان نحسن صياغتها ونتقن وشيها . وان لغتنا العربية اية منايات عبقريتنا،وهي التيكانتدوما رمزا لبلاغةفذة وحاملة لتراث انساني خالد. انفيها فلسفتناونظرتناالىالكونوانحناءاتوجودنا وتعرجات عبقريتنا ومظاهر انسانيتنا . افنعجب ان يقول عنها ماسينيون بعد ان تذوقها : « ان البعث الدولي للغة العربية عامل أساسي في اشاعة السلام بين الامم في المستقبل . وقد كانت هذه اللغة في نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين ـ وانا منهم ـ وما تزال ، لغة الحرية العليا ووحي الحب والرغبة التي تطلب الى الله ـ من خلال الدموع ـ ان يكشف عن وجهه الكريم » ؟

ازمة البطل المعاصر بقلم مطاع صفدي :

يقتطف الكاتب في هذا المقال لوحة من كتاب يبشر بصدوره قريبا، كتاب « الثوري والعربي الثوري » . واللوحة عرض تحليلي عميق لتاريخ

القصة في العالم الغربي. فيه نلفي مخاض الرواية الحديثة ، وما تقلبت عليه من منعرجات المنازع قبل ان تنتهي الى الرواية الوجودية الحديثة ، التي يمثلها « سارتر » ويمثل بعض وجوهها « كامو » . بل ان هذا العرض التاريخي نفسه لايشير الى قصة القصة وتاريخ الرواية الا من خلال ما انتهت اليه على يد الرواية الوجودية الحديثة حتى لنستطيع ان نعده نبشا لبذور الرواية الوجودية في تاريخ الرواية .

انه ضرب من التحليل التراجعي ان صح التعبير ، فيه تلبس الاشياء الماضية معاني جديدة لم تكن لها ، اتخذتها بعد تكون الاشياء الجديدة .

هكذا ينطلق الكاتب في تحليل معنى الاسطورة على ضوء نظرة الفلسفة الحديثة ، فيبين كيف تتمثل البطولة فيها في « الخارق » ، وكيف يلفى المرء عن طريقها حريته بفضل تحرر سحري من قدر الطبيعة . ثم ينتقل الى القصة ، فيبين انها بنت العصر الحديث ، عصر التأزم والقلق وفي حديثه هذا عن القصة يعرض لاهم مراحلها عرضا دياليكتيكيا عميقا، فيروي لنا ماكان من واقعية « بلزاك » و « توماس هاردي » وما اتسمت به واقعية « دوستويفسكي » من غنائية سوداوية لاتعرف من المأساة الا مظهرها الخارجي . ويعرج في رحلته هذه عبر تفتق القصة الحديثة

— التتمة على الصفحة ٦٧ —

القصص

بقلم نازك الملائكة

تعطيني القصص الثلاث المنشورة في العدد الماضي من « الاداب » فرصة لتشخيص صنفين من اصناف القصة العربية المعاصرة ، الصنف الذي يستمد ملامحه من بيئتنا العربية وتمثله قصة سميرة عزام ، والصنف الذي لايتطلع الا الى نماذج القصة الاوربية حتى يكاد يصبح فنا هجينا لا هو بالعربي ولا هو بالغربي ، ومنه القصتان الاخريان اللتان تختلفان في خطوطهما العامة على الرغم من وحدة الموقف الذي تتخذانه بازاء الفكر الاوربي . ومع انني قد تحاشيت ان اتحدث عن « القصة » كمضمون عام ، الا ان تناولي للاقاصيص الثلاث كان على اساس كونهما نماذج غير مقصودة لملامح القصة العربية ومشاكلها .

— ١ —

« اطفال الاخرين » لسميرة عزام

موضوع هذه القصة تحليلي وقد استندت الكاتبة الى مشاهداتها النفسية والاجتماعية في تسليط الضوء على نفسية رجل طبيعي يجابهه الطبيب بانه لن يرزق اطفالا . وكان التحليل موفقا وقد رفرفت الكاتبة فيه عواطف غزيرة دافقة ، ومست الموضوع لمسات مرهفة لم تحرمها واقعيتها الصارمة من الطابع الشعري الجمالي . وتلك مزية عامة نلمسها في قصص سميرة فهي تصف الواقع وصفا عاريا لاتحاول ان تلطفه بأي شيء ، غير ان ذلك لا يفوت عليها الفرصة لرفرفة الجمال في صورها. وهي تثبت بذلك ان الشعرية مبذولة في كل ماحولنا من مظاهر الحياة . وانما ينبغي ان يملك الكاتب عينا تتذوق وعاطفة تتلقى .

وموضوع «اطفال الاخرين» وتفاصيلها كلها عميقة الصلة بالمحيط العربي المحلي . وتلك ايضا مزية نذكرها لقصص سميرة ، ولعلها مزية كل قصاص حقيقي . انها تنظر حولها وتلتقط الموضوع . ولا اذكر انها قد استمدت قط موضوعا من وحي القصص الاوروبية ، او حتى من مجرد خاطرة نظرية عابرة تمر بذهنها دون ان يتاح لها ان تعانيها . ان حكاية « اطفال الاخرين » تجري في حياتنا كل يوم ، ولئن كان مثل ذلك لا يكفي لخلق قصة ناجحة فانه ولا ريب احد عناصر النجاح . ذلك ان الموضوعات المحلية موضوعات تعاش وتمتلك حيوية الحياة ، والكاتب يحسن التعبير عنها لانه عاناها وهو يرقب قريبا او جارا او حتى وهو يسمع حكاية في سهرة ما . وما من شيء كالحياة يغذي القصص الناجحة .

ومن هذا الموضوع صنعت الكاتبة هيكلا قصصيا مكتملا له بدايته ونهايته ، ومن الحق ان نلاحظ انه هيكل متماسك ليس فيه ثغرات ولا حشو . تبدأ القصة بالرجل الحساس الطيب وهو يغادر عيادة الطبيب وقد ضاق الوجود في عينيه ، وتنتهي به وهو يخرج من سلبية اليأس ويقرر ان يثق بالوجود ويقاوم صوت الظلام في كيانه ، وذلك موقف طبيعي مستمد من الواقع الانساني ، فالحياة ترفض أن تستسلم والانسان يصارع ويرفع رأسه محاولا ان يصيّر الظلام نورا باهرا وحرارة متفجرة . وذلك هو المعنى العام وراء سلوك بطل القصة . وخلال ذلك تقدم لنا الكاتبة عرضا مركزا لمشاعر الرجل وآماله وجراحه وحيرته، وتنجح في رفع الازمة الى ذروتها حين يجلس الرجل مهدما محزونا وتصر

زوجته – التي تسلك ببراءة – على ان تتكأ جراحه بالتطلع الى اطفال الاخرين ذوي الرؤوس الشقراء والسوداء .

واذا كان لنا انتقاد نوجهه الى هيكل القصة فهو ان الخاتمة كانت اضعف من ان تكفي لانهاء القصة واكمال هيكلها . ذلك ان سميرة قد صرفت مجهودا في بسط ظروف الرجل النفسية وما سببه له الموضوع من الم وحيرة وقد نجحت بذلك في خلق مشكل استثارت به عواطف القاريء والهبت تطلعه الى حله . ومن ثم فعندما جاء هـذا الحـل على صورة خاطرة عابرة سريعة نبضت بالامل في نفس الرجل ، كـان ذلك غير كاف لاشعارنا بان ازمتنا التي استثارتها سميرة قد انفرجت ومما يضيف الى ذلك ان الحيز المكاني الذي شغله عرض المشكـل كان كبيرا جدا بينما لم يستغرق الحل الا اسطرا، وذلك يشعر بعدم التناسب بين الازمة وحلها ويترك في نفس القاريء عطشا لم يرتو . وقد يكون مهما عند هذه النقطة من تعليقنا ان نؤكد اننا لا نصر على ان يكون الحل متفائلا ، فالحياة احيانا قاسية . وانما نتطلب الحـل الدراماتيكي الملائم وذلك لا يكتمل الا بان تتوازن القوى الفعالة فـي القصة فتجيء الخاتمة كفؤا للازمة بحيث تحلها وتقنعنا بان القصة قد انتهت سواء على هذا الوجه او ذاك . والحق ان القصة كانت تحتـاج الى خاتمة اخرى اقوى ، مثل ان تعلم الزوجة بما حكم به الطبيب فتظهر لزوجها من الحب والتفهم والتقدير ما يسنده في ازمته وينتشله من المه ، واذ ذاك تجيء نافذة الامل والحياة اكبر واكثر ضياء . ذلك ان الرجل في قصة سميرة يصارع همه وحيدا ، والقاريء يشعر ان زوجته لا تشاركه ما يعانيه . وذلك موحش بحيث يسدل ستارا على كل امـل وبذلك تبقى الازمة غير محلولة .

اما التحليل النفسي فهو العنصر البارز في هذه القصة الجميلة ، وقد نجحت الكاتبة في ان تصنع لوحة اجتماعية محلية مكتملة . وكـان الزوج المصدوم هو واسطة التصوير ، فهو صاحب النظرة ومن خـلال مشاعره وجراحه راينا مشاهد الحياة الاجتماعية التي نعرفها حولنا . ولم تحاول الكاتبة ان تضفي زينة او تجميلا على هذا المجتمع و نما رسمته كما هو . ولعله ليس من المقبول ان نلوم سميرة على انها منحت بطلها حساسية مبالغا فيها وانها جعلت المه موضوع كرامة وكبرياء ، فان نمـاذج هذا الانسان موجودة في مجتمعنا الذي الف الكبت والكتمان وعـدم الصراحة .

وقد نجحت سميرة عزام في تمييز شخصيات القصة وتلوينها .. الزوجة مولعة بالاطفال وفيها خصلة حماسة غير عادية بحيث تتدخل مـن شرفة منزلها سائلة المعلمة في مدرسة الاطفال ان تصفح عن طفل مشاغب فلا تحرمه من اللعب ، وبحيث تعرف اسماء الاطفال واحدا واحـدا . تلك هي الخصلة الحلوة فيها ، ولعلها معارضة لشيء من البرودة نلاحظها عليها ازاء زوجها ، فهي لا تلاحظ انه مهموم هما شديدا ذلك اليوم ، كما انها لم تكن حساسة في ملاحظتها : « قل لامك أنني قصدت الطبيب .. وان نتيجة الفحص اكدت صلاحيتي للامومة . »

والزوج طيب وحساس ومتشائم ، وشخصيته اكثر تناسقا من شخصية الزوجة . وهو على العموم انسان مستوحش لا يحس بالاستقرار حتـى مع أقرب الناس أليه وربما كان ذلك بسبب غزارة غير عادية في عواطفه وحب عظيم للحياة، والواقع ان زوجته اقل حساسية منه وان كان ذلك لا يسره بشكل خاص . على ان الاثنين يتصفان بشيء من العنف ينشأ عن مبالغـة في الكبرياء .

وقد نجحت سميرة في تصوير الشخصيات الجانبية ، واغتنت القصة بخلفية عذبة من حركات الاطفال وحكاياتهم . سمير يتمرد علـى المعلمـة ويستأثر بالدراجة ، وخالد يصر على ان يجعل القطة تجلس في الارجوحة ليهزها حتى اذا قفزت هاربة اعادها بالقوة ، ومها تبدع في الرقص ، والنافذة تاتي دائما بمنظر الوجوه الصغيرة ، ويكون اخر ما نراه منهـا صورة الايدي البضة ترتفع لتحيي الرجل اليائس وتعيد اليه الامل فـي الحياة والسعادة .

– ٢ –

« الالوان » لمي يتيم

لعلنا لا نخطيء لو صفنا قاعدة تجري هكذا : « كلما كان الاثر الادبـي اكمل بناء واوضح موضوعا كان اختيار عنوان له اسهل على الكاتب . »

– التتمة على الصفحة ٦٩ –



أينما كان ...

قصة بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

ربما كان الان(*)في قريته التي تتالف من بضعة منازل من الحجر الغشيم، الذي لم يصقل ولم تحسن تسويته ، منازل يتكون كل منها من حجرتين او ثلاث حجر مبنية متلاصقة على صف واحد ، متجهة كلها الى الجنوب حتى تتلقى الشمس بجباهها وتترك ريح الشمال وراء ظهورها ، تحيط بهذه المنازل ارض منبسطة ولكنها مزروعة رؤوس حجارة وفتات صخور ينبت في تربتها الفقيرة عشب لايكاد يشبع بطون دوابه القليلة من نعاج هزيلة وافراس ضئيلة القد وبضعة حمير وبعير او بعيرين ... ربما كان الان في قريته تلك التي لايربط بينها وبين ماحولها من مدن او قرى الا دروب ضيقة في الارض الصخرية ولكن جنود اسرائيل يبرزون فيها بين الحين والحين ليحصوا الذكور من اهل القرية وليتفقدوا فيها بطاقات التموين ، فاذا اقتحموا عليه الحجرة المبيضة النصف الاسفل من جدرانها الداخلية بالكلس والتي كان يعدها مضافة لزواره وجدوه يتشاغل باشعال نار كان في يوم ما يعد عليها القهوة للضيوف ، فينتهرونه ، فيقوم اليهم متكاسلا بين البرم والثائر بينما يتسلل احفاده هاربين الى الحجرة الاخرى حيث تجمعت في زاوية منها حفيداته وامهاتهن وجداتهن،اعينهن الى الباب واسماعهن الى المضافة وصدورهن مملوءة بالتوجس والخوف والغم ...

ربما كان الان في قريته تلك او في قرية اخرى بعيدة ، قرية على الحدود ، في كوخ مصنوع من القش والطين او في بيت من الشعر قائم على عمودين ، عنده كما عند كل رجال الحدود بندقية ولكنه لايحملها على كتفيه فهي على كتفيه الواهنتين ثقيلة وانما يعتمد عليها حين يقوم . ينظر من تحت حواجبه الكثة الى ابناء ابنائه وبناتهم فلا يملأ صدره الغم الذي يملاه لو كان في قريته حيث يقتحم عليه جنود اسرائيل حجرة المضافة وانما تملاه حسرة ان ينتهره حين يبطيء في القيام والاحترام عريف لايدري من هو ، اين كان ، واين امسى ... وان يرتقب ليقيم اوده ويطعم صغاره وصغار ابنائه ان تصل اليه حصته من معونة الشتاء وان يمد عينيه فيرى بمد البصر طلائع الارض التي هي ملك له او لمن هو منهم ولكنه لايقوى على الوصول اليها . . .

ربما كان في قريته تلك وراء الحدود او في قرية اخرى على الحدود وربما لم يكن في هذه ولا في تلك وكان في مكان اخر . ان عشرة اعوام امد طويل على شيخ ينوء بعبء السنين .. ربما كان في جدث تحت سطح الارض انطفأت فيه عيناه اللامعتان وهمد صوته الحاد واتى الموت فيه على حركات ذراعيه المقتصدتين وخطوه الهادىء المتزن ، فلم تبق منه الا حجارة مكومة على قبر ضائع في تلك الارض البعيدة وهي القريبة المرخصة وهي الغالية ، المنسية وهي التي لاتنسى . . .

ربما كان الان في قريته وربما كان في قرية اخرى على الحدود او كان دفينا في قبره . اينما كان فاني اذكره واحيي ذكراه واخفض الرأس لتحيته ولدى تذكاره !

*

حين وقع بصري عليه لاول مرة احسست باني لقيت به بعضا من اهلي الذاهبين . رأيت في جلسته القرفصاء على الموقد يهيىء القهوة لضيوفه جلسة جدي حداد في مضافته وهو يصب القهوة من الدلة الكبيرة التي اسمها القمقوم الى الدلال الاخرى المتدرجة في الحجم حتى تنتهي الى المصب وهو اصغر انية القهوة الذي منه يسقي الضيوف . كان كجدي ذاك في صغر قده وفي انحناء ظهره اذا قام وفي لبثه اكثر وقته امام الموقد متشاغلا بالقهوة ونارها ومحماسها ونجرها عن كل شغل. ولكن ملامح وجهه والتماع عينيه ونبرات صوته كانت تذكرني بعمي عبد حتى لكان عمي لم يغادر هذه الحياة ولكانه كان يخطر امامي في تلك اللحظة . لم اخبره بمن يذكرني به من اهلي رغم اني في كل وقت كنت فيه حرا من المشاغل كنت اترك جماعتي واقصد حجرة المضافة لاقعد على يساره امام الموقد ، فلعله ظن ان كل مايدفعني الى ملازمته هو غرامي بالقهوة المرة فكان يؤثرني بالفنجان الاول من القهوة البكر وينتظر ان يلمح في نظرة خاطفة رضا الخبير في تعابير وجهي ، ويجيبني بما لايجيب به غيري حين اساله عن الاحوال والناس ، فلا يهز لي كتفيه ولا يحيل العلم بالامر الى الله بل يقول لي بكلمات مقتضبة ولكنها حاسمة ان الانكليز خنازير وان اليهود كلاب جبناء مااستطاعوا يوما ما ان يدوسوا ارضه ولن يستطيعوه مادام في عروقه دم وفي صدور ابنائه وابناء ابنائه انفاس تتردد .. كان ذلك شيئا لايقوله لغيري من اصحابي ولا لرئيسي ورئيس جماعة المجاهدين التي كنت واحدا من افرادها . فالمفروض ان هذه الجماعة انما جاءت الى ارضه لتحميه من اليهود وتحميها ولتتخذ منها نقطة انطلاق لتحرير الاراضي التي تجاورها من رجس اليهود واغتصابهم ومحاولتهم فيها تثبيت اقدامهم فكيف يقول لافراد الجماعة ورئيسها ان اليهود لايستطيعون ان يدوسوا ارضه وانه قادر بغير هذه الجماعة المدربة على القتال المهيئة بالسلاح والعتاد المزودة حتى ببضعة رشاشات وبمدفع هاون ، انه قادر بغير هذه الجماعة ان يحمي ارضه من اليهود وان يحول بينهم وبين التسلل الى قريته او نسف منازله او الاستيلاء على نعاجه وافراسه واباعره ؟ انه لو فعل ذلك لو قال لرئيس جماعة المجاهدين ولاصحابي ماكان يقوله لي ، لما لقي منهم الا ابتسامة الاستهزاء ، اذا لم تصله من محنقيهم او بعض سفهائهم شتيمة تلحقه بكل هؤلاء الذين اتينا نفديهم بارواحنا فلقينا منهم الضيق والعقوق والجحود ولقينا منهم احيانا الخذلان والتواطؤ والخيانة ... لذلك فانه لم يكن يجيب احدا غيري بما كان يجيبني به من رأيه في الاحوال والناس ، فكان يبدو لنا عارفا بجميلنا مقدرا لحضورنا ويضع نفسه وابناءه والقليل الذي يملكه في خدمتنا ، خدمة هؤلاء الفتية

(*) من مجموعة « الحب والنفس » التي تصدر هذا الشهر عن دار الاداب ببيروت

الطيبين الكثيري الصخب المعتدين بانفسهم وباسلحتهم ، وكان يتلقى من رئيسنا او ممن يأتيه باسم رئيسنا كل امر بالقبول لايضع فيه رأيا ولا اعتراضا الا ايماءات عارضة يعتذر لها بخبرته بالارض لا بالحرب ومعرفته بالناس لا بالامور .

وكانت ارضه ، هذه الارض التي اقمنا في قريته لنحميها ولنجعل منها مركزا لحركاتنا في هذا القطاع من لواء الجليل ، تقع جنوبي صفد بينها وبين جب يوسف والرامة . جئنا هذه الارض لنجرب فيها ، مع الانكليز ، تجربة جديدة لم نتعرض اليها حين كنا في قرى القسم الاعلى من لواء الجليل شمالي طريق صفد الرامة – عكا . فقد كانت هذه القرى تقع في القسم العربي من مخطط مشروع التقسيم الذي كان الانكليز يهيئون انفسهم للتخلي عن فلسطين على اساسه ، وكان تدخلهم في عملياتنا فيها ضئيلا ومحدودا حتى لكأنهم كانوا يتغاضون عامدين عن اعمالنا الحربية مهما بلغت من الحدة والانتشار . لذلك فقد عبرنا بقسم من قواتنا طريق صفد – عكا عند قرية فراضة وتمركزنا في هذه الارض لننطلق منها في المنطقة التي اعطاها مشروع التقسيم لليهود ولنرى كيف يكون تفاعل الجيش الانكليزي ازاء غزواتنا وكمائننا في هذه المنطقة التي سموها منطقة يهودية . وكان دأب قيادتنا منذ جعلنا مقرنا في قريته ، هو من ارضه ومنذ اخلى لنا ، هو ، بعض الحجر من منازل عشيرته وشاركنا بحجر اخرى من منازل اخرى منها ، كان دأب قيادتنا ان ترسل الكشافة لتتعرف على الدروب ولتدرس نقاط الضعف للمستعمرات المجاورة ولتهيىء الخطط للحركات المقبلة . وكانت كشافتنا تصطدم في الغالب بما لم تكن تصطدم به في مناطق الرأس الاحمر وميرون وعين الزيتون ، تصطدم بحضرة دوريات انكليزية كانت تثبت وجودها وتضطر كشافتنا الى الانثناء والانسحاب الى مقرنا في هذه القرية الوعرة المسالك المتقطعة الدروب . وكان هو ، صاحب القرية وكبير العشيرة ، في كل الايام التي لبثناها نستكشف ونتهيأ ونناور ، لا يكاد يبارح مجلسه امام موقده : منه يجيب على استفهامات رئيسنا على المنطقة وقراها ومسالكها ، ومنه يشير الى ابنائه بمرافقة دورياتنا او بدلالتنا على مخابيء صالحة لكمائننا . اما فيما عدا هذا وذاك فقد كان في جلسته الدائمة امام الموقد كانه قد نفض عن كتفيه هموم الدنيا كلها مطمئنا الى اننا بعددنا واسلحتنا واندفاعنا وحميتنا قد كفيناه شر اليهود والانكليز وكل ما يؤرق الناس في القرى القريبة والبلدان البعيدة ، في فراضة وعين الاسد والرامة وعكا وصفد . وفي الحق اننا كنا كذلك في قريته مطمئنين بعد طول قلق وعناء ومكابدة لحياة الحرب في القرى الواقعة شمالي طريق صفد – عكا . فقد كانت الارض المنبسطة حول القرية تزداد تضرسا كلما تباعدت عنها حتى تنتهي بحقول من الصخور المدببة كأنها اسوار تحمي القرية من الواغلين الذين لا يعرفون حق المعرفة مسالكها وتجعل الرقيب المتمكن من نقاطها المشرفة قادرا على اكتشاف المتسللين اليها في يسر وسهولة . فكنا ، ما عدا دورياتنا الموزعة في مهامها ، ننام في الليل ملء جفوننا واثقين من منعة معلقنا ومن يقظة حراسنا . اما النهار فكان، لمن لم يكن في مفارز الاستكشاف او الكمائن ، ادعى الى الاطمئنان اذ كنا بعيدين عن ان يتناولنا سلاح مهاجم او ان نؤخذ على غرة . ولعل هذا الاطمئنان الى سلامة مواقعنا والى بعد الخطر عنا هو الذي جعلنا نستهين بامر الحراسة فنسلمها الى مفرزة جديدة لم يتمرس افرادها بعد بأحوال القتال تمرسا كافيا وهو الذي مهد الطريق الى ان نصاب بما اصبنا به حين فاجأتنا مصفحات الجيش الانكليزي ومدافعه بزحف

وقصف في قلب معقلنا وفي وضح النهار .

كان الوقت اصيلا وكنت مضطجعا على الارض الترابة في زاوية من غرفة المضافة اتطلع اليه وهو يقلب بيد المحماسة حبات القهوة على النار في الانية الحديدية بحركات متساوقة فيرتفع لتقليبه بها باليد المعدنية صوت خشخشة لطيف الوقع على الاذن وينبعث منه عبير القهوة العطري المثير . وفجأة هز جدران الحجرة والارض التي كنت مضجعا عليها دوي قاصم تلاه اخر واخر ، وارتفع في آن واحد وبعد لحظة قصيرة تلت الدوي عواء الكلاب وصهيل الخيل وضوضاء ملات القرية واصوات في حجرات المنازل الاخرى اخترقت الينا جدران الحجرة التي كنا فيها . وثرت من مضجعي واقفا واتجهت الى الباب اريد الاندفاع منه لولا ان نظري وقع عليه ، عليه هو ، فوجدته لا تزال كفه تروح وتجيء بيد المحماسة يقلب بها حبات القهوة بهدوء وبنفس الحركات المتساوقة التي كان يقلبها بها قبل ان تلعلع الانفجارات وتنطلق ضوضاء البهائم والناس في جو القرية . فاستحييت من ثورتي وتراجعت عن عزمي على الخروج من الباب وعدت فقعدت متصنعا الهدوء ، والقلق في الحقيقة يملأ علي جوانب نفسي . وكان ارتجاج الجدران وارض الحجرة قد توقف بعد ان تلاشى في الفضاء دوي الانفجارات الثلاثة فقلت اسأله :

– اين ترى وقعت هذه الانفجارات ؟ ما احسبها بعيدة عنا ؟..

فترك يد المحماسة واخذ يسوي بكفه اليمنى عيدان الحطب ويدفعها الى النار تحت الصحن الحديدي الذي كان يقلب فيه حبات القهوة ، وقال وهو ينحني برأسه على الموقد :

– بعيدة ؟ انها عند حقل الصخور . هذه هي مدافع الانكليز الخنازير

وكان مسبة الانكليز قد وصلت الى مسامعهم في تلك اللحظة عينها ، فقد تلاحقت بعد فترة السكون القصيرة انفجارات مدوية اخذت تهز الارض مجددا من تحتنا وبصورة اشد مما فعلته في الانفجارات السابقة، وتناهت الى اسماعنا ضوضاء غير التي ثارت تلك المرة اخذت تقترب منا شيئا فشيئا وبسرعة . فلم اتمالك نفسي بل خطفت بندقيتي التي كانت مسندة معترضة في اطار واحد من نوافذ الحجرة واندفعت الى الباب . وفي هذه اللحظة اظلمت الغرفة حين اقتحم الباب علينا جمع من رفاقنا المجاهدين ومن اهل القرية بينهم بضع نساء ملأوا بضجيجهم جو الحجرة التي كنا فيها هو وأنا . ولاول مرة سمعت صوته يرتفع عاليا ، عاليا حتى لقد برز من الضجيج بطابعه وسيطر عليه بحدته . كان يصيح منتهرا :

– اش ... اش!

فخفتت اصوات الضاجين وساد الموقف هدوء نسبي استطعت خلاله ان اتبين ان في مقدمة الجمع كان رجال مفرزة الحرس الموكلة اليهم خفارة القرية في حقول الصخور المحيطة بها والملزمين بان يدافعوا عن مراكزهم حتى الموت . كانت عيونهم زائغة والذعر يعقل السنتهم ، وقبل ان يتاح لي مخاطبة واحد منهم انفرج الجمع امام الباب فتسرب الضوء الى الحجرة وبدا الرئيس ، رئيسنا ، بقامته الربعة وعينيه الغائرتين ولحيته الكثة وهو يتقدم حتى وقف الى جانب الموقد وقال يسأل واحدا

من الحرس :

ـ ماذا جرى ؟ لماذ تركتم مراكزكم ؟

فقال الفتى الذي وجه اليه السؤل :

ـ دبابات يا سيدي الرئيس ! دبابات ومصفحات بعد التراب اقبلت تطوقنا من كل جهة ، فجئنا نخبركم بالامر .

فقال الرئيس بهدوئه الذي كنا نعرف انه كان يخفي وراءه حنقا قتالا:

ـ جئتم كلكم ؟ الاوامر ان تظلوا في مراكزكم . جبناء!

فتلعثم الفتى وقال :

ـ الدبابات يا سيدي الرئيس .. الدبابات والمصفحات مثل التراب..

فقال الرئيس بصوته الهادىء دوما :

ـ اخرس !

وفي هذه اللحظة ارتفع دوي الانفجارات من جديد ، انفجارات كثيرة متلاحقة كان يتخللها اصوات طلقات متتابعة لاساحة رشاشة . وخيل الينا ان الدوي الذي كان يهز الارض تحتنا والجو حولنا كان يزداد قربا منا شيئا بعد شيء . وادرت نظري في رفاقي حولي فرايت ملامحهم ناطقة بالخوف وايديهم على اسلحتهم لا تكاد تثبت عليها، بل خيل الي ان رئيسنا نفسه قد فارقه هدوؤه ودب القلق الى نفسه، فقد رأيته يقلب بصره بين رجاله ويرده الي ثم يحوله اليه ، الى الشيخ الصغير القد الذي وقف ساكنا ساكنا لا يختلج له هدب ولا ينطق بكلمة.

صاح الرئيس بصوت ، على غير عادته ، صارخ :

ـ الى مراكزكم ، كل منكم في حظيرته ..

ولكن احدا لم يتحرك ،اوتحرك بعضنا ببطء ودون حماس ، بينما كانت انفجارات القنابل وازيز الرصاص تملأ الفضاء . وعلا صراخ طفل تلته صيحة امرأة هبطت بالقلوب الى الحضيض . وفجأة سمعت ، رغم الدوي والضوضاء والتوتر المسيطر ، سمعت صوته ، صوته هو ، يقول :

ـ هؤلاء الخنازير يظنون انهم يخيفوننا بحدائدهم ورصاص بواريدهم؟ نحن لهم . يا ولد يا اسماعيل هات الفرس ..

فقال ذاك الفتى الذي ترك مركز حراسته وهرب :

ـ الدبابات .. الدبابات والمصفحات مثل التراب ..

فارتفع صوته يقول :

ـ والدبابات ؟! هل هي الا حدائد ؟ نحن رجال يا ابني وهم رجال ..

ورأيته يستدير الى زاوية من الحجرة حيث كان صندوق خشبي مصفح بمربعات من التنك ملونة وبراقة فيتناول من ورائه سيفا مهترىء الغمد لم تقع عليه عيني قبل هذه اللحظة ، وبكل هدوء تمنطق بذلك السيف ثم اخترق الجمع المحتشد في الغرفة وامام الباب وتوجه الى الفرس التي كان يمسك بعنانها اسماعيل ، احد ابنائه . ولما امتطى الفرس واخذ عنانها بيده التفت الى رئيسنا وقال :

ـ يا حضرة الرئيس ، خذ رجالك ووزعهم على الخنادق التي حفرتموها حول القرية .. انا وابنائي ذاهبون لنرى هذه الدبابات ...

ولوى رأس فرسه متجها بها بين منازل القرية الى الشمال حيث كانت اصوات الانفجارات تدوي فتردد الصخور اصداءها بصور عجيبة ومريعة. وارسلت بصري ، كما ارسل بصره كل من كان في ساحة القرية آنذاك وراء هذا الشائب الطاعن في السن على صهوة فرسه ، كان خطو الفرس هادئا كان فارسه ذاهب عليه الى نزهة ، وكان هو على سرجه قبل ان يخرج من بين المنازل مسترخيا كأنه خادم بيت عتيق وراء قافلة طحن. ولكنه بعد ان خرج من المنازل وابتعد عن جمعنا سل سيفه من غمده والقاه عريانا على كتفه فتبدل فجأة كل الجو الذي حوله وحولنا بهذه الحركة منه . لم تسرع دابته في خطوها ولا هو غير جلسته على صهوة فرسه ، ولكن تقدمه المستمر يحف به على جانبيه ووراءه ستة من ابنائه حفاة مشمرين واصابعهم على ازندة بنادقهم ، انسانا زمجرة المدافع وازيز الرصاص والخوف الذي تسرب الى اعماق نفوسنا والذعر الذي عقل السنتنا . ورايت بعض رفاقي يعدون وبنادقهم في ايديهم لاحقين بالنائب ذي السيف العريان على كتفه . وسمعت من جديد صوت رئيسنا هادئا من دون صراخ وهو يلقي اوامره على عرفاء جماعتنا بالتوزع معينا لهم اماكن التمركز والتهيؤ للقتال ..

في تلك الساعة من الاصيل ، ذلك الشيخ بين ستة من ابنائه سائرا الى لقاء الدبابات بسيفه المجرد على فرسه الاعجف ، منظر رائع ، منظر لا ينسى .. ولا ينسى كذلك منظر رأيت فيه ذلك الشيخ بعد ثلاثة اعوام او تزيد في رواق من اروقة بناء الاركان العامة ، في دمشق . في فترة هذه الاعوام الثلاثة ، بل لعلها كانت اربعة ، تغيرت امور كثيرة علي ظهر البسيطة . من قتل منا هناك بليت عظامه في قبور لا شواهد عليها في ارض يدنسها خطو الغاصب صباح مساء .. اما من عاد حيا فقد ادهشه ، واعجبه ، ان تضفر له من العار اكاليل الغار وان يذكر الناس جهاده ولا يذكرون هزيمته . في ذات يوم بعد مرور تلك الاعوام خرجت من مكتب احد اصدقائي في بناء الاركان العامة فاخذت عيني بوقفته فى الرواق ، وقفة جدي حداد ذي القد الصغير والظهر المحدودب ، فخيل الي انه لم يكن واقفا امام باب في بناء رسمي في دمشق ، بل كانه قائم لتوه من امام الموقد في حجرته في قريته حيث كان يدردر القهوة

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

ذاك المساء

ذاك المساء
والشارع الممدود تسحب فوقه شمس الخريف
حزما بقايا من ضياء
والصمت يحتضن المكان سوى رفيف
اشجاره وخطى لبعض العابرين
ساروا هناك على الرصيف
ساروا بلا هدف بلا قصد ، حيارى تائهين
لم ادر فيم وقفت ، فيم تسمرت قدمي على ذاك الرصيف

لم ادر ماذا شدني عند الجدار
هل كنت ابحث في ضياعي عن وجودي
هل كنت في قلق الحياة
ذاك المساء
اسعى باعماقي الى شيء . الى شيء بعيد
اسعى اليه ، اود لو القاه ، لكن لا اراه

✶

كان الفراغ يحط في عيني ثقله
وتفاهة الاشياء تلقي ظلها الخاوي بنفسي
وتلف ايامي البطيئات المملة
فحكاية الحب التي انهيتها
شيعتها ودفنتها
من امس امس
ها نحن قد مرت علينا
عشرون يوما فارغا مرت علينا
عشرون يوما ، ما التقينا

ووقفت :
« ماذا لو يمر الان بي ؟
انا كيف القاه لو التقت العيون
لا ، لن امد يدي اليه ، لن يحركني فرح
ذاك الجنون
ما عاد مثل الامس يبدع لي الفرح
سارد عن عينيه وجهي لو يمر الان بي
سأظل ارنو للفراغ كأنه ما مر بي
انا لن ابالي لو يمر .. »
وبقيت في ظل الجدار
لم ادر فيم بقيت في ظل الجدار
قدمي مصفدة ، وطرفي تائه لا يستقر

✶

.. هو !! وانتفضت وحاصرت عيناي منعطف الطريق
وقطعت مفترق الدروب ورحت تدنو من مكاني
هي خطوة او خطوتان
ووقفت في ظل الجدار معي هناك على الرصيف
لم ادر ماذا قلت ، كيف تعانقت منا اليدان
ببساطة ، بسهولة وتسمرت
عيناي في الوجه الذي ادمنته
في واقعي المحتوم ، في قدري الذي قاومته
عشرين يوما ضائعا قاومته
ورفضته

نابلس **فدوى طوقان**

رموز ترنيمة قديمة ...

بقلم محيي الدين محمد

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب
تحم دروبها والدور ، ثم تزول حماها
ويصبغها الغروب بكل ما حمله من سحب
فتوشك ان تطير شرارة ويهب موتاها :
« صحا من نومه الطيني تحت عرائش العنب..
صحا تموز ، عاد لبابل الخضراء يرعاها . »
وتوشك ان تدق طبول بابل ، ثم يغشاها
صفير الريح في أبراجها وأنين مرضاها .
وفي غرفات عشتار
تظل مجامر الفخار خاوية بلا نار ،
ويرتفع الدعاء ، كأن كل حناجر القصب
من المستنقعات تصيح :
« لاهثة من التعب
تؤوب الهة الدم ، خبز بابل ، شمس آذار
ونحن نهيم كالغرباء من دار الى دار
لنسأل عن هداياها .
جياع نحن .. وأسفاه ! فارغتان كفاها ،
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب .
سحائب مرعدات مبرقات دون امطار
قضينا العام ، بعد العام ، بعد العام ، نرعاها،
وريح تشبه الاعصار ، لا مرت كاعصار
ولا هدأت ــ ننام ونستفيق ونحن نخشاها .
فيا أربابنا المتطلعين بغير ما رحمه ،
عيونكم الحجار نحسها تنداح في العتمه
لترجمنا بلا نقمه ،
تدور كأنهن رحى بطيئات تلوك جفوننا ..
(حتى الفناها)
عيونكم الحجار كأنها لبنات اسوار
بأيدينا ، بما لا تفعل الايدي ، بنيناها .
عذارانا حزانى ذاهلات حول عشتار
يفيض الماء شيئا بعد شيء من محياها ،
وغصنا بعد غصن تذبل الكرمه
بطيء موتنا المنسل بين النور والظلمه ،
لو الويلات من أسد تكابد شدقه الادرد !
انار البرق في عينيه ام من شعلة المعبد ؟
أفي عينيه مبخرتان اوجرتا لعشتار ؟
أنافذتان من ملكوت ذاك العالم الاسود :
هنالك حيث يحمل ، كل عام ، جرحه الناري،
جرح العالم الدوار ،فاديه
ومنقذه الذي في كل عام من هناك يعود بالازهار
والامطار ــ تجرحنا يداه لنستفيق على أياديه؟
ولكن مرت الاعوام ، كثرا ما حسبناها ،
بلا مطر .. ولو قطره
ولا زهر .. ولو زهره
بلا ثمر ــ كأن نخيلنا الجرداء أنصاب أقمناها
لنذبل تحتها ونموت .
سيدنا جفانا . آه يا قبره
أما في قاعك الطيني من جرة ؟
أما فيها بقايا من دماء الرب .. أو بذره ؟
حدائقه الصغيرة امس جعنا فافترسناها
سرقنا من بيوت النمل ، من اجرانها ، دخنا
(وشوفانا
وأوشابا زرعناها
فوفينا ــ وما وفى لنا ــ نذره ! »

*

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار، قربانا لعشتار
ويشعل خاطف البرق ،
بظل من ظلال الماء والخضراء والنار ،
وجوههم المدورة الصغيرة وهي تستسقي .
فيوشك ان يفتح ــ وهي تومض ــ حقل نوار.
ورف ــ كأن الف فراشة نثرت على الافق ــ
نشيدهم الصغير :
« قبور اخوتنا تنادينا
وتبحث عنك ايدينا
لان الخوف ملء قلوبنا ، ورياح آذار
تهز مهودنا فنخاف . والاصوات تدعونا .
جياع نحن مرتجفون فى الظلمه
ونبحث عن يد فى الليل تطعمنا ، تغطينا ،
نشد عيوننا المتلفتات بزندها العاري .
ونبحث عنك في الظلماء ، عن ثديين ، عن حلمه
فيا من صدرها الافق الكبير وثديها الغيمه
سمعت نشيجنا ورأيت كيف نموت .. فاسقينا!
نموت ، وأنت ــ وأسفاه ــ قاسية بلا رحمه.
فيا آباءنا ، من يفتدينا ؟ من سيحيينا ؟
ومن سيموت : يولم لحمه ودماءه فينا ؟ »
وابرقت السماء كأن زنبقة من النار
تفتح فوق بابل نفسها . واضاء وادينا ،
وغلغل في قرارة ارضنا وهج فعراها
بكل بذورها وجذورها وبكل موتاها .
وسح ــ وراء ما رفعته بابل حول حماها
وحول ترابها الظمآن ، من عمد واسوار
سحاب .. كان لولا هذه الاسوار رواها !
وفي أبد من الاصغاء بين الرعد والرعد
سمعنا ، لا حفيف النخل تحت العارض السحاح
او ما وشوشته الريح حيث ابتلت الادواح،
ولكن خفقة الاقدام والايدي
وكركرة و «آه» صغيرة قبضت بيمناها
على قمر يرفرف كالفراشة ، او على نجمه..
على هبة من الغيمه
على وعشات ماء ، قطرة همست بها نسمه
لنعلم ان بابل سوف تغسل من خطاياها !

بدر شاكر السياب

الشعر العظيم التلقائي نابع من الاعماق ، حيث تسبح ملايين الاحلام والرؤى والحكايات والاوهام والاساطير والتقاليد البدائية ، مكونة عالما يبلغ من الكثافة والطلسمية قدر ما يبلغ العالم الحقيقي واكثر ...

والشاعر من قديم هو امتداد الامثولة في الانسان ، لانه لا يرى العالم الا من خلال خياله وعاطفته معا ، بينما الانسان السوي ــ وسوف نلاحظ ان الشاعر ليس كذلك ــ لا يرى العالم الا بالشكل الحقيقي الذي يراه عليه الاخرون ، ولا يمكن في هذه الحدود ان يقفز منظر غروب شمس الى اكثر من ذلك عند الرجل العادي الذي لا يحب ان ينشغل بهذه العواطف والاخيلة التي ينشغل بها الشاعر ويجعلها دنياه الخاصة .

الانسان السوي مركب درجي من ذهن وعاطفة واحلام كامنة في اللاوعي ، وتتعادل هذه المركبات بصورة لا تدفع بواحدة منها الى الاكتناز على حساب الاخرى ، وبصبح العالم على غاية من الانضباط والاتزان ازاء هذا الوعي المنضبط الذي يعرف حدوده جيدا . اما الانسان غير السوي فتختلط فيه هذه التراكيب بشكل لادرجي وغريزي ، فيعظم مقدار المكبوت في اللاوعي على حين يظل الذهن ، وتظل العاطفة في مستواها العادي.. ويتخلخل التوازن ، ويصبح العالم في نظره مرسوما بلون اعماقه المضطربة حيث تسود الاحلام والاساطير والخرافات .. وتأخذ العلاقات العاطفية والاجتماعية بالضمور ، لان الحواس هي النوافذ التي تحقق الحياة مع الاخرين ، وتعطيها هذا الشكل المألوف .

الشاعر صورة من صور الانسان غير السوي ، وهو لا يطمح فحسب الى

ان يعبر ارض الاحلام التي في باطنه ، بل ان يعبر عنها جميعا بصورة اجتماعية ايضا ، وبدرجة لا تجعل تعبيره فرارا من داخله ، ولا كمونا فيه، والسبب الذي يجعله لا يرى العالم بالشكل المختلط المتشابك الذي يراه به الرجل غير السوي ، هو انه يملك حدة ذهنية وعاطفية كبيرة تحدث لا نوعا من التعادل بين المركبات ، بل اندماجا بينها كليا ، ولا يستطيع القاريء لقصيدة عميقة الا بدرجة شديدة من الوعي والجهد الاستقرائي، فصل العقلي عن اللاعقلي او عن الموروث التقليدي .. في حين يطغى التراث الحلمي عند غير السوي ، ويلغي عمل العقل والعاطفة ..

باطن الشاعر متخم بالصور والعلاقات والحكايات الجاهزة ، ولا تنتظر الا محركا خارجيا يقفز بها من حالتها الكامنة الى حركة غنية فياضة هائلة ، تأخذ الصور بالقفز الى محصلة الشاعر الواعية في شكل شرارات كثيرة متقاربة ، كل شرارة منها تريد ان تسكن فيذهن الشاعر ، وهو حائر لا يدري - ازاء هذا التيار الملح - اي صورة يختار ، وفي هذه الحالة لا بد من الرضى ببعض الصور التي تحمل ملامح من هذه الحادثة ، وملامح اخرى من تلك الرواية ، وشيئا من إسطورة قديمة عمرها الف عام .. ومشكلة التعبير عنده ليست كيفية اختيار الصورة الحقيقية بين هذه المئات المتعددة ، بل هي كيفية نقل هذا الاحساس الداخلي فيه بالالفاظ !!

اللفظة النثرية صريحة ومجابهة ، فاذا شئت ان تصف عينين بالسواد، فانك تقول : عيناك سوداوان .. اما الشاعر فلا يستطيع ان يتوجه توا الى الهدف ، ولذلك فهو يقول : عيناك غابتا نخيل ساعة السحر . بدلالتين للفظة الواحدة ، الجملة والتشبيه .. ثم التخيل وهي العملية التي ينتظرها ويتوقعها الشاعر من القاريء ..

اذا استعمل الشاعر ذهنه في التعبير عن باطنه ، حملت كل كلمة دلالة واحدة لها ، واذا ترك لعاطفته بالاشتراك مع ذهنه مهمة اختيار الكلمات المعبرة عن باطنه ، استطاع القاريء ان يدرك اكثر ما يجول بخاطر الشاعر، اما القاريء الذي يرتبط باكثر من رباط فهو الذي يشترك معه ، في موروثات بدائية واحدة ودين واحد وخرافات واساطير واحدة ، وتكفي اشارة وحيدة ذكية كي تفتح الاعماق القديمة التي نسيها القاريء في زحمة الحياة ، وان تحيله الى باقة او شحنة من الذكريات والسعادات ..

والشاعر لا يختار ان يستعمل هذا او ذاك من الاساليب ، فليس هناك واحد يختار ان يعبر بذهنه ، او بطريقة اخرى ، فالمشكلة ابعد من ذلك، اذ تتصل بالوراثة والبيئة والتشريح الذهني والعصبي والنفسي جميعا ، وهذا لا يعني إيضا ان كيفية التعبير متروكة للقدر والمصادفة ، فذلك يسهل على الشعراء تجنب التزود بالثقافة بحجة لاضرورتها .. فالشاعر القاريء الذي فتح نوافذ المعرفة على ثقافات متعددة وعميقة يستطيع ان يعادل الاخر الذي امتلأ منذ صباه بالاساطير والتجارب ، وليس غريبا ان كل شاعر عظيم اتقن على الاقل لغتين اجنبيتين ، باستثناء شيكسبير الذي قهر ذلك بان هضم بلوتارك كلية ...

داخل الشاعر متخم بالرموز ، والمشكلة هي كيفية اخراج هذه الرموز بشكل اقل رمزا مع استعمال نفس الالفاظ التي يعرف الناس مدلولاتها ويعرفون ايضا انه عسير عليهم ان يكشفوا فيها اكثر من ذلك المدلول الواحد . واذن فكيف تكون اللفظة الشعرية قريبة الى ذلك المدلول الواحد ، مع احتفاظها بالرمز الغامض في باطن الشاعر ..؟

اذا كانت في باطن الشاعر تجربة حزينة ، فان امامه لفظة واحدة اساسية هي (حزن) ، بيد ان ذلك هو هم الشاعر العقلي ، واذن فهناك مخارج اخرى يختلف شكلها عن ملامح الحزن ، يستخدمها باطن الشاعر في التعبير عن هذا الحزن بالذات ، واذن فالمشكلة هي نقل عاطفة او احساس معين من مجاهل اللا وعي الى رياضية الوعي ، ثم نقل الصورة الاخيرة في زي جديد الى الخارج ، ومن هنا تنشأ مشكلة التعبير ، وتركيب الالفاظ بالصورة التي تبقى على الشكل الرمزي ، وتوصل في نفس الوقت ، قارئا ما الى الينابيع الاصلية للعاطفة التي يعبر عنها الشاعر ...

الشعر الذهني يوصل القاريءفورالان الكلمة مدلولية ،فيحين تقفز الجملة عند الشاعر الباطني من مجرد تركيب عادي للكلمات ، الى استنطاق للرمز ذاته ، كي يعبر هو عن الكلمة المنضبطة ، فالمعاناة التي يعيشها الشاعر ليست بحثا عن كلمات مجنحة ، اكثر منها ضغطا على الرمز للافصاح بالصورة التي يراها اقرب من غيرها الى الحقيقة .

الشعر مرتبط بالغناء وبالدين والموسيقى ، بأدق ما في الانسان من كونية وانتساب الى الارض والسماء ، وهو ليس رغبة بسيطة في الالتذاذ بجمالية الكلمات وارتطاماتها بالاحرف الساكنة والمتحركة ، بقدر ما هي فيض عن الفنى التجربي والعاطفي في باطن الشاعر ، واذن فلماذا يختار التعبير عن ذلك الفيض الحيوي بهذه اللغة الغريبة القاسية ، اذا كانت شدة الكلمات وغرابتها ستؤخر اكتشاف القاريء للتجربة ؟؟.. وبعبارة اخرى ، لماذا يصر على البحث عن كلمات ذات اجراس ، اذا كان المعنى هو الذي يطلب الخروج من اعماقه ؟؟ واذن فلا بد ان هناك شيئا اخر مع المعاني يريد ان يخرج للوجود .. ولهذا دلالة ، فمن بين الاف التجارب والمشاعر التي يعانيها ويحملها الشاعر في قلبه ، لا تخرج الى النور سوى التجربة التي يمكن التعبير عنها بهذه اللغة المنغمة ، والباقي يذهب جفاء ...

صفحات التوراة تبلغ الفا وثلاثمائة وثماني وخمسين صفحة، معظمها حكايات واقاصيص بطولة وتضحية وعظات واساطير مكتوبة بأبسط الكلمات واشيعها واقربها الى العقل . وفي مكان القلب من التوراة تشع الكلمات العجيبة لنشيد الانشاد في سبع صفحات بكلمات قليلة نادرة : لماذا كانت هذه الاصحاحات الثمانية اكثر من غيرها شاعرية واكثر احتفالا بالخيال والعاطفة ، لماذا كانت هذه الصفحات السبع وحدها بين الف صحيفة وثلاثمائة ، الصفحات الاكثر تأثيرا في النفس ؟!

ان شيئا غامضا اذن يكافح ويصارع الظلام والتعقيد والتشتت كي يفلت منها الى الوضوح القمري للمعاني المحسوسة والمعقولة .. والشاعر يستخدم الظواهر العادية في حياتنا كايماء للشيء الغامض في باطنه هو ، واذن فان هناك شيئا متداخلا ، وعنصرا مشتركا بين الظاهرة العادية التي يمثل بها الشاعر ، وبين الرموز الباطني.. ولا بد ان يكون هذا الشيء كامنا خلف الكلمات ، وخلف البناء والقالب الشعري ، كما لا بد ان يكون وجوده موزعا على النفس البشرية جميعا كقسط وجودي ، وان يكون كامنا فينا ، قديما وبدائيا ، كان موجودا قبل ان تصقلنا الحضارة بشكلها التلاويني المزوق .. واصبح بعد تطورنا كالشرارة الخامدة تحت الرماد ، تنتظر الريح وشيئا تسرى فيه ..

والفارق الواضح بين نشيد الانشاد كعمل شعري وبين اي سفر اخر هو بالدرجة الاولى الكيان الرمزي الاسطوري الذي لف به النشيد، ثم كلماته اللاذهنية النابضة بالعاطفية والاحلام، ثم هو بعد ذلك موسيقاه الحزينة الوئيدة التي تقطع القلب .. ذلك وحسب ما يجعل الشعر شعرا ، على ان يتراوح العنصر الاول بين الدين والاسطورة والحلم

والموروث البدائي والشعبي .

اما الشعر العادي الفارق في حمأته ، فهو نتيجة التصاق العنصرين الثاني بالثالث ، وعشرات التطبيقات في شعرنا العربي الحديث تمنعني من ذكر الامثلة . اما الاول فلا يمكنه ان يبدي وجهه الرائع الا حين يصل الشاعر في طاقاته الى ابعد مدى ممكن من الوعي والثقافة والفهم العميق لشعبه ، مع ادراك عظيم لعواطفه واحلامه ، فبقدر ما كان الشعر رمزا لحلم مشترك ، كان عملاقا وعظيما وموحيا الى ابلغ درجة .

اذن ، هناك مجموعة من الرموز في باطن الشاعر ، ومجموعة اخرى من المنظورات الخارجية ، ومجموعة ثالثة من الكلمات ، ثم حدة عاطفية وخيالية عظيمة ..

الاشارة تأتي من الخارج ، فتتحرك ملايين الرموز وبازائها تتحرك عكسيا ملايين المنظورات الخارجية في حركة أشبه بحركة قرصي الساقية ، والفارق الوحيد هو ان السنون تصارع كي تتدخل في الفجوات المقابلة ، وبعد عشرات القياسات والمحاولات تتداخل السنون ، ويستقيم القرصان ، والشيء الباقي هو كيفية اخراج هذين الرمزين المنطبقين في شكل واضح وساطع ، بواسطة كلمات اقرب ما تكون صلة بالرمز المدفون ، وابعد في الحقيقة عن المدلول الواضح للكلمات ذاتها ! !

والشعر العظيم وحسب ما تنطبق عليه هذه الاوصاف ، اما الاشعار الفئة فتتراوح بين اكتشاف المنظور او تنمية العلاقات البسيطة ، وفي احسن حالاته بهذه العلاقات الى الحنين والى البكاء والعطف ....

ان التعبير عن العلاقات الاجتماعية ليس عمل الشاعر ، ولا كان الوضوح سبيله الوحيد لكشف عناصر القضية الاجتماعية التي يسود ابرازها ، ولماذا يغمض هو علاقة معروفة لنا جميعا؟؟

واذن فان شيئا اخر غريبا يجعل الشاعر يختار علاقة اجتماعية ما ، ويمزجها بداخله الرمزي ثم يقدمها الى الاخرين كجوهرة مصقولة ... ولا بد ان يكون هذا الشيء منتسبا الى الكون العظيم الحافل .

الى النجوم والسيارات والافلاك ، الى طبيعة الالتقاء الباهر بالمطلق في شموله وتعدده واتساعه العظيم ..

ان الشاعر يصبح الرسول الذي يوصل الحيوانية فينا الى قدسية الله ...

★

الاسطورة

بابل ارض خصيبة كوادي النيل . الماء وافر والزرع طيب ، والشمس حارة .. كل ما فيها يبشر بالنماء وبالحياة والخصب ، وفي ايام المحصول تنشط التجارة ويتزاوج الفلاحون ، ويبتنون الدور النظيفة ، والملابس الزاهية ، وتكثر الافراح والموائد والولائم ، وينقلب الناس البخلاء الى مبذرين رائعين ، فيعطون الاطفال الدراهم ، وهؤلاء يسلمونها بدورهم الى اصحاب المتاجر الشرقية الصغيرة المضببة بالبخور ، ويتناولون في مقابلها تلك السكريات والحلوى اللذيذة والاساور المطلية بالذهب ، والعقود والعرائس الحقيقية التي يلمع شعرها الزيتي في الشمس .. في لحظة تتغير الدنيا ايام الحصاد وتفصح الحياة عن وجوهها الالف ، وكلها جميل مطلي بلون الافراح والسعادة ..

ثم يأتي الشتاء ، على اثر غيمة وحيدة تطل من الافق كالجاسوس ، ويولي فجأة هذا الانقلاب الحلو المجنون ، ويكشف الظلام عن وجهه البارد الحالك ، ويختفي الناس في الدور المغلقة ويتكلمون نادرا ، وتموت كل مظاهر الحياة في الطرقات وتتوقف ، ذلك لان الها عظيما قد مات !!.

والاله اسمه تموز ، وهو يموت مرة كل عام هابطا الى العالم السفلي المظلم ، وبغيابه تختفي عشتار حبيبته ، وربة الطاقات الخصيبة في العالم . وتتوقف بذلك عواطف الحب ، وينسى الانسان والحيوان غرائزهما لحفظ النوع ، وتهدد الحياة بالفناء ، ولكن ملكة الجحيم القاسية « ارش كيجال » توافق بغير رضاها على ان تنبعث عشتار برفقة تموز اثر كل شتاء ، وان تنبعث لذلك الحياة في كل عام (١) ..

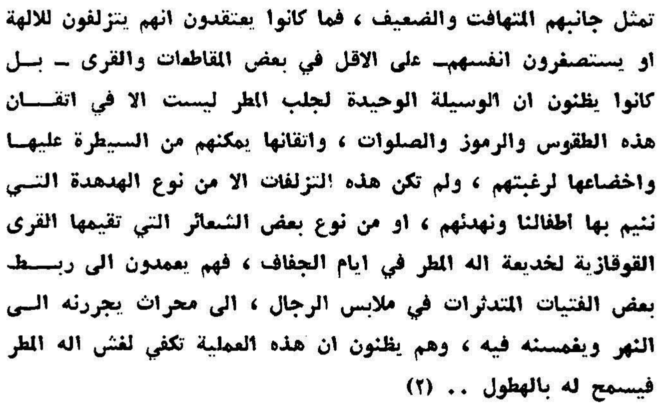
وهذه الاسطورة ليست وقفا على بابل وحدها ، اذ انها ترددت تقريبا في معظم الحضارات الزراعية التي ارادت ان تفسر هذا التجدد في الحياة وهذا الاقتران بالخصوبة والعطاء ، فالاحتفالات التي تقام في سردينيا وكالابريا وترانسلفانيا كل عام تحت اسم الاحتفال بالقديس جون ،ليست الا تطويرا مسيحيا للاحتفالات الوثنية التي كانت تقوم بها الشعوب القديمة هناك في ذكرى ادونيس الذي هو تموز باسم اخر ، وفي مصر القديمة كان اسمه اوزيرس ، وفي غربي اسيا سمي اتيس ..



بدر شاكر السياب

وكلها رموز عن هذا الاله الذي ينبعث كل عام في صحبة القمح والخيرات والمطر ..

ان حياة المتوحش والمدني والريفي مرتبطة ابلغ ارتباط بحياة المظاهر الطبيعية ، فاذا غاب مظهر معين واصبح الانسان مهددا بالموت او بالكوارث ، كان يمتنع المطر عن الهطول ، ويهدد الزرع بالموت عطشا ، ينقلب المزارع من قلق الانتظار المر ، الى الدعاء والرقص ، بتقديم القرابين الى الالهة واسترحامهم ، والشكوى لهم عن الالام التي اصابتهم ، وعن الجوع والمرض المترصدين لهم .. ولم تكن هذه الشكاوى والصلوات



تمثل جانبهم المتهافت والضعيف ، فما كانوا يعتقدون انهم يتزلفون للالهة او يستصغرون انفسهم- على الاقل في بعض المقاطعات والقرى - بل كانوا يظنون ان الوسيلة الوحيدة لجلب المطر ليست الا في اتقان هذه الطقوس والرموز والصلوات ، واتقانها يمكنهم من السيطرة عليها واخضاعها لرغبتهم ، ولم تكن هذه التزلفات الا من نوع الهدهدة التي ننيم بها اطفالنا ونهدئهم ، او من نوع بعض الشعائر التي تقيمها القرى القوقازية لخديعة اله المطر في ايام الجفاف ، فهم يعمدون الى ربط بعض الفتيات المتدثرات في ملابس الرجال ، الى محراث يجررنه الى النهر ويغمسنه فيه ، وهم يظنون ان هذه العملية تكفي لغش اله المطر فيسمح له بالهطول .. (٢)

كان هناك موت وانبعاث على طيلة الاعوام ، وكان يقال ان هناك صراعا بين اله الموت واله الحياة ، ولم تكن هذه الصورة وقفا على حضارة واحدة ، بل اشتركت في تلوينها كل الثقافات بأشكال مختلفة ، فمن قرية بقرب دوربات في روسيا الى هالماهيرا وجيلولو ، وهي جزيرة كبيرة

ـ التتمة على الصفحة ٥٥ ـ

أزمة البطل المعاصر

بقلم مطاع صفدي

القسم الثاني
العربي الثوري المعاصر

تمهيد

عانى العرب ، في تجربتهم الماضية ، نموذجين من الثوري ، يبدو ان احدهما يناقض الاخر ، وذلك بين الجاهلية والاسلام . اولهما ، في الجاهلية ، هو نموذج الثوري الفنان ، وفيه تتمثل وحدة الانسان والطبيعة في سبيل النشوة البطولية . وثانيهما ، في الاسلام ، هو نموذج الثوري الاجتماعي ، وفيه تتمثل من جهة انفصال الانسان عن الطبيعة واتحاده بالمطلق ، وذلك على اساس تنظيم مجتمع اسلامي يعمر قلبه اليقين وينصرف عقله للمعرفة الكلية ، وتنتظم طبقاته بحسب تسلسل درجة القداسة والتقوى .

ولكننا اذا تصفحنا الامر عن كثب ، وجدنا ان هذا التناقض بين النموذجين شكلي في حقيقته وسطحي . فكلا الاندفاعين الجاهلية والاسلامية انما صدرا عن ذات الوجود العربي نفسه في مرحلتين من تفتح شخصيته التاريخية . وهما مرحلتان تمتان الى هذا الوجود ذي الطبيعة الاساسية التي تتناقض في تطورها ، بقدر ما تفصح عن تكاملها ونموها . والواقع اننا نستطيع ان نجد هذه الطبيعة ، الثابتة في ينبوعها الاول ، تقوم على نزوع عنيف نحو المثل الاعلى . والنزوع الجاهلي كان مثله الاعلى خلق الفرد على صورة البطل . والنزوع الاسلامي كان مثله الاعلى تنظيم الانسانية بحسب نظام ميتافيزيقي يحقق السلام المطلق .

وفشل الاول ، او بالاحرى استنفد امكانياته ، عندما كون افرادا احرارا، اسطوريي البطولة ، ولم يستطع ان يكون مجتمعا موحدا حرا . وخاب امل النزوع الثاني (الاسلامي) عندما حاول ان يفرض نظاما وحدويا على انسانية ممزقة الاهداف ، هرمه في اكثر جذورها الحضارية،متنوعة الشخصية والثقافة والاتجاه ، وقضي على الفرد وانسحق كيانه امام القدر وفكرة المصير السلبي الذي اشاعته روحانيات ، من ثقافات محتضرة، انصبت عليه من الغرب الهليني والشرق المتصوف . وكان من نتيجه ان فني العربي في بحران الشعوبية وفشلت مثله ، وحول عقيدته في النهاية الى تبرير طويل كئيب لانحداره وفراره من الدنيا .

وتمت بذلك دورة تاريخية حافلة كاملة ، واصبح الطور الاخير من حضارة العرب المنصرمة نوعا من الدوران حول الذات واجترار انواع الابداعات السابقة ، ويدل على ذلك الادب المصطنع وكتب الشروح اللامتناهية لكتب عصر الانتاج السابق . هذا عدا عن غياب القيادة العربية نهائيا من المسرح السياسي ، وتفشي التجزئة بكل اشكالها من سياسية وطبقية اجتماعية ، وعائلية ، وعنصرية ، ونفسية . وساد السكون ارض العرب ، ودخل الشعب في صمود الظلام ، ولم يبدد نامة طيلة العصور التركية .. ولم يبق على المسرح الا الخليفة العثماني، رمز الانحدار العربي ، وحاشيته وحروبه وغلمانه وجواريه .

وكما يتكون كل موجود من سديم البداية ، وينتهي كذلك الى سديم انطفاء ويفقد كل حركيته وتشكلاته الانسانية ، كذلك غاب العرب في سديم انطفائهم . غابوا ولم يزولوا . وتلك هي خاصه الامة العربية التي تعطيها سمعة الخلود . فلكم قدمت امة العرب على مسرح التاريخ من حضارات متتابعة ، وكانت بين اندفاعة واخرى يخبو لهبها وتختفي حركيها كأنها قضي عليها الى الابد ، ولكن عودتها الى ذاتها ما هي الا فترة تجمع فيها قواها وتنضج لها دورة اخرى من الامكانيات ، وتنتظر دورها في مناسبات التاريخ الكبرى لتقدم نوعية من الحلول والمفاهيم والاعمال (رسالة نظرية وعملية) تناسب ازمة العصر ، هذه النقطة التي تتقاطع عندها مشاكل الحضارة في فترة انقلاب وتصفية ، تحول اتجاه الانسانية وتنهض بها لمسؤولية جديدة .

وعصرنا هذا هو عصر بداية جديدة لدورة اخرى ، ستنبثق خلالها الفعاليات الحضارية للامة العربية تلقاء اقسى ظرف تصفى فيه خطوط التاريخ الانساني كله . وتتحرك الامة العربية ، وتدفع بحركتها تدريجيا عبر المجال القومي والعالمي ، حتى تبلغ درجة تستقطب فيها رعب العالم وامله في الوقت ذاته . ومن خلال الاحداث الكبرى التي لعبتها اجزاء جبارة من الامة العربية تتكشف حقيقة البعث الجديد الذي يعانيه وجدان الامة . انها حقيقة ثورية ، من نوع فريد رهيب ، ما عرفته ثورية العرب سابقا ، ولا نكاد تعرفه ثورية الغرب كذلك . ولعل خصوصية هذه الثورية الرهيبة تأتي من نموذجها الغريب . وهو نموذج يكاد يكون مخلوقا من العدم ، تتصالب فيه مثل جبارة من الصعب ان تجتمع في نموذج واحد ، ولكنها قد تلاقى كلها في ذروة التصالب ، بطابع مطلق من السلبية . فتتفق اذن جميعا في انها مثل سلبية . ولكن من فعاليتها السلبية هذه تتولد ابعاد نضالية جديدة في الحياة والابداع ، وتتفتح آفاق ايجابية للعيش والعمل معا ، ليس بالنسبة لامة العرب ، بل للعصر الانساني ، كعادة كل انبعاث عربي في كونه دائما انبعاثا محملا باتجاه انساني ، ان له رسالة شاملة .

فمن هو هذا النموذج الثوري في العربي المعاصر ، ما هي ملامحه ، وما هي ابعاده المأساوية ، وكيف ينمو من خلال اصطراع عناصر الاصالة والزيف فيه وما هي مستوياته التي يتصاعد من احدها الى الاخر ضمن تجربته القلقة الغامضة ؟

عربي العصر ثوري اشكالي ، انه ينطلق في حركيته الممزقة من أناه الفردية اولا . واول ما يفعل فانه يعلن عن ذاته بهذه الصرخة :

انا ثوري !

اي انه يبرز لذاته وهو ضمن هذا الوضع الوجودي . فهو يؤكد حقيقته بهذا اليقين المبدئي الذي لا يحدد شيئا بعد ، وان كان اشارة

احجز نسختك

من عدد الاداب الممتاز
((الادب الثوري))

ملهمة لهذا الكائن ، وما يمكن ان يتوقعه هو من تاكيده الدرامي ذاك.وفي هذه المرحلة من تجربته لابد لنا من ان نحلل فيه صيغه الوجودية المختلفة التي يتبدى من خلالها ككائن ثوري . وسنرى ان هذه الصيغ ليست في حال من السكون والجمود ، بل انها انبثاقات داخلية غير مستقرة ، لا تلبث ان تبرز حتى تتلاشى ، وهي في صراع مستمر ضدهـا وضـد ما يعاكسها في الوقت ذاته . وفي اعماق هذا الثوري سنتلمس ديالكتيك الوجود والحرية في اعنف مظاهره قسوة وشراسة ، ونبلا ايجابيا مع ذلك .

غير ان هذا الديالكتيك ، سيصير الى مرحلة ذاتية ثانية كذلك ، وفيها يعي الثوري تجربته الفردية ، ويطرح مشكلة ثوريته ، مقيما اياها اولا بحسب معطيات واقعه الثوري ، وايجابيته الخاصة تلقاءه . وسيسأل هذه المرة الى جانب تاكيده الخام الاولي (انا ثوري) سيسأل (لماذا انا ثوري ؟) . ههنا تنضج فعاليات الديالكتيك الوجودي في اعماقه . ولا بد لها من عملية وعي شامل لها وجذري . وهو وعي سيكون مـن طبيعة هذه الثورية ذاتها ، اي انه ليس وعيا نهائيا . بل هو نوع من الانارة الداخلية التي تشع من عناصر الثورة ذاتها ونحو ذاتها . فلا يمكن ان ينفصل وعي هنا عن موضوعه ، ولقلق الموضوع وحركيته فان وعيـه كذلك قلق وحركي . فلا حدود ثابتة في معركة من اجل ان اكون انـا الحر . وكل بطولة تتخطى ذاتها ، وكل حرية تسخر من حرية اخرى ولدتها .

(لماذا انا ثوري) موجه الي اولا ، وهو لايشير الى اي تجريد او انفصال تاملي عن تجربتي . انني في سياق تجربتي اود ان اعيها ، اي ان احيط بها ككل ، وبحركيتها . وهنا كان وعيي في حقيقته موقفاقيميا، ليس في حدود قيمة مفردة واضحة بعينها ، ولكنه وعي في حدود الاطلاق القيمي ، فقد تجاوز تبريره الاخلاقي الجزئي . وهو ينزع الان الـى تبريره الكوني من حيث انه هل ينبغي له ان يوجد ماهو موجود عليه او الا يوجد اطلاقا . فانا لا اتساءل عن مبرر عقلي لثوريتي ، بقدر ما الح في تقدير مدى الاصالة في هذه الثورة ، وما يمكن ان ينبثق عنها من عمـل حر حقيقي . لان ثوريتي قضية لاتخص احدا غيري اولا ، وانا مضطر ان انقلب عليها فاحصا بين ان واخر ، لادرك معطيات نموها الجديدة ، واقيمها من حيث انها هي هدف ذاتها دائما . وفي موقف الثوري ليست مسالة البواعث ، لها ذات اهمية الثورة نفسها ، فقد تكون ثمة بواعث او لاتكون. لان كل باعث على الثورة هوجزء من الثورة ، هذا اذا ماتذكرنا دائما ان الثورة التي نعنيها ليست هذا العمل الجماهيري التخريبي الموقت ذا الطابع السياسي والظرفي . وبالتالي ليس للثورية اهداف مرمية الى افق المستقبل وكحد زماني لها . لان كل ثورة هي هدفها . وهو جزء عابر من نمو الثورة ذاتها وليس جدارا تتوقف عنده .

انا يءاتساءل لماذا انا ثوري بقدر ما اكون انا ثوريا في موقفي الذاتي الشامل . ولكن لايفهم من هذا انه ليس ثمة شروط واقعية محيطـة بالفعالية الثورية . بل هذه الشروط موجودة دائما ، ووجودها كذلك ليس على مسافة من الثورية . لان كل ثورية موقف في العالم المحيـط كاشياء ، والمبطن للموقف الثوري كشرط مطلق . فلا تخلو كل ثورية من ابعاد مجسمة حولها . ولكن الخطأ هو اعتبار هذه الابعاد هي حدودها الثابتة حقا . بينما هي مجرد تجسيم اضفائي للفهم الجزئي الذي يساعدنا على اعطاء الثورة ضمن اطارها الاجتماعي اليومي (١)

وينبع الوضع التساؤلي الثاني هذا ، وضع تساؤلي ثالث وهو : انـا الثوري ، كيف اثـور ؟

ومن الواضح كذلك ان هذا السؤال لايطمح في تبيان الطرق الثوريـة المجدية . انه سؤال يقع مبدئيا على شيء متحقق بالفعل . فالموقـف الثوري هو الذي يطلق هذا السؤال حول موضوعه هو بالذات . ولذلك فانه يتطلب جوابا وصفيا للثوري وهو في حال التحقق والتنفيذ . وهـو يفترض ان كلية الثورة تتابع حركيتها الحية من تلقاء طبيعتها الخاصة . فما هي هذه الطبيعة اتكون من صنع ارادة عابثة ، ام انها معطى قومي وميتافيزيقي للعربي الانسان في هذا العصر . وما معنى ان تكون الثـورة قومية ، وما هي سوالبها كالثورة الطبقية الحقدية والجزئية السياسيـة المبتسرة . وهل الثورة موقف عارض ام بديء ومستمر . وما هي المراحل التي تمر فيها الثورية من داخل ، وما هي افاقها الوجودية والانسانية .

وهكذا يتم ويتكامل وعي الثورية بصيغها الثلاث :

انـا ثـوري !
لماذا اثـور ؟
كيـف اثـور ؟

انـا ثـوري

(انا ثوري) تلك هي الصيغة الخام التي ابرز لذاتي من خلالها ، قبل اي ايضاح اخر . وهي صيغة تحمل عنف التاكيد وسذاجة الانطلاقـه الثورية الاولى . ولكنها ستظل النواة الايجابية للموقف الثوري كلـه مهما طرأ عليه من تطور ونمو وتعميق . انها بمثابة التأسيس الوجودي للذاتية العربية ، عندما تنقلب هذه الذاتية على شروط الواقع المضـاد للموقف الثوري ، في جموده وسديمه . ومن هذه الصيغة الاولية سيتحدد ارتباطي بالامة . انها الرمز الذي يميزني عن الواقع الفاسد المحيط بـي في عين ذاتي رمز لايحدد اي شيء ، بقدر مايفصل فحسب بيني وبـين واقعي . فصيغة (انا ثوري) تساوي ، في هذا المستوى ، (انا منفصل). ويمكن ان نقبل الان موقتا ، وفي بداية دراسة هذه الصيغة ، ان الانفصال يقع بين (الانا الثوري) وبين مادعوناه (الواقع الفاسد) ، غير اننا سنرى ان هذا الانفصال لن يبقى على درجة واحدة وفي مستوى واحد ، ولن يقف عند حد التعميم كأن نقول (الانا الثوري) و (الواقع الفاسد) . اذ اننا سنلقى فياعماق هذا (الانا الثوري) حركة مستمرة ، تربطـه بالواقع الفاسد ، كما انها تضع هذا الارتباط في علاقات جدلية متناقضة ومتغيرة ، تتجاوز اوضاعها ، وتخلق في كل لحظة نمو صيغة وجوديـة جديدة تتطلب موقفا سلوكيا اخر ، وبالتالي تطرح مشكلة العلاقة الثورية طرحا ثانيا ، فليس هناك وضع ثوري معين يمكن ان تتجمد فيه هـذه العلاقة الحركية المساوية بين الانا الثوري والعقبات التي يفترضها مقابلا لـه . فلنبدأ اذن بالوصف الاولي لانبثاقة (الانا الثوري) ، كيمـا نستطيع ان نحدد بعض ملامحه العامة ، ثم نتابعها بالتحليل متقصين كل الصيغ التي يمكن ان تحدد العلاقة المساوية بين (الانا الثوري) وبـين عاله المعترض عليه .

ان الانبثاقة الاولى للانا الثوري هي محض تاكيد عفوي ، ينطـوي على اتجاهات سلبية وسالبة مختلفة ، تترى بدون انقطاع ، في سبيل

(١) كل هذه النقاط المكثفة سنرى لها ايضاحا فيما سيتبع من عرض

ان يتكامل موقف هو في ذاته غير متكامل ، اي لايبلغ قط درجة توقفه ما دامت العلاقة المأساوية قائمة بين ثوريته والواقع الثار عليه .

وفي الحقيقة ان (الانا الثوري) هو في حد ذاته صيغة مشتقة عن صيغة اعم منه ، وبالتالي افقر مضمونا ، وهي(الوجود – في – العالم). اذ ان الواقع الانساني لايمكن ان ندركه الا من خلال هذه الصيغة ، وهو انه قبل اي تفكير او تبرير فانه موجود – في – العالم . وكما بينت الدراسات الفينومنولوجية والوجودية فان مثل هذه العلاقة هي الاساس الوجودي للواقع الانساني ، وهي بقدر ماتهم مشكلة البروز في العالم فانها لايمكن البرهنة عليها ، لانها هي النقطة الاولى التي تنطلق فيها كل التعليلات الوصفية الاخرى للصيغ الوجودية . ولقد اوضح (هيدجر) بصورة خاصة كيف ان الوجود – في – العالم يمكن ان يبرز خلال شكلين ، اولهما شكل لا مشروع غير حقيقي ، وهو وجود الـ « هم » الضائع في اهتماماته بين ادواته الشيئية ، والهارب من مواجهة تعليل معنى وجوده في العالم هذا التعليل الذي سيحمله عبء امكانياته الخاصة ومسؤولية تحقيقها تلقاء الامكانية الكبرى ، امكانية اني موجود سيموت . وشكل مشروع حقيقي ، لم يحدثنا عنه هيدجر باكثر من اشارات وتعريفات عامة ، لانه في حد ذاته ليس موضوعا للدرس ، بقدر ما هو تجربة معاناة . ان هذا الشكل من الوجود لايقدم لي مضمونا معينا اذا ماتبنيته حصلت على هذه القيمة المشروعة في نظر ذاتي ، بل يضعني في قلب المأزق ذاته دون ان يبين لي الحل . فكأنه اذن يقوم على منهج او طريقة للجهاد الوجودي تلقاء كشف معناي بالنسبة لمطلق الامكانية ، من خلال تحقيقي لامكانياتي الجزئية المحدودة .

و (الانا الثوري) هي في حقيقتها ، اذا اردنا ربطها بالصيغة الاعم (الوجود – في – العالم) كانت صيغة خاصة من الشكل الثاني للوجود المشروع ، تقدمها كذلك تجربة خاصة ، يعاني اشكالها الكائن العربي الحديث الذي يمت الى عصر البعث . ولهذا فان هذه الصيغة وتجربتها البعثية التي تنبثق عنها ، بحاجة الى ايضاح يخصهما وحدهما ، وذلك بالاستناد الى تحليل المعطيات الحية التي تقدمها المعاناة اليومية المسؤولة لمفاصلها ، واوجه تحققاتها ، والمشاكل التي تثيرها اثناء هذا التحقق ..

غير انه اذا كانت (الانا الثوري) صيغة مشروعة من الوجود المشروع في التجربة البعثية المعاصرة ، الا ان لها كذلك تناقضاتها الخاصة التي تحتم في كل ان ، من نمو التجربة ، طرح مشكلة تقييمها من حيث اصالتها وهجنتها . وسنرى ان كثيرا من الاشكال التي تبرز خلالها صيغة (الانا الثوري) نمت الى هجنة فاجعية ، وانها كثيرا ماتتعرض هي ذاتها للرفض من قبل ذاتها . او انها قد تتحول الى مصدر قلق عقيم ، يؤذن بفشل التجربة كلها .

فكيف نواجه الان هذه الانبثاقة العفوية الاولية في عالم التجربة البعثية (انا ثوري) .

لا بد لنا ، قبل كل شيء ، من ان نصعد من ابسط المعطيات التي تبرز من خلالها امام وعينا ، فنتساءل من اي نوع من الثوريين يكون هذا الانا الثوري؟

وفي الحقيقة هذا السؤال ينقسم الى شقين : شق يتطلب منا ان نقارن الثوري الذي نقدمه هنا بالنماذج الثورية التي سبق ان عرضنا لها موجزا في الغرب ، وهذا ما نتجاوزه الان لنهاية الدراسة ، والشق الثاني يدفعنا الى حصر تحليلنا في الملامح الواقعية الحية التي ينجلي من خلالها هذا الثوري وهو في صميم الفعل والمعاناة . وهذا ما سنتناوله الان مباشرة .

من أكون من الثوريين ؟

ان الصيغة الاولى (انا الثوري) تقدم لي الجواب ، وهي انني : أنا الثوري ثوري فردي ، وفي الواقع ان الفردية هي بدء الانقسام في كتلة السديم ،التي يتشخص من خلالها الوجود العربي قبل ان تحسه تجربة البعث بحركيتها وتمزقها .

ان بروز الفرد من سديم الكتلة هو غاية الفردية . وبين ان يتشخص الانسان كموجود فردي او كموجود سديمي تتضح مشكلة الثورية وهي في صراعها من اجل ان تثبت سلبيتها وايجابيتها معا . فها نحن امام طرفين متناقضين من الوجود : الفردية والسديمية . ولا يكاد يفهم طرف بدون الاخر . فالتجربة اليومية تقدم لي حدسا اوليا فقيرا ، وهو ان كل شيء متداخل في كل شيء ، وانا ذاتي جزء من هذا التداخل الاعمى . فكأن هناك كتلة غفلا ، مؤلفة من مادة هلامية ، تبتلع كل تشخص محدد قد يتضح من خلال حركتها العجينية حول ذاتها ، فلا تبقي شيئا خارج هلاميتها ، وبالتالي لا تسمح لهلاميتها ان تتضح من خلال اية سمة الا هذه السمة ، وهي ان كل شيء موجود وفي ذات الوقت غير موجود ، لا بالمعنى الديالكتيكي ، بل بمعنى هذه الحال من الميوعة غير المائعة تماما ، ومن الهلامية غير الهلامية تماما . فهي تكاد ان توجد ولكنها تقصر عن ان تبرز من خلال اي تعين .

ان السديمية لا تشبه حالة الفوضى البدئية المعروفة في الفلسفة باسم Chaos فهذه الاخيرة حالة مجردة يفترضها الذهن المتأمل كيما يحدد مرحلة سابقة على التكون ، ليست هي بالوجود ولا بالعدم ، وانما قد تتضمن امكانية الاثنين معا . انها مرحلة ترمز الى اللامعقولية المطلقة التي تسبق عمل الفكر ، وهي أشبه بالمادة الخام القابلة للتشكل حسب اتجاه الذهن في التجريد والادراك . واما السديمية ، التي نتحدث عنها ، فهي في الواقع ليست مرحلة سابقة على التكون ، كالاولى ، وانما هي تعبر عن مرحلة لاصقة بالتكون . وهي بالنسبة للتكون الذي سبقها تشكل هبوطا وانحلالا ، فهي لا تعين المعين ، ان صح القول ،اي هذه العملية المتقهقرة التي ترجع كل متشكل ومحدود، الى حال اللاتشكل واللاتحديد . فتسلب الاطر ، وتهدم الاشكال ، فتميع المضامين وتسيل على بعضها ، وتنطمس معالمها ، وتتداخل هكذا حدودهما ، حتى تتحول كلها اخيرا الى كتلة لا اسم لها ، لا قيمة لها ، لا تحديد عقلي يشملها ، مجافية لكل صفة ، انها هي ، وكما هي ، شيء غير معقول في ذاته ، يدهم الوعي الانساني . وهو لا يحافظ على مجرد وجود حيادي من الوعي ، بل انه ينزع كذلك نحو طمسه ، وجذبه الى بحرانه ، ان السديمية من طبيعتها انها لا تملك نزوعا نحو التكون كماهي سديمية الكؤوس . بل ان نزوعها كله عبارة عن حركة طغيان وجذب نحو الداخل ، وهضم في الداخل لاية صيغة تكوينية . حركة نزوع نحو اللاتكون ضد النزوع نحو التكون .

ويمكن ان نقارن كذلك وجود السديمية ، بوجود الـ (هم) عند (هيدجر). فالهم تعبير عن الغياب ، بمقابل الحضور الذي يمارسه الموجود المشروع وهو يواجه الشرط الانساني القائم على العدم . ويصفه (هيدجر) بانه وجود لا شخصي ، يشمل كل الناس الاخرين ما عدا الموجود المشروع الحر (Dasein) . هو قائم في حياته اليومية على ممارسة المقاييس الوسط في كل شيء ، فلا يقبل لا الشاذ ولا الغريب . وفي سبيل

(1) La PH. de M. Heidegger P. 64 - 79

تعميم هذه المقاييس يفترض شخصية وسطا كذلك ، ويطالب الكل بان يتقمصها . والفرد عوضا من ان يواجه امكانياته الخاصة ، ويعاني أزمة وجود ، فانه يفر من القلق الى الامان بان يتقبل كل الافكار الوسط ، كل العواطف والمفاهيم المتداولة من الهم ، وبهذا يرتاح من جهة ، كما انه يتخلص من عبء مسؤولية كبرى وهو ان يكون ذاته الخاصة وليس ذات الكل .

فما هي علاقة هذا (الهم) بوجود السديمية الذي نحن بصدده الان ؟ من الواضح ان هيدجر في هذا المصطلح يريد ان يحدد لنا وجود السواد الاعظم من الناس ، الذين يتخلون عن شخصيتهم الفردية ، ويستعيرون شخصية الجماعة ، ويتبنون تراثها في كل فروعه ومستوياته ، وهم هؤلاء الذين لا تجربة وجودية خاصة بهم ، وبالتالي لا عمق ميتافيزيقي لهم .وهو في هذا التحليل الرائع انما يستند كذلك الى ما كان اشار اليه كيركيجارد في مصطلحه الخاص (Plebs) كما بين ذلك جان فال في كتابه عنه . وما قصد كذلك كيركيجارد بهذا الا ان يصنف الافراد الوسط الذين لا يملكون اي اشكال شامل ، اللهم الا ما يقلقهم بالنسبة لحاجاتهم الاولية حتى قال كيركيجارد في مذكراته : « يوجد اناس في الحياة كانهم احرف نداء في الخطب لا تأثير لها على العبارة .(1)» ان امثال هؤلاء يؤلفون في الواقع عقبة الحرية .

غير ان هذه السديمية التي نعنيها هنا ، وان كانت تبدو انها شكل خاص من (الهم) لا يعرفه هيدجر ، لان الحضارة الغربية التي يعيش فيها لم تقدم له مثل هذه التجربة ، الا انها مع ذلك تختلف عنه . وهو اختلاف يبدو لنا جيدا عندما نتامل خصوصية التجربة العربية مجردة . صحيح ان كلا من السديمية و (الهم) يمارس نوعا من الطغيان المستبد تلقاء الفرد الذي يحاول ان ينفصل عنه ، الا ان الوجودي الهيدجري تنتهي محاولته عند حد الالتقاء بحريته التي يحققها في عزلته السلبية . واما الثوري العربي فهو لا يكتفي بالانفلات من قبضة السديمية بل ينقلب ضدها ، مناضلا اياها ليس في اعماقه الفردية فحسب ، بل في اعماق الذوات الاخرى المحيطة به ، لان الثورية العربية ، رغم انها فردية ، الا انها تحمل طابع التحريض لان يكون كل انسان فرديته الحقيقية ، اي ان يخضع لشرط العربي المشروع ، ولا شرط الا ان يكون العربي الثوري . فالسديمية العربية اذن هي شكل خاص من (الهم) ، لانها تلتقي معه في جذورها الوجودية . ولكنها مع ذلك تختلف عنه ، في كون السديمية معرضة هي نفسها للهدم ، في كل لحظة تنبثق تجاهها ثورية اصيلة ، فتنتقل الى صميمها وتبعثر تكتلها المتخثر . وفي كون هذه السديمية افظع بطشا في طغيانها ، واقرب الى ان تكون كتلة مادية فقدت جميع عناصرها الانسانية كما سنرى . واذا كان (الهم) صيغة مطلقة للوجود اللامشروع بالنسبة للانسان ، فانه بالنسبة للعرب يتحمل جميع سوالب الوجود القومي المقاوم للثورية . وهكذا رغم مادية السديمية فانها تتزمن ، وينظر اليها من قبل الثوري على انها من صنع الماضي ، ليس الماضي الانساني ، بل هذا الماضي ذو الخصائص المحددة الذي كان لامة معينة خلال تأريخها القومي الذاتي. انها من صنع (الهم) الماضين. واما الهم الحاضرون ، فهم الذين يتابعون ما صنع لهم . انهم مخلوعون عن ذواتهم ، يحيون في الحاضر ، ولكن الحاضر

ـ التتمة على الصفحة ٢٨ ـ

(1) J. Wahl : Etures Kierkegardiennes P. 497

قصيدة وفنجان قهوة

مقهى ، ووجوه تختنق
وعيون ، يأكلها القلق
نظرات ، تقفز هاربة
أبدا ، وخطوط تنسحق
ولفافة تبغ ، تحترق

*

ضوضاء ، تغرق في ضوضاء
وتغط ، بغفوتها ، الاشياء
كسل ، يتمطى ، من خدر
وفراغ ، يختطف الاضواء
ونصال ، ترقص جائعة
والعالم ، مصلوب أشلاء
تتسكع آلهة ، حمقاء
ولفافة تبغ ، تحترق

*

وتفر طيوف ، تنطلق
والوهم ، زجاجي الق
والحلم بزاخر لجته
انهار فراش ، تصطفق
وتساقط اجنحة بيضاء

*

يا كهف الزئبق ، يا فنجان !
يبتلع الوحدة ، والاحزان
راس ، تتدحرج طافية
ومحنطة ، بسحاب دخان
وترجرج وهج ، محتبس
وتلوى خيط ، من الوان
ولفافة تبغ ، تحترق

*

مقهى ، ووجوه تختنق
وحروف تسقط ، باردة
وجفون ، يمضغها الورق
جيف الالحان ، بغير دماء
تهوي ، متكدسة صفراء
وصنوج اليأس ، مولولة
والفكرة ، اسوار صماء
والموت ، ظلام منطبق
والريح ، تموء بكل مكان
يا كهف الزئبق
يا فنجان(*)

حمص — عبد الباسط الصوفي

(*) من مجموعة « ابيات ريفية » المعدة للطبع



ما من مرة استطاع الانسان ان يمتلك فيها حريته ، الا واستطاع ان يرتفع الى افق العطاء والاشعاع على مستوى الحضارة الانسانيــة .

هذه حقيقة يؤكدها تاريخ الحرية لدى الانسان ، ويؤكد الى جانبها حقيقة اخرى لاتقل اهمية ، وهي ذلك الارتباط الحار والدموي ــ ان صح التعبير ــ القائم مابين الحريــة والنضال عبر تاريخ الحرية الطويل الزاخر .

وهاتان الحقيقتان اللتان تشكلان ركيزتي ذلك التاريـخ الاساسيتين، تؤلفان ايضا جوهر هذا التاريخ وكل مضمونه .

والعربي الذي استطاع ان يرتفع يومـا الى هذا المستوى واستطاع ان يرفع مشعله بقـوه ، منيرا للركب الانساني مراحل مظلمة وصعبة من دربه ، هذا العربي ، قد لايكـون وعى هاتين الحقيقتين عندما قذف بنفسه الى الساح ، ولكن من المؤكد انه بقدر ماكان يزداد انغماسا في نضاله ، كـان يحس باشتداده الابدي الى هذا النضال الذي هو قـدره ، وبالتالي كان يحس بقوته وبقدرته على امتلاك حريته .

ومن المؤكد ان ماقدمه العربي للانسانية ، انما كـان ثمرة لتلك اللحظات الباهرة التي امتلك فيها العربي حريته، فاستطاع ان يجاوز ذاته ، وان يستشرف تلك المجالات المميزه من الحس البطولي ، وان يمتلك في النهايـة كـل قدراته على الخلق والتوهج .

والعربي المعاصر الذي بدأ يعيش قضية بعثه الانساني وتجدده الحضاري ، قد ادرك منذ البدء ارتباط قضيـة بعثه وتجدده ارتباطا وثيقا بقضية تحرره . والشـيء الذي كانت تؤكده التجارب التي كان على العربي ان يخوضها هو انه كلما ازدادت قضية الحرية لديه تعمقا ، كلما اقتربت قضية البعث من جذورها الانسانية العميقة والصحيحة .

ولقد كان تحرير الارض العربية من الاجنبي ، الوجـه الاول لقضية تحرر العربي نفسه ، ومنذ الوقت الذي استطاع ان يحصل فيه العربي على الاستقلال في بعض اجزاء مـن ارضه ، بدأت القضية تتكشف عن اشد وجوهها صميمية وعمقـا .

فالعربي الذي عاش فترة الانحطاط ، تسحقه قـرون من العبودية ، كان من البدهي ان يؤمن بان قضية تحـرره باكملها انما تتركز في طرد الاجنبي ، وان الحصول علـى الاستقلال . انما هو غاية المعركة ومنتهاها ! ولكن ماحـدث هو ان حرارة معركة الاستقلال التي خاضها العربي كانـت كافية كي تصهر تلك القشور التي بقيت تغلف فترة طويلة مشاعر العربي النبيلة ، وحدسه الاصيل ، وتطلعاته الوجودية العميقة فكان من البديهي ان يتساءل بمرارة وعمق ، ذلـك العربي الذي استقل . هل هو حر حقا .؟!

وهل انتهت كل القضية عند هذا الحد ؟!

وكان لهذا التساؤل الحار ، فضل طرح قضية تحـرر العربي بكل ابعادها الانسانية الاصيلة ، على مستوى الوجود العربي .

وبدأ العربي يدرك مع تفتح وعيه الجديد ان حريتـه ليست شيئا ناجزا يمتلك مرة والى الابد ، ولكنها تجاوز مستمر للواقع .. انها قدرة دائمة على خلق المـوقف وامتلاكه .ومن ثم تجاوزه في حدث بطولي باهر .. انـه ابدا امام صراع دائم ، صراع أنساني بقدر ماهو مضن ، انه كي يتحرر عليه ان يمتلك حريته في كل لحظة ، في كل موقف ، في كل حدث !

ولهذا كله ادرك ايضا ان العربي الاول لم ينقطع عـن الاشعاع الا منذ اللحظة التي انقطع فيها عن امتلاك حريته، وعندها فقط كبا ــ وسقطت الرايه ــ وانطفأ المشعل .

وكان ان اصبح النضال للمرة الثانية قدر العربي !

وكان من الطبيعي ان يحمل هذا الطرح لقضية الحريـة، وعلى هذه الدرجة من المساس بالوجود العربي الراهـن ، في مضمونه ، طرحا لبنية الواقع الذي يتحرك فيه العربي المعاصر ، ولكل مكتنفات الوجود العربي ومواصفاته .

ولم تكن مشكلات الواقع العربي غريبة كل الغرابه عـن مشكلات الانسان في هذا العالم .

فالواقع العربي مجزأ والقيم الاجتماعية بالية والعدالة مفقـودة .

وعلى مثل هذه الركائز الثلاث ، لم يكن من الممكن ان يقوم وجود عربي متكامل ايجابي ونام ، وحرية العربـي بالتالي لايمكن الا ان تظل شوهاء مبتورة !

ولكن الحرية كنمو يهدف الى التكامل ، وكتجاوز مستمر للواقع ، كان من الواضح ان تؤدي الى الرفض الكلي للواقع العربي المتفسخ ، وان تؤدي بالتالي الى رواق اخر احفـل بالاضواء .. الى الثورة .

ولقد كان من الممكن ان يقف « جيل الرفض » الجيل الذي نفض يديه من الواقع الفاسد ، عند هذه الخطـوة التي هي خطوة الى امام في مجال القضية العامة ، والتـي هي في الوقت نفسه ، ممارسة ناقصة وسلبية للحريه ، بالنسبة الى الجيل ذاته !

ولكن خصوبة الاحداث وتدفقها ، او انه شيء اخر يدخل في صميم نفسية العربي وتميزه ، هو الذي جعل « جيـل الرفض » نفسه هو « جيل الثورة » الذي كان عليه ان يعيش احسم مراحل القضية واشدها حساسية ــ المرحلة التي ستحدد خط السير بالنسبة للعربي سنوات طويلـة في المستقبل ــ تلك هي مرحلة بلورة الاهداف ودفعها الى

فمة موجة المد الثوري العربي . ودفع القضية بذلك اشواطا بعيده الى الامام .

وبذلك برزت الى الوجود العربي اهدافه الاساسية التي كان عليها ان تهب النضال العربي مضمونه ومحتواه .. وهكذا : الى جانب الحرية كمطلب اكبر - تبلور الهدفان الاخران : الوحدة والاشتراكية .

وكانت الوحدة للمرة الاولى تعني شيئا اعمق من ازالة حدود سياسية زائفة مزروعه بافتعال في قلب الوطن العربي .. كانت تعني خلاص الكيان العربي نفسه من التمزق وبروزها الى العالم كيانا واحدا متكاملا اثر عملية انصهار وخلق فعليين .

والاشتراكية كانت تعني شيئا اكثر من تحقيق مستوى ادنى من المعيشة للانسان العربي ، اذ كانت تهدف الى خلق التربة الغنية الصالحة التي تتغلغل فيها جذور الكيان العربي المتكامل ، والتي يستطيع فيها هذا الكيان ان ينمو ويزهو ويثمر ، ويقدم للانسانيه اشياء جديدة غنية .

ولقد كانت الوحدة كتجاوز لواقع التجزئة من جهة ، والاشتراكية كتجاوز لواقع الظلم والفساد من جهة اخرى ، انما تهبان الحرية لدى العربي مجالا جديدا وخصبا للتحقق من خلاله ، وهذا يعني انهما تهبان النضال العربي نفسه محتواه الجديد لذي سيستقطب القوى الثورية الجديدة .

ولقد تهيأ لجيل الثورة ان يلتقي بقيادة سياسية من نفس المستوى ، وكان هذا الالتقاء دعما قويا ، وضمانة كبيرة لمرحلة الثورة ولقضية البعث باكملها ، اذ ان قيادة سياسية كهذه تملك الكثير مما تستطيع تقديمه ، واول هذا الكثير .. التجارب .

فالقيادة السياسية الواعية تستطيع ان ترصد الاحداث بمهارة لتدفع بالعربي وفي اللحظة المناسبة الى قلب المعركة .. الى قلب تجربة غنية تصهره وتدفعه للارتفاع الى مستوى القضية ، والى أن يحمل مسؤولياته برجولة وشجاعة .. والنتيجة ستكون حتما كسبا للعربي ، اذ ان التقاء العربي بالعربي ، ذلك الالتقاء الحار من خلال التجربة سيكرس ابدا وحدة الكيان العربي ، وسيكون كسبا في مجال الكشف عن الذات ، والنمو عبر القضية ، والتمرس بالنضال ، والامتلاك للحرية .

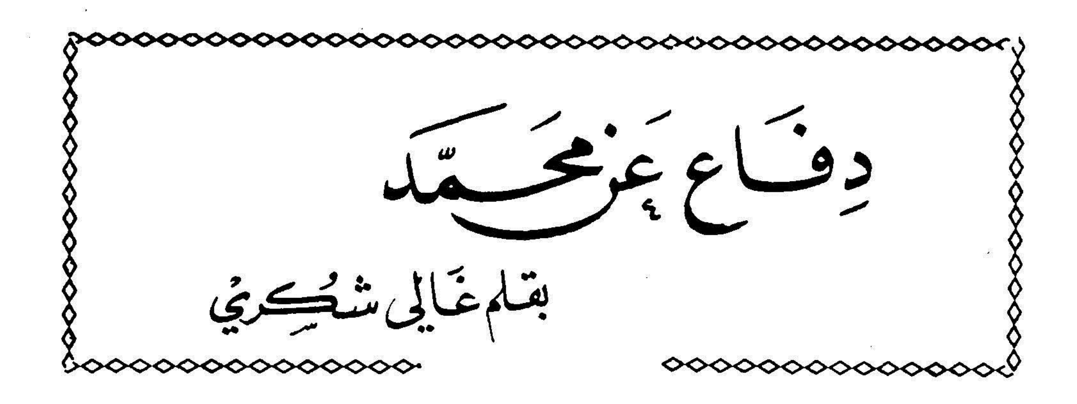
ولذلك فالعربي اليوم لايستطيع ان يبتهل الى الله كي « لايدخله في التجارب » فهذه التجارب هي كل امله ، من خلالها فقط ، من خلال الصراع الدامي المرير ، ومن خلال التضحيات والتجارب الاليمة ، سيكتشف العربي ذاته - جوهره - اصالته ، وستكون حرارة هذه التجارب كافية لصهر كل ماهو زائف ، ولهذا سيتمكن العربي من خلالها ايضا من اكتشاف كل ارتباطاته العميقة ، والانسانية وأن يمارس في كل هذه الاكتشافات حريته ممارسة غنية ستكون سبيله الوحيد الى البعث ، اي الى الاشعاع والعطاء على مستوى التقدم الانساني .

كلية الطب - جامعة دمشق — **عبد الله يونس**

النهر الحقد الأسود

... النهر الاسود منبجس
من قلب مدينتنا الكبرى ،
نهر أسودْ ،
ثعبان شرس ، يتأودْ
مغتسل بالزيت ممرد ..
لا صوت له ،
لا موج يلوح على وجهه
وعلى مرأى الشمس تعرى .
جسدا يعبد
من قصب تصفر فيه الريح
شدو مبحوح
صلى في شطيه وبدد
في صفحته ظلا اربد
.. نهر أسود
يتلوى كدخان المعمل
عب الماء ، الزيت المهمل ..
من نغر مدينتنا الادرد
ومضى عنها مثل مشرد
القاع ملوثة تخجل
والصفحة كالوجه الاجرد
والشط مباءة ديدان
تتبذل فيها وتردد
اغنية الوحل الريان
بالموت ، وبالحقد الاسود ...

دمشق — **علي الجندي**



دفاع عن محمد

بقلم غالي شكري

قصة الانسان الكبيرة ، ليست خطوطا لحياة فرد من الناس ، ولا هي عدة صفحات من كتاب لتاريخ احد الشعوب ... وانما هي لحن عظيم رددته اجيال قبلنا ، وسترردده اجيال بعدنا ، ولن تكون لهذه السيمفونية خاتمة ، مهما بلغ الكائن الحي من الذروة مداها ، ومهما بالغت آلهة الحرب في وصف السعير الذري وبشاعة النهاية .

وقصة الانسان ، لم تكتبها احدى عبقريات البشر ، وانما اسهمت في صياغتها كائنات الحياة ، منذ دبت على الارض الحياة ، وستظل في ابداعها ما بقيت الحياة ، مهما اصرت المعاجم على ان الموت احدى كلمات هذه الحياة .

وقصة الانسان بسيطة ، بساطة الانسان نفسه ، خالية من كل تعقيد وتركيب . ليست في حاجة الى نظارة تقرأ بها سطورها ، بل في حاجة الى بصيرة واعية وعقل مدرك . وهي كبيرة كبيرة ، حتى لا تكاد تحددها اسوار علم الجغرافيا ، وهي صغيرة صغيرة ، حتى ان طفلا ولد اللحظة يتنفسها بصدره الواهن ، ويعيها بقلبه الضئيل .

ورغم ذلك ، فما اكثر ما تعرضت له هذه القصة من سوء الفهم والتقدير وما افدح ما اصابها من عنت وخذلان . لان غمامات من الشر ظللت سماءها لحظات ، او ان ماء آسنا ركد في محيطها هنيهات .. فذابت معالم القصة العظيمة في نيران قاسية او بهتت ملامحها في طوفان لا يرحم .

الا ان الانسان الكبير لا تعوقه ملمات الحياة ، ومن ثم فلا خوف على قصته من النهاية والضياع . اذ هي تمضي به من نصرة الى نصرة ، وتحقق له فوزا بعد فوز . لا تزيدها العواقب والصعاب ، الا اصرار فوق اصرار .

*

وفي كتاب جديد ، قرات سطرا مضيئا في هذه القصة الشامخة . سطر هو الى ((الكتاب)) اشبه ، ولكنه الى ((الكلمة)) ادق معنى ، وانقى تعبيرا . لم ار في هذا الكتاب مؤلفا ولا معلما ، وانما عثرت عى صفحة منيرة من قصة كبيرة اسمها الانسان .

وانت حين تقرأ معي ((محمد الرسالة والرسول)) ستحس ان كلماتي قاصرة عن المغالاة ، جامدة عن التفخيم والتجسيم ، حيث انه لا مبرر للشامخات في طلب الرفعة والشموخ .

واذا طويت عشرين صفحة من الكتاب ، فانك ستلتقي ببحث موجز عن رسالة الاسلام ورسولها ، مما قد تختلف بشانه مع المؤلف او توافقه وربما اذا خالفته لن تبلغ مداي ، فاني لا ارضى تفسيرا للظواهر الاجتماعية يعزل الظاهر عن قاعدتها المادية . وهذا منهج الدكتور نظمي لوقا في تفسير اليهودية والمسيحية والاسلام ، فقد حمل الفرد اكثر مما يحتمل ، وهو ينظر الى تلك الديانات الثلاث ، فلم يدخل في اعتباره سوى الحاجات الروحية للبشر ، والسمات العبقرية في حياة الرسل . وتناسى - تبعا لذلك - ان القيم الروحية والفكرية هي تعبير حاد عن الاوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية . وان الرسول الفرد ، ما كان ينجح في بلاغ رسالته ، لولا ان ظروفه المحيطة به قد دمغته بهذا الطابع الثوري .

واذن ، فالاختلاف بيني وبين مؤلف الكتاب هو اختلاف جذري في الاساس ، لانه اختلاف في منهج البحث .

وما بهرني حقا هو تلك الصفحات العشرون ، التي طويناها منذ قليل، فقد احتوت فصلا بعنوان ((صبي في المسجد)) هو وثيقة انسانية غالية .. ربما كانت يتيمة الابوين في ادبنا القديم والحديث .

وانت لن تبقى طويلا حتى تعرف ان ((الصبي)) هو المؤلف بعينه . ساقته ظروفه طفلا ، الى شيخ ضرير وقور ، غرس في قلبه حبا رفيعا لرسالة محمد ، وتقديرا لاداب المسلمين ، واحتراما للحضارة الانسانية حين اضاف اليها العرب رافدا جديدا .

وتمضي قصة الاسلام مع نظمي لوقا الى غايتها ، فيشب عن الطوق ابنا مخلصا للضاد ، وقلبا صادقا في الحب ، وفيا للتراث .

ولا يبهرك في القصة ان مسيحيا عانق محمدا . لان ما يستتر خلف هذا المعنى هو اعظم واجل شانا . والعمر الذي قضاه نظمي برفقة الشيخ ((سيد)) ، من الفة وفهم وحب .. هو صورة صغيرة لاعمار البشر جميعا . وما التعايش الانساني بين المسيحية والاسلام في هذين القلبين الا تعبير حضاري عن التعايش الانساني بين الفكريات المتصارعة في عالمنا كله .

والمثل الذي تقدمه ارض مصر الى شعوب الدنيا - في شخص نظمي والشيخ سيد - هو امتداد طبيعي لتلك الدعوة البعيدة العميقة ... دعوة التوحيد الالهي في انبعاثها من قلب ذلك الفيلسوف الثائر اخناتون. ولو تاملنا هذه الابوة المصرية الروحية القديمة ، وما تلاها من ديانات وفلسفات ، لعثرنا على حلقة تراءى لاوهامنا انها فقدت مع الزمن . والحق ان الزمن لم يصنع الا غشاوة قائمة على عيوننا ، توارت دونها الحقيقة الباهرة . وهي ان الفلسفة الانسانية لا تفرق بين البشر ، لان وظيفة هذه الفلسفة هي التقارب والتآلف والتراحم . اما الفرقة والمباراة والتنابذ ، فانها وليدة ظروف عابرة ، وملابسات زائلة .

ذلك لان الفلسفة الانسانية تنبع من صميم الحاجة الانسانية المادية والروحية الملحة . ولم تكن حاجة الانسان يوما هي البغضاء والتنافر،

لان طبيعته البشرية ، هيأت له مكاناً علياً بين سائر الدفعات والنوازع .

وواجبنا اذن ، ان ننتقي الزوان من حقول الحنطة ونحرقه كما دعا المسيح . ولا ينزع الاشواك من حديقة تاريخنا الا الدراسات الجادة الواعية ، والبحوث العلمية المستنيرة . فنجتث بها كافة الاراجيف والخزعبلات ، وكل طفيليات سامة من شأنها ان تهز الضمائر وتغمط الانسان حقه في التعرف على جوهره المضيء .

وقد عانت هذه المنطقة العربية ـ بالذات ـ هولا كثيرا . فالحروب الصليبية الاوروبية تغير عليها بحجة اسطورية واهية . ومفاوس المسيح وقبره وصليبه لم تكن في حاجة الى جيوش غازية تحميها .

ولو كان القائد الاوربي صليبيا حقيقة ، لقرأ في الانجيل ان بطرس ـ تلميذ المسيح ـ هجم في لحظة غضب على احد أعداء سيده ، وقطع بخنجره اذنه ، وعلق المسيح في حزن « يا بطرس ، أعد سلاحك الى مكانه ، لان كل الذين يأخذون بالسيف ، بالسيف يؤخذون »(1) ! وفيم اذن كانت الحروب الصليبية وهي تعادي جوهر المسيحية ؟ لا شك ان طبيعة النظام الاقطاعي الممزق في اوروبا ذلك الحين هو المسئول الاول عن هذه الفتوحات الاستعمارية . ولا ريب ان هذه النوايا الحقيقية قد كشفت عن انيابها الشرهة ، بعد ان انجلت المعارك عن صكوك العبودية ووثائق الهوان .

واذا اضفنا الى اللوحة بعض الرتوش الهامة ، كالغزو العربي لبلاد الاسبان .. استطعنا ان نجمع الاشعة في بؤرة واحدة ونقول ، ان هذه المنطقة قد عانت ويلات موقعها الاستراتيجي ووضعها التاريخي ، كأشق ما تكون المعاناة .

ذلك لان رواسب تلك القرون الوسطى بدأت تحفر لها في اجسادنا وارضنا ، فجوات عميقة من الكراهية والحقد . واصبح القلب البشري بئرا غائرة مليئة بالفحم الاسود .

وكلما انبت التاريخ حاكما حكيما يداوي جراح شعبنا ، اسرعت تراكمات السنين بدورها تنبت الاشواك في طريقه ، ويتراجع التاريخ ـ الى حين ـ فيلد شيطانا او شياطين ، تضيف الى الجرح الملتئم علقما يهرئه ويضرم النار في خلاياه .

وهكذا كان الاتراك والانجليز والمستبدون من المصريين والعرب ... يعرفون طريقهم الى وأد كل حركة انسانية تلعق الماضي ، وتمحو مرارة التاريخ ، وتذيب رواسب القرون .

الا ان هذا الشعب البطل ، كان لا يفتأ يقاوم ، ويبذل من نفسه ، ويسخو في العطاء .. حتى يقلب الاعراض الطارئة والظواهر الموقتة ، ولم يكن له من سلاح الا هذه الوحدة الجذرية الطبيعية ... وحدة التعدد الالهي في « مناة » و « العزى » و « اللات » (2).. ووحدة التوحد في اخناتون ، الاب الروحي للحركات والثلاث التوحيدية الكبرى.

أما وحدة الجنس ، فرغم ان شعبنا لم يعرف الدعاوي العنصرية على مدى تاريخه ، الا انه عرف الوحدة الجنسية بعد الغزو العربي ، ونتج عن ذلك ما يعرف بالتفاعل الحضاري بين الشعوب . اي ان مصر العربية الحديثة ، اصبحت كلا واحدا ، بلا انفصام او خلخلة او اهتزاز.

وكانت هذه الوحدة الديناميه هي نواة الوحدة النفسية . والمضمون الانساني دائما في حاجة الى شكل سيكلوجي يلائمه .

(1) انجيل متى ص ٢٦ ـ ع ٥٢

(2) اصنام عربية باسماء مصرية (عن احمد كمال في « مصر اصل الحضارة » لسلامه موسى ص ١٤٩)

فاذا كان الغزاة العرب قد رفعوا في مصر راية محمد ، والغزاة الاوروبيون قد رفعوا في القدس راية الصليب .. فان المصريين كانوا يعانون في الواقع ، نقطة التحول الرائعة في تاريخهم .

ونقاط التحول هي انصهار لمعدن الشعب في بوتقة ضيقة ، والذين يتمرسون على رؤية الذهب في روعة الانصهار ، غير الذين يشاهدون النار من بعيد .

والفصل الذي كتبه نظمي لوقا بعنوان « صبي في المسجد » هو تجسيد لا شعوري لتلك المرحلة الحاسمة في تاريخ شعبنا . وما قام به الفنان هو عملية استرجاع تاريخية لموقف شعب كامل .

فنحن مع والد الصبي عند الشيخ الضرير في دكان حلاق بمدينة السويس . ويحس الوالد القبطي المسيحي ان في سمات الشيخ المسلم شيئا غير عادي يجذبه الى التحدث معه . ورغم ان الشيخ لا يعطي دروسا في العربية ، الا انه لا يرفض طلب الرجل المسيحي ، بعد ان شكا له حصيلة المدارس المصرية في لغة بلادنا .

وهذه اللقطة الفردية الواقعية من حياة الكاتب ، تذكرنا بما كان عليه هذا الشعب من اضطراب لغوي شامل قبل الغزو العربي . فقد اختلفت اللغات المصرية ـ وقتئذ ـ من جانب ، ولم تتفق مع لغة الاحتلال من جانب اخر . وكان الاختلاف العقائدي ـ في المسيحية ـ والمعنى القهري للاحتلال ، هما القاعدة العريضة لهذا البناء الهرمي الممزق، وما اعتلاه من قمة حادة هي ما اسميناه بالاضطراب اللغوي الشامل .

وما ان تم انتصار العرب على الرومان ، وتنفس المصريون الصعداء ، حتى بدأ التقارب على نحو ما ، ثم مضى التفاعل الحضاري ـ كما قلت ـ يعمل على استقرار الامور .

غير ان اللسان القبطي ، ما زالت تداعبه غصة في نطق العربية . والمحاولة العبقرية التي قدمها نظمي لوقا هي الحيلولة بين هذه الغصة واللسان المصري .

وبلغ الصبي المسيحي مع شيخه شوطا محمودا . مما أثار حفيظة الفضوليين من المجاورين للمسجد والمصلين فيه . واذا الشيخ يعرف احد هؤلاء ، يدعوه بعد العصر في حديث .ويحضر الرجل ، ويستمع الى الشيخ يناقش الصبي ويوجهه ويستوضحه « حتى اذا بلغ الموضوع غايته .. وجه الشيخ الكلام الى صاحبه الزائر قائلا ـ ص ١٤ ـ :

ـ كيف بنوك يا فلان؟

ـ بخير يا مولانا ... يقبلون الايدي

ـ تعرفني يا فلان امقت تقبيل الايدي.. اعرفت فيم ارسلت اليك ؟

فاطرق الرجل وقال :

ـ عرفت يا مولانا

ـ انصرف راشدا

ونهض الرجل محييا . وتحرى ان يصافح الصبي الصغير في مودة سابقة اشبه شيء بالاعتذار .

وراه الفتى بعد ذلك اليوم ـ وكان ساعاتيا له دكان قريب من المسجد ـ يستقبله بالتحية التي يلقى بها الشيخ كلما مر به قادما او منصرفا ... ويكاد يلمس في صوته وايمانه هزة الخشوع »

اين الدلالة الانسانية في هذا الموقف العادي ؟

يخيل الي انها ابعد مدى من المعنى القريب لعيوننا . فالرايات الشاحبة التي حملت صلبان المسيح والسيوف العربية، لم تحجب عن بصيرة شعبنا ، ما تحتويه اضلعه من جوهر رائع .. ضائع !

كان هذا الجوهر مستورا خلف اردية كثيفة :

★ الاضطهاد المذل من خلال احداث فردية وقعت للمصريين فور الغزو العربي .

★ الحماس الديني المفرط للعقيدة الدينية ، والتقاليد الموروثة ، والعادات القديمة .(٣)

★ صور الماضي القريب : في الاندلس والقدس .

هذه الغمامات القاتمة ، سودت الرؤى امام العيون ، فاختفى الجوهر الانساني الى حين . حتى اذا تم التفاعل البشري بين الناس ، وانجابت الغشاوة عن الابصار ... وضع الشعب اصابعه على نسيج الرايات المصلوبة ، فاذا بها من فتائل المادة والاستغلال والتكالب ، ولا تمت الى اهداف المسيح بصلة ما .

وعندما تحولت مصر المسيحية في خط سيرها الطبيعي الى مصر الاسلامية ، ماتت النتائج الوليدة عن التعصب المفرط المذموم . لان الحماس العاطفي للمسيحية ، لم يكن لهذه الديانة بعينها ، وانما كان للعقيدة الدينية وحسب ... فبعد ان حلت عقيدة جديدة في القلوب المؤمنة بالعقيدة القديمة ... او بمعنى ادق .. حين تطورت العقيدة في شكل جديد ، لازمها الحماس والعاطفة والتضحية جميعا .. كما كانت هذه الاثواب ملازمة للعقيدة السابقة .

وقد تولد في وعي المصري هذا المعنى الجديد الرائع ، وهو ان العقيدة الروحية ، هي جماع آرائه الخاصة بالحياةوالكون .. وبما ان هذه الحياة في تغير وتطور دائمين ، فلا بأس ان تصبح العقيدة الفكرية – وهي التعبير المباشر للتطور الاجتماعي – في تغير وتبدل وتطور . ولا عجب اذن ان يسقط التعصب من مخزن اثوابنا التقليدية . ويحل التآلف والتفاهم والحب .

وترتفع هذه المعاني السامقة في موقف الشيخ « سيد » حين دعا صديقه المتذمر – لكونه يعلم طفلا مسيحيا بينما هو يرفض الامر لاطفال المسلمين – ويخرج الصديق ، نافضا عن عينيه سحابة القرون . ويثلج صدر الصبي ان يحييه كل يوم بمثل تحية الشيخ المعلم .

وهذا هو الشيخ المسلم، لا يعزل دروس الصبيعن دروس الحياة . فاذا اقبل غلام ذات يوم سائلا عن الشيخ ، وناداه الصبي :

– الولد حضر يا مولانا .. الولد خادمك

راح المعلم يؤنب تلميذه على هذه العبارة ، لان الدهر ليس ارثا لاحد، وهذا الولد « الخادم » له اب وام كأي انسان ، لولا ان الحياة قد حالت بينه وبين اسباب العز والجاه .

وقضى الصبي ليلته يفكر : ماذا تراه كان يفعل لو ولد فقيرا ؟ اكان يطيق احدا يناديه « اقبل يا ولد .. يا خادم » . ولم يسأل نفسه بهذه الكلمات ، وانما تصورها في مخيلته .

وحين افضى الى امه بكل شيء ، ثارت على الشيخ ومحمد والاسلام ، ونقلت ثورتها الى زوجها ، فأبقى الفتى دون الدرس ، وذهب محتجا لدى الشيخ.

وتتألق هنا لحظة جديدة مشرقة في هذه العلاقة الانسانية ، اذ يتساءل الشيخ « سيد » (ص ١٩) :

– هل ترضى منى اناخذ ولدك بغير الادب الاكمل ، والنهج الاقوم ، وان اعرف الحق واحيد به عنه ؟

(٣) تبدأ السنة القبطية بيوم الشهداء (هو اليوم الذي حدثت فيه المذبحة الشهيرة بين الرومان والمصريين) .

– بل لا اريد ...

– وان اردت انت فلن اريد ! لان ذلك هو الغش البين . فهل تراك اخذت على الدهر ميثاقا ، وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين واصحاب الملايين من قبلك ؟

– ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات ...

– ويداول الدنيا بين الناس ! ثم اما قرأت في كتابك ؟ الم تجد فيه ان المسيح عليه السلام – ورأيكم فيه ما تعلم ! – غسل اقدام حوارييه؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وانما التفاوت عندنا حين نفرط في لباب الدين لنتعلق بزخارف الدنيا » .

هذه هي الوقفة العظيمة . يجب ان نعيها ونتدبر معانيها . والد الصبي المسيحي ، يستشهد من الاسلام بان الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات . فيكمل له الشيخ القول الكريم، الا انه لا ينسى ان يبادله تحية بتحية فيذكر له ان المسيح بلغ درجة رفيعة من التواضع ، وانحنى على اقدام تلاميذه وغسلها امعانا في السمو والعظمة . ثم يجسد الشيخ مأساة البشر كلها ويقول « آداب الرسل ليس فيها تفاوت ، وانما التفاوت عندنا » اجل .. فمصدر هؤلاء الرواد لا يختلف في النبع . والناس – تسامحا مع ظروفهم – هم الذين يختلفون . ولكن متى نعي اننا لا نختلف الا لنتفق ، ولا نفترق الا لنلتقي ؟

لقد اراد لنا الاستعمار الاجنبي والاستبداد الداخلي ، ان يطوقا اعناقنا بسلسلة استحكمت حلقاتها من الشعار الاسود « فرق تسد » ، فما زالوا يتمرسون على استخدام هذه القصلة لشنق تاريخنا ، حتى التفت هذه السلسلة – بغير وعي – على اعناقهم .. وها هوذا النظام الاستغلالي يغيب ، وشمس الاستعمار تغرب ، وحرية الشعوب تعود الى اوطانها المسلوبة .

ولم تكن عملية الاستعمار غريبة على الذين درسوا طبيعة المجتمعات الاقطاعية والرأسمالية . فقد ايقن هؤلاء ان الانظمة الاستغلالية تحتوي في كيانها على جرثومة انهيارها . لان اقتسام مناطق النفوذ يؤدي بطبيعته الى تناحر الدول الرأسمالية فيما بينها ، في الوقت الذي تنشط خلاله القوى الوطنية وتزداد قوة . واذ تضعف قوى الاستعمار وتهن عزيمته ، يفاجأ بالصلابة الجديدة من الداخل ، ويستسلم في لفظ انفاسه الاخيرة.

ولكن العملية لاتتم بهذه البساطة . والعدو لايرفع الراية البيضاء مهما كانت الهزيمة نهايته المحتومة .

ولذا سارع الاستعمار – قبلنا ! – الى دراسة تاريخنا . وعثر على مفتاحه الذهبي في اختلافاتنا العقائدية والمذهبية . ومن ثم راح يغطي بسحب كثيفة على فروق المجتمع الطبقي ، ويشعل نار الفروق الدينية وغاب عن البسطاء منا ماتضمره الخطة الاستعمارية من تقسيم قوانا وبعثرة امكانياتنا، وتسميتنا مللا وطوائف. ومن هذه الثغرات كان الاستعمار ينفذ الى صفوفنا ، يؤلب هذا الفريق ضد الاخر ، ونسينا – وقتا ما – العدو المشترك الواحد . نسينا ان الذي رابط بخيوله في صحن الازهر هو الذي دك بقنابله « برج القيامة » (١) نسينا ان الرصاص الانجليزي لم يفرق بين الدم المسيحي او المسلم .. منذ عام ١٨٨٢ الى عام ١٩٥٦ .. في القاهرة ، والاسكندرية ، والسويس ، وبور سعيد .

نسينا هذا كله ، ولكن الدماء السخية كانت تروي تراب ارضنا ... وتاريخنا . ونمت شجرة حياتنا الحرة .. عملاقة شامخة ، ترعرعت فروعها متشابكة ، متعاونة ، متآزرة .. لا يفرق بينها استعمار ، ولا يباعد اغصانها

(١) كنيسة المسيحيين الشرقيين في القدس .

استبداد .

وكان الشيخ « سيد » غصنا رائعا في الشجرة العظيمة . وكان « نظمي » فرعا صميما ملاصقا لابوته الروحية . فما حاولت الاعاصير والانواء ان تفرق بينهما وما استطاعت ..

لان الشيخ سيد لم يصبح في وجهه التاريخي فردا عظيما وحسب ، وانما كان رمزا كبيرا تآلف – بعمق – مع الرمز الكبير .. الاخر اعني نظمي لوقا . فقد سمع الصبي واعظا مسيحيا مشهورا يصف جماعة « البروتستنت » بالذئاب الخاطفة . وتصور الغلام – بذهنه الطفل – ان لهؤلاء الناس انيابا كالذئاب ، وهيئتهم تقرب بهم من الوحوش لا البشر . والتمس الفتى عند شيخه الهداية .. فماذا قال له ؟

اسمعوا ماقاله ، ورددوا كلماته معي :

– ان مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء !..

فالمسيح الناصري يقول : احبوا اعداءكم ، وباركوا لاعنيكم !

.. اقرأ انجيلك يابني ، وافتح له بصيرتك .. واصدد عن مفسري السوء ما استطعت » (ص ٢١).

وليس شك ان هذه الذروة من الوعي ، هي قمة البناء الدرامي في حياة الشيخ الكبير وتلميذه الصغير . لقد سبق الرجل المسلم ، الواعظ المسيحي ، اميالا في طريقه الى ملكوت السماء ، فقد عاش كلمات المسيح العالية ، بينما ذاك يصف بعض البشر بانهم « ذئاب خاطفة » ! وهذا السبق الانساني ، هو التفاف رائع – في معناه العميق – بين الشيخ والصبي .. بين المسيحي والمسلم .. بين عناصر الشعب المكونة لمعدنه الاصيل ، في مجابهة العدو الاستعماري العميل .

وهكذا – مرة اخرى – لايعزل الشيخ عن تلميذه دروس الحياة . لايفصل بين اللزوميات والمعلقات وديوان الحماسة ، وبين الصراعات الدائرة في المجتمع .

ولا يغلب على منهجه الفطري الصافي ، مبدأ التجريد الصوفي . ولكنه يطبق كل حرف على حياته الفردية الخاصة .

ويكشف نظمي هذه الزاوية ، فيذكر لنا ماقاسته اسرته من الحاجة حينا من الدهر . وترتب على ذلك ان يمتنع عن تلقي درسه المعتاد . فما كان من الشيخ العظيم الا ان جاء الى والده في البيت .. وكان الفتى قبلا يتلقى درسه في المسجد .. قال للاب :

– ما اظنك تأبى ان اكون ضيفك كل يوم ساعة او نحوها .. وعرف الفتى ان الشيخ عازم ان يستمر الدرس بغير مقابل . وان تلطفه شاء له ان يكون هو الساعي الى تلميذه ، صونا لعزته ، وزيادة في مروءته (ص ٢٣ ، ٢٤)

وينهيا الدكتور نظمي لوقا لخاتمة « صبي في المسجد » قائلا « .. وفي العاشرة رحل الفتى عن السويس . ولم ير الشيخ بعدها . لكن الشيخ ظل قائما في عقله ونفسه ولسانه .. فقد صاغ الشيخ في الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل وتقديس العدل وشجاعة الراي » .

وهذا حق .. فقد تعلم نظمي درسا انسانيا كبيرا من الشيخ سيد ، هو الا يفصل بين مثالياته العامة ، وحياته الخاصة . فنراه يتزوج احدى بنات « الذئاب الخاطفة » الذين أمر الواعظ المسيحي كل قبطي «ارثوذكسي»(٥) الا يحيي احدهم في الشارع . ونراه ينكب على دراسة الاسلام وآداب العرب . ولكنا لانراه يشهر اسلامه .. لماذا ؟

لان القيمة الانسانية والتاريخية التي نستقيها من نظمي هي اكبر من ان تقول : هذا مسيحي ، وذاك مسلم . فالواقع اننا جميعا – سواء اردات شهادات الميلاد او لم ترد – نتنفس نظمنا الاجتماعية ، وحضارتنا الانسانية ، في تطورها وانحلالها ، وفي تقدمها وانتكاسها ، وفي انتصاراتها وهزائمها .

وجميعنا اذن نمارس هذا التطور ونعانيه ، حاكت جلودنا دودة القز في انسلاخ جلدها كلما كبرت او لم تفعل .

ونظمي لوقا ، الذي امتد كيانا مزدهرا للرمز الكبير المعنون باسم « الشيخ سيد » هو نفسه الذي امتد حلقة متطورة « للعقاد » ، وهو نفسه يحمل الامانة لاجيالنا القادمة .

لقد مر هذا النموذج البشري في خط سيرنا الكفاحي الطويل ، وانصهرت تجربته الانسانية في بوتقة تاريخنا ، واظهرت لنا معدن جوهرنا النفيس.

والقيمة الانسانية لا تونا اذا وعينا الغاية المباشرة من وراء التعاريش الانساني بين الفكريات المتصارعة . فلا شيء ياخذ مكانه في التاريخ عبثا . وما علينا الا ان نؤمن بان المجتمع – بكافة موضعاته المادية والاجتماعية – هو القاعدة الفسيحة لكافة المثل والقيم والفكر . واذا كان المجتمع البشري في تطور دائب ، فلنفسح صدورنا اذن لكل تغير يطرأ على عقولنا وقلوبنا .

القاهرة **غالي شكري**

٥ – كلمة يونانية معناها « مستقيم الرأي » والكنيسة الارثوذكسية تسمى التقليدية .

عام بلا مطر

« .. من رسالة الى صديقة هناك ! ـ تموز سنة ٥٨ »

***

موسمنا ... ـ ماذا ؟؟! ـ

ورانت على عينيك آلاف الرؤى الضارعه
كيف الكنوز الشقر .. تلك التي تموج في أسمارنا الرائعه ؟
قمحية العينين ! ماذا ارى وراء هذي النظرة الدامعه ؟
اينطوي كل شعاع على كارثة سوداء ... أو فاجعه ؟
دجلة، هل أودى؟ام استحوذت افعى .. على خيراته اليانعه ؟!

ـ : موسمنا .. لا تكتئب طيب
لا ! لا تسل ، مات .. ومتنا معه !!

امحلت الارض فلم تعطنا غير الوعود المرة الخادعه
جراحها ... تسأل عن ساعد أسمر ، عن سنبلة فارعه
بيدرنا يخنقني .. كلما مرت به عصفورة جائعه
وكرمنا جف ... فلم أحتمل رؤيته .. كالحية الهاجعه
وبيتنا .. فئرانه هاجرت لم تبق فيه مثلنا ، قانعه !

***

موسمنا ...

واساقطت نجمة على بقايا وردة ذاويه
وانطفأت أخرى ، فتحت الدجى للضوء ألف غصة داميه
كفي بنا .. يا اخت ! ولندخر للغد .. زوادتنا الباقيه
رفقا بعينيك .. ولا ترخصي بهذه اللآليء الغاليه
.. يا انت مهلا! ليس في وسعنا ان نبلغ القمة في ثانيه
الارض لم تبخل .. فما بالنا نجرحها بالتهم النابيه
هل تبخل الام بشيء على أطفالها .. أيتها القاسيه ؟!

***

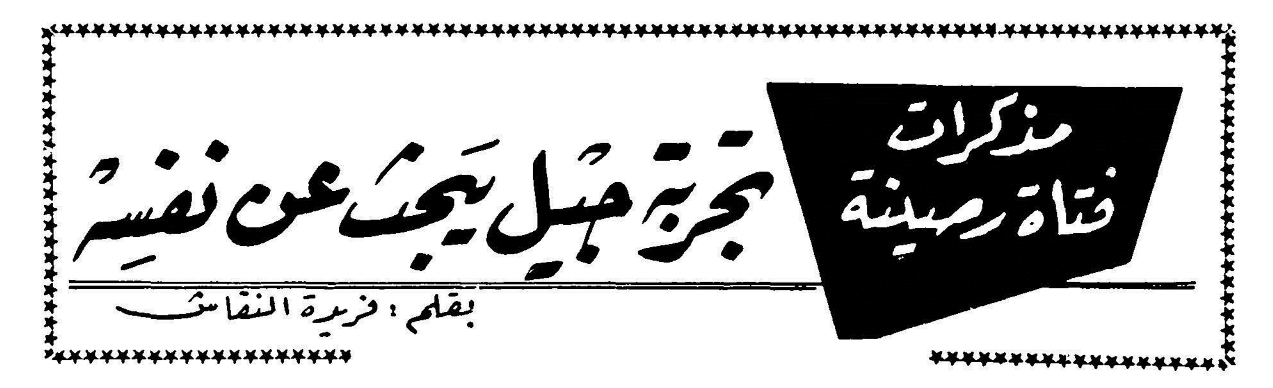
.. موسمنا ..

لو لم تخنه السما لاعتزت النعمى بآلامنا
ميعاده اقدس أعيادنا وذكره في خفق أعلامنا ..
أسطورة خضراء كان الهوى يغزلها من ريش احلامنا
ان ينكر الصيف يدينا فهل ينسى لظاه طعم اقدامنا ؟
فاحيي بلا حس ! فتاريخنا ما زال بين النار والمطرقه
.. لا تحرجيني !

فلحقدي قوى عطشى لقذف الحمم المحرقه
الهنا يلتذ في ان يرى اعناقنا في نيره ، موثقه
يظل مشدودا الى عرشه لا يسمع استغاثة الزنبقه
وطالما ارهف أعصابه الى زئير اللبوة الضاريه
.. غني معي .. وابتسمي .. واسخري
من هذه المهزلة الباليه

عزاؤنا .. ان السنونو الذي عاد بلا مؤونه كافيه
لن يعرف اليأس ولن ينثني عن عزمه في السنة الآتيه
سينبري جددا سعيه مغامرا في هجرة ثانيه
وعذرنا ان لم نجد لقمة في البيت، في أحشائه الخاويه
ان عروق الشوك لما تزل ترضع من أجسادنا العاريه !

جامعة دمشق
علي كنعان



تعرض سيمون ده بوفوار في هذا الكتاب (*) تجربتها كفتاة فرنسية بورجوازية تعيش فترة من اخصب الفترات التي مرت بتاريخ العالم وتاريخ الفكر الانساني على حد سواء ، هذه الفترة هي ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وقد انعكست آثارها بشكل واضح على المجتمع الفرنسي والاوربي عامة وغيرت كثيرا من ملامحه وقيمه .

والحق ان هذه التجربة ليست تجربة سيمون وحدها ، انما هي تجربة جيل باكمله عاش هذه الفترة بكل ما فيه وبحث عن خلاصه في الدين والادب والفن والحب والفلسفة .

وبدأت اولى تجارب « سيمون » مع الدين كنتاج طبيعي لارتباطها بمجتمعها وطبقتها ، وكان الله يبرر لها الوجود ويجسد الخير والحق وكانت تجد في السماء ما تفتقده في الارض ، فلم يكن غريبا ان تجد في الدين حلا لكل مشاكلها ، وفي سني مراهقتها الاولى كان الدين يمنحها راحة صوفية عميقة وشعورا بان الله لا يسقطها لانه بدونها ستفقد مخلوقاته مغزاها : البراري ، الجداول والورود والكائنات تصبح كلها بلا شاهد « وحين كنت في الصباح اجتاز الحواجز عدوا لاوغل في الغابات فانما كان هو الذي يناديني وكان ينظر الي بغبطة وانا انظر الى هذا العالم الذي خلقه لاراه » وفي اللحظة التي بدأ فيها احتجاجها على مواضعات طبقتها بدأ عالمها الروحي ينفصل انفصالا حاسما عن عالمها الفكري اذ لم تجد من المنطقي ان يكون ابوها مخطئا في فقده لايمانه ، وهو الجنس الاذكى والاكثر تفوقا ، في حين تكون امها ، وهي الجنس الادنى، مصيبة في ايمانها ، فخرجت من ذلك كله بان الحقيقة لا تتفق والخير ولم يعد للدين حججه المنطقية لانه لا يقنع الا المقتنعين . وانعكس احساسها بالانفصال على موقفها من التناول والاعتراف فقد كان الاب يجسد الاله ويعكسه بكل ما فيه من بعد عن الاشياء الصغيرة والقضايا اليومية التي تهم البشر فقط والتي ليس جديرا باله ان يفكر بها . فحين عنفها الاب لانها اصبحت شديدة العناد والشغب ، احمرت وجنتاها واحتقرته وكانما سقط الله من نفسها ، وكانت بعد طفلة على اعتاب المراهقة ، ولما قص عليها الاب بعد ذلك قصة فتاة في مثل سنها فقدت ايمانها بعد ان قرات « كتبا سيئة » ادت بها الى الانتحار كانت تشعر ببعد الله عن العالم وسلبيته « لماذا لم ينقذها الله وكيف تستطيع كلمات يقدمها البشر ان تهدم يقينا كبيرا » واخذ احساسها بافلاس الدين منطقيا يعذبها فكانت تفسر ماساة الفتاة الصغيرة التي اخفق الله في انقاذها على انها تكمن في اكتشافها قبل الاوان وجه الواقع الحقيقي، ووعدت نفسها ان ترى ذلك الوجه يوما ما ، وقد جاء بالفعل ذلك اليوم وفقدت الله كليا وقد اصبحت بعده وحيدة بلا شاهد ، فاصبحت السماء فارغة بعد ان كانت زاخرة بالرموز والوعود ، وفقد الخلود سحره ، وتغير وجه العالم تغيرا كليا مؤلما ، وشعرت ان وجودها اصبح ملطخا لان هذا البعد بينها وبين الله يفقدها الناس والاشياء الحميمة القريبة الى نفسها ، فلم يكن من السهل ان تتخلص نهائيا من رواسب الكاثوليكية في أعماق شخصيتها ويصعب عليها كثيرا ان تفقد هذا الذي ملأ حياتها ووعدها بالبهجة والخلود ، فكانت تمنحه فرصا اخرى ليكشف عن نفسه ويملأ قلبها باليقين « وذات ليلة تحديت الله اذا كان موجودا ان يعلن عن نفسه فظل صامتا لا يجيب فلم أعد اوجه اليه اي كلمة » واصبح الله من يومها غريبا عليها وعلى العالم الذي يضطرب فيه البشر . وكانت طبيعة الجيل الا يقبل الحلول الوسط ، فاما كل شيء واما لا شيء على الاطلاق ، فاما ان يملأها الله باكمله او ان يكف عن ان يوجد نهائيا . فكانت تتمنى ان يتجلى لها الرب وان تاخذها نشوة غامرة كلية او ان يحدث شيء ما خارق يسكت كل الشكوك سواء داخلها او خارجها عنها ، ولكن ويا الخسارة لم يحدث شيء فلينته الله ولتتسع الهوة ما بينهما ولتبحث عن ملجأ اخر .

والى جانب هذا النموذج كانت هناك انماط اخرى تعاني نفس الازمة الدينية ، فحين استقر ابوها نهائيا على رفض الدين كانت «زازا» تجتاز في المقابل ازمات حادة بالنسبة لمسيحيتها ولكنها في النهاية تستقر على الايمان الشديد بالله والخلود ، وتبعا لفكرتها المسيحية كانت ثورتها على مجتمعها وطبقتها لا تتجاوزحدود الاحتجاج النفسي ، فحين كانت تعترض على افكار امها لم تكن تستطيع ان تخرج عن طاعتها ولا تفكر بالثورة عليها ، وكان الصراع بين ايمانها ومسيحيتها وبين رغبتها العارمة في ان تعيش حياتها يسبب لها ازمات نفسية عنيفة « ففي اللحظة التي كنت اوجد فيها بكل كثافة كنت لا انقطع عن الاحساس بطعم العدم في فمي »

وكان خروجها على الدين بداية لتمردها على مجتمعها فتاقت الى ان تخرج من المجتمع البورجوازي وان تعلنها ثورة فاصلة شاملة على عفونة هذا المجتمع وتصلبه وخاصة بعد ان اكتشفت افلاس احد الاسس الرئيسية لهذا المجتمع وهو الدين ، وكان عليها في البدء ان تجد ما يملأ الفراغ الذي تركه الدين في نفسها ، وكانت في هذه الاثناء تعيش تجربة حب من جانبها فقط تغذيها بخيالها وتعمقها لانها تخشى ان تفقد كل شيء فعاشت على امل زائف ، ومن خلال تجربتها مع « جاك » تعرفت على الادب ، واخذت القراءة تستغرق ما استغرقته الصلاة في الماضي ، فملأ الادب الفراغ الكبير الذي تركه الدين في نفسها ووجدت فيه كل ما فقدته في الدين : الخلود الضائع والاستغراق الصوفي . ولكن كان هناك شيء جديد لم تعرفه من قبل في تجربتها مع المسيحية ، ذلك انها

(*) منشورات دار العلم للملايين ـ بيروت

بدات تلتصق بالارض واصبحت تتقدم في وضح النهار نحو الحقيقة الساطعة للعالم ، وحين اعترفت لامها بانها فقدت ايمانها وبدات تشق طريقها الجديد بثقة وتخلصت من العبء الذي طالما عذبها وفصلها عن الاخرين، كانت منتشية لانها ستعيش بوجه مكشوف وكانت تملك من الشجاعة ما يعينها على ان ترى العالم ايضا مكشوفا وان ترى الواقع دون تشويه او زينة .

ولما التقت بادب الجيل الجديد كانت تجد فيه نفسها ولم يكن هذا غريبا عليها « لانها من شاطيء نفسه » كانت تقرأ كلوديل وجيد وفاليري ومورياك ومن خلالهم تشربت فكرة العبث واللاجدوى لان ماساة هذا الجيل كانت تكمن في ان يرى كل شيء في وضوح الشمس ، ولكنهم لم يجدوا حلا لشيء فأعلنوا الافلاس وترددوا في العبث فقد كان معظمهم من ابناء الطبقة البورجوازية انهكتهم الحرب فانكمشوا داخل انفسهم ولكنهم كانوا تعبيرا امينا عن طبقتهم وعن جيلهم الذي كان يمجد القلق وكان جاك بطل شبابها وحبها تجسيدا مرهفا لهذا الجيل القلق الحائر، لم يكن يرهق نفسه في البحث عن حل ، وانما كان يتوغل بسيارته عبر باريس في الليل ويقضي لياليه في مشارب مونبارناس ، ومع ذلك كان يؤمن في اعماقه انه ليس من الهين ان يعيش الانسان دون ان يكون مؤمنا بشيء ما ، ولكن باي شيء ، يؤمن الانسان ؟ واية غاية تستحق ان يبذل من اجلها الجهدوالعرق ؟ « ليس ثمة غاية تستحق اي جهد » !

وفي مقابل هذا النموذج القلق الذي لا يجد غاية تستحق اي جهد كان هناك غاريك الذي وجد نفسه في العمل من اجل الاخرين ، فاسس نظام الفرق الاجتماعية للارتفاع بمستوى الطبقات الادنى ووجد في هذا العمل الغاية الكبرى التي تستحق كل الجهد ، وملأت هذه الفكرة الكثيرين من الشبان الذين كانوا يجدون فيها اما غاية لهم او ملجأ بعد ان مزقهم القلق واضناهم البحث عن الامان ، وكانت هذه الفرق بمثاليتها وفكرتها التقدمية عن الانسان تؤكد لدى سيمون فكرتها عن الطبقات وعن قيمة الانسان ، فالمادة لا تستطيع ان تميز انسانا على اخر لاننا جميعا سواء امام القيمة الانسانية ، وكل ما ياتي بعد ذلك فهو خارج عن نطاق الانسان كذات يحب ويتوق ويأمل ، ولذا كانت تجد في وجه غاريك ملامح البطل ، الانسان الاعلى لانه بدل ان يترك حياته للقدر اختارها وخلق منها مغزى وفكرة ، فاي عذوبة يستشعرها الانسان حين يبذل جهده في سبيل هدف كبير ، وحين يمنحه هذا الهدف قدرة خارقة على العطاء ، واصبح غاريك يضيء ايامها لان العمل من اجل الاخرين مبهج وحبيب الى القلب ولاسيما اذا كان ناتجا عن ايمان عميق بالانسان.

كان جاك وغاريك اذن هما طرفي القضية ، هما السلب والايجاب : جاك يمجد العبث ويعيشه ، وغاريك يخلق مغزى لكل شيء ويتسامى الى الانسان البطل ، اما سيمون فكانت تجسد الجيل باكمله الذي لم يعرف الاستقرار بعد وكلا الطرفين يشده الى جانبه .

وحين تكشفت لها كثير من الحقائق كانت المرحلة التالية في حياتها هي دراسة الفلسفة ، لان الفلسفة تمضي الى الجوهر مباشرة ولا تهتم بالقشور وتنفذ الى الكل دون ان تهتم بالتفصيليات ، وبعد قراءات عديدة عن نيتشه وسبينوزا وكانت وبرجسون ، توصلت الى ان الادب والعلم والفن اقرباء فقراء الى الفلسفة لانها اكثرها شمولا وقدرة على كشف حقائق العالم . ونظرا لانها لم تكن تريد ان تكون فكرا محضا ، فلم تفتح لها الفلسفة السماء ، ولم ترسها نهائيا على الارض فاخذت تهرب الى حانات باريس وتشرب الخمر حتى تفقد وعيها وتمارس الحرية الى منتهاها ، ولكنها في نفس الوقت كانت تجرجر خلفها رواسب كاثوليكية عديدة : فرغم انها قد افلتت من الدين تماما فالمحرمات الجنسية ما زلت تحيا في نفسها الى حد انه كان باستطاعتها ان تتذوق المورفين والخمر ولكنها لا تفكر ابدا بتجربة الجنس وذلك تبعا للفكرة المسيحية عن الجسد .

ورغم كل هذه التجارب التي باعدت بينها وبين الدين وبينها وبين متواضعات طبقتها ، الا انها ظلت تحمل جزءا كبيراً من ماضيها . كانت تود لوتحمله معها الى المستقبل لانه جزء من تاريخها عرفت فيه الحب والقلق والدموع ، وظلت تعمق تجربة حب تعرف انها فاشلة ، فلم يكن الحاضر من الغنى والوضوح بحيث يغنيها عن الماضي. اما المستقبل فقد كانت واثقة منه ، ولكنه بعد ما زال في عالم الغيب، وعلى هذا تمسكت بماضيها وبكته كثيرا .

وفي كل شخصية من شخصيات هذا الكتاب يتمثل لنا بوضوح نموذج من اكثر النماذجغنى وخصوبة ، تمثل لنا الحلول والنتائج التي وصل اليها هذا الجيل القلق في سبيل البحث عن نفسه وعن الحقيقة ، فوراءه ماض يثقله وحاضره ما زالت تثقله آثار الحرب الاولى والخراب الذي خلفته في وجدانه وفكره ، والمستقبل شديد الضبابية ، فعليه ان يعيش بملئه ويرى الواقع عاريا مهما كانت قسوته وبشاعته .

وبينما كانت سيمون تعيش مأساة هذا الجيل باخلاص كان للقضية طرف اخر بالنسبة لها كفتاة ، فقد كانت الفكرة السائدة ان المرأة كائن ادنى من الرجل ، ولم تكن مجرد فكرة انما كانت يقينا عند الرجال والنساء على حد سواء . وفي حين كان الشبان المهتمون بالادب والفكر

يقراون الكتب الحقيقية ويعيشون تحت سماء مفتوحة تضيئها شموس كثيرة كانت سيمون قد حشرت في غرفة ضيقة لانها فتاة ، كائن ادنى « وحين كان يتفق لي ان امر امام كلية ستانسيلاس كان قلبي ينقبض اذ اذكر السر الخفي الذي يحتفلون به خلف تلك الجدران « قاعة درس للصبيان » كنت اشعر انني منفية »

وكان الجميع يؤكدون لها وهي في سبيل الاستعداد لامتحان الاجريفاسيون ان على الفتاة .لا تفكر بالنجاح الا بعد ان ترسب خمس مرات على الاقل ، وكانت ثورتها النفسية على هذا الوضع مريرة عارمة ، ومن خلال هذه الثورة تاكدت لها قيم كان مجتمعها ينكرها ويسخر بها ، فبينما كان المجتمع يطلب من الفتاة الطهارة الكاملة كان يبيح للشاب كل المتع والفرص ، ويصبح شاذا ذلك الشاب الذي يظل على بكارته بعد الثامنة عشرة . ولكن سيمون لم تكن تغذي احساسها بالنفي وانما كانت تقاومه بان تبذل لنفسها الوعود ، فبعد سنتين او ثلاث سنين من الدراسة ستكون حرة ـ سوف تفعل ما يحلو لها وتعيش كما تريد لا كما يريد الاخرون وستتفتح نفسها وتفتني حتى تصل الى اعمق اعماق الاشياء ومن خلال الفن والفكر سوف تحتل مكانها من هذا العالم ، ولكي تحتل هذا المكان عليها ان ترفض الروتين ، وكانت مرحلة حادة في حياتها ، الصراع بين ان تكون هي نفسها او ان تكون شيئا عاديا « أهذه هي الحياة ؟ » الغداء كل يوم والعشاء كل يوم وغسل الصحون والمرض والشيخوخة والاطفال ، كل هذه الاشياء العادية التي تقتل في الانسان حس الحرية والتجديد وتميت فيه بفور الخلق والتوق الى آفاق اخرى، كانت تردد كثيرا كلمات جيد « المهم ان يجعل المرء من نفسه شخصا غير قابل للاستبدال » لانها اذا عاشت حياة الكثيرين العادية وكانت شخصا قابلا لان يستبدل ، فسوف تفقد نفسها ولن تفتني ابدا وتتلاشى احساسها الخاص بصميمية الاشياء وعمق ارتباطها بالفن والفكر .

وفي الفترة التي فقدت فيها سيمون الايمان بكل شيء ورفضت ان تعيش حياة الكثيرين العادية اخذت تهتم اهتماما كليا بحياتها الداخلية « فتعلمت الشكوك والتردد وتمتمة الامل الخفية وكنت المنظر والمنظور ولم اكن موجودة الا بي ومن اجلي » وكانت هذه العزلة تلهمها بصيرة ترى بها الاشياء اكثر وضوحا ، وبعد انكماشها المؤقت على ذاتها وصلت الى مرفئها واتضح المستقبل امامها وحددت مكانها بين الادباء والمفكرين الذين يمنحون للعالم من نفوسهم ويلتقون عبر الزمن ليشاركوا في الجهد الذي يبذله الانسان ليعرف الحقيقة ويضيء بها الارض ، وكان حلمها ان تقف راسخة الاقدام على ارض صلبة شديدة الثقة بالمستقبل وبالقدرة على بذل الجهد في سبيل بلوغه ، ويكون هذا المستقبل خاصا بها وحدها لانها ليست كالاخرين ولم تكن كل شخصيات الكتاب متشابهة ، كان لكل طريقة، ولكنهم كانوا يلتقون جميعا في قلقهم وبحثهم عن الحق ، كان الجيل باكمله يبحث عن مرفأ تستقر عليه نفسه العظيمة التواقة الى المنح والبذل المستمر لكي تضيء للاخرين طريقهم ، وكان هذا الجيل يحمل ملامح البطل حتى حين كان يمجد العبث ، لانه عاش صباه على خرائب الحرب الاولى ، وينظر الى المستقبل فيجد غيوم حرب مقبلة ، ولكنه في ضياعه وعبثه ولامبالاته كان يكره الزيف .

القاهرة **فريدة النقاش**

الى واحدة

ردي نظرتك الجوعانه
وخذي البسمة من شفتيك
علك تحتاجين اليها لو اقبل اخر
فانا رغم الطول الفاره
رغم شبابي
لااملك في الدنيا شيئا غير عذابي
واماني‌نا

*

لاتقتربي . لاتقتربي
يا اختي لا تلقي الشبكه
فشباكك سوف تعود اليك بلا سمكه
والبحر مليء بالاسماك

*

أمضي عني .أمضي عني
اخشى يا أختي من حزني
ان يطفر دمعا من عيني
أمضي عني

*

فشبابك مازال بخير
لم يذبل بعد
وشفاهك شهد
وخدودك ورد
وعيونك بحران عميقان لاحا من بعد
لكن ردي . ردي نظرتك الجوعانه ..!

القاهرة **محمد صالح حسن**

وتحت السماء عرب ..

« لم تعش ثورة ١٤ تموز على وجهها الحقيقي الا بضعة اسابيع ، ثم قتلها الشيوعيون اذ حرفوهـــا وزيفوا حقيقتها ... »

الدكتور سهيل ادريس

« الى القوميين الاحرار من ادباء العراق »

اخي ، هل يموت الادب
ببغداد ، هل يتمزق ماضي العرب ؟
اخي ، هل يموت الادب
ليحيى الجمود ويحيى الشغب ؟

*

وايــن العنادل ، اين الطيــور
تغرد فوق دوالي العنب
بلحن على المشرقين انسكب
وتلقط في ساحة المنزل
فتات الزهور ؟
الم تر ذئب الشتاء اقترب
يشتتها عن كثب
يجرد فاها من الزقزقه

*

ويحصد (بالمنجل)
رقاب النســب
ويضرب (بالمطرقه)
مسامير فوق لحود خشب
تقطع من دوحة (الموصــل)

*

وكم شاعر يخنقه
تكاثف هذا الغمام
على روضه الاجمل
والهامه الاول
وكم ناثر يرهقــه
تمادي الظلام
ولكن اغرودة البلبل
ستبقى تعيش بشط (الفرات)
وفي الغد سوف تروق الحياة
وتفتح نافذة المقبل
على عيشة افضل ..

*

اخي هل يموت الادب ؟
وبغداد يسكت فيها غزل
بعطر (الخليج) وشمس (حلب)
بلبنان في سهله والجبل ؟

*

ايفقدنا ادباء العراق
ويفسخ اقوى وثاق
يشد الخطى والنهى والارب ؟
اخي ، هل يموت الادب
ويطغى الشقاق
ويستسلم الانطلاق ؟
فوالله لا ، لن يموت الادب
وتحت سماء العراق عرب

باريس **محمد البوعناني**

أزمة البطل المعاصر

ـ بقية المنشور على الصفحة ١٦ ـ

يسجل بالنسبة لهم مجرد زمان آلي . وزمانهم الحقيقي هو محض تكرار. نحن ندعون مجازا بالماضي. واما حقيقته فهو انه بدون ابعاد على الاطلاق ، وهذا هو زمان الزمان ، انه اشبه بالامتداد المكاني . لانه وقت واحد يتكرر ، كالنقطة التي تتكرر في المكان ، فتؤلف المساحة او الامتداد المتجانس .

ولهذا كانت مهمة العربي الثوري مضاعفة ، فهو عليه ان يتخلص من الـ « هم » باعتباره موجودا انسانيا ، وعليه ان يتخلص من السديمية العربية ، باعتباره انسانا قوميا . فكل ثورة اذن سيمارسها الانسان العربي انما تحتمل هذين الهدفين الموحدين في هدف واحد. وهذا ما سنظل نقصده كلما تحدثنا عن السديمية . اي انها تشمل نفسها ، وتشمل جذرها الوجودي الشامل الذي يشترك فيه كل انسان بصرف النظر عن اوضاعه القومية والحضارية ، وهو الـ « هم » .

من خلال ما تقدم قد اتضحت لنا بعض خصائص (السديمية) بمقارنتها بما يشبهها ، ونستطيع الان ان نتابع دراستنا . قلنا ان السديمية ليست مرحلة سابقة على التكوين ، بل هي نهاية تكوين انحل وتهدم كخصائص ومؤسسات انسانية محدودة الملامح . وهو التكوين القومي القديم الذي فقد صلته بخالقه ، واستقل عنه ، وتكتل كشيء مكدس من مستعملات الحضارة المنهارة . والثوري اول ما يعي فانه يعي مفارقته لها ... انه ليس منها ، وهي ليست منه . يحس بغربته عنها ، وهي غربة تقوم على عدم التعرف وعدم التعاطف معا . فالسديمية في اساسها شيء لا كالاشياء ، انها لا تشغل حيزا في المكان . ولا تؤلف جزءا من عالم الامتداد الخارجي . ولكنها تربض ... هنا في الداخل ، على الصدر . فهي ثقل قبل كل شيء .. ثقل ليس له وجه او تحديد ... وهذا الثقل هو ما عبر عنه ميشيل عفلق في مطلع انشاء الايديولوجية البعثية بكلمة اجتماعية هي (الواقع الفاسد الرابض على صدر الامة). ان النظرة الاجتماعية هي التي تسمي السديمية بواقع ، وهي التي تقيمه بالسلب ، فتصفه بالفساد ، وهي بالتالي تحدد علاقته بالبعثي ، كثقل رابض على صدره . والبعثي يعاني تلقاءه شعورين متناقضين انه يرفض الخضوع لثقله ، ككتلة جاثمة على صدره ، وبالتالي لا بد له من الاحساس الدائم الرهيب به كيما يرفضه باستمرار . ان مكان السديمية ، باعتبارها هذا الثقل اللامحدود ، هو على الصدر دائما ، على المتنفس الخافق . ولذلك كان الثوري في صميم السديمية هذه . ومن الصميم يتحملها ، ومن الصميم يرفضها . فهي مادة حريته ، مادة غير مطاوعة ، وهي عقبة ثوريته ، عقبة لا تزول الا لتنقلب الى عقبة اكثر عملقة وابشع تعاملا وحشيا مع اعدائها الثوار . ولا يمكن ان تزول ، والا لانتهت هذه الثورية ، الى ثورية جزئية ، موقتة . وانقلب البعث من موقف شامل انقلابي ، الى موقف اجتماعي عابر .

وفي الواقع كل عقبة محدودة انما تفترض وجود العقبة غير المحدودة. ومن هنا كان يصعد موقف الثوري العربي من التعين الظرفي الى الاطلاق الوجودي . اي من كونه ثائرا ضد هذا ـ اي الشيء المعين ـ الى ثائر ، لا من شيء ولا ضد شيء ، الى ثائر فحسب .ثائر لانه ثائر .

وفي كل لحظة يستطيع الثوري ان يضغط ميوعة هذه السديمية ويعطي لها وجها واضحا ، فانه لا يفعل اكثر من وضع نقطة ، نقطة موقتة عابرة جدا وهو في هذا انما يفر من مواجهة اللاتعين ، من خوف من اللا محدود ، من قلق من اجل هذا الذي لن ينتهي الى وضع اخير جامد .

وبالمقابل ، عندما يحدد وجها للسديمية ، فانما كذلك يحدد ثوريته ضمن نموذج يومي . وهو نموذج لا يلبث حتى يحطمه ، لانه ليس هو كله . ان الوصف اليومي قد يسمي هذه السديمية باسماء شتى كالتقاليد الرجعية، والتجزئة السياسية ، والاستعمار والاقطاع الخ.. وهي في الواقع تسميات مباشرة لها رصيد مهاجم دائم ، ملتصق ببنية الثورية من داخل ، ولكنها لا تعادل الثورية كبنية وجودية ، شاملة مستقلة .

فهي قد تؤلف مجالها اليومي المشخص ، وتدخلها في هالة من التبريرات المعقولة ، ولكنها لا تكافئها نزعة نحو الشمول ، واستغراقا للمصير الذي لا يحد ولا ينتهي . اذ اننا رأينا ان بنية الثورية تتكون في صميم السديمية ، لا تلتصق بها من خارج ، ولا تدهمها كقدر مجهول . وكل انتصار تكتبه هذه الثورية ، لا يكون عن طريق مقارعة عقبة جزئية من السديمية ، بل بمناضلة السديمية ككل ، من خلال ثقلها غير المحدود على الوجدان الخالق القلق . حتى ان هذا الانتصار ، في ديالكتيك الحرية ، بقدر ما هو انتصار قد يتحول الى عقبة كذلك تنضاف فوتها الى العقبة الشاملة التي تمثلها السديمية . فكل مكسب في ديالكتيك الحرية له مآل سلبي واخر ايجابي . انه ايجابي بالنسبة للنزوع النضالي الذي سبقه وكونه . وانه سلبي بالنسبة للنزوع الذي سيلحقه. وهو نزوع عليه ان يتخلص منه ، اي عليه ان يتجاوزه ، وتجاوز الانتصار مسؤولية شاقة اخرى لا تقل عن تجاوز عقبته التي حولتها الثورية الى انتصار .

والابطال وحدهم ، هم الذين يقدرون ، بتعاسة لا تحد وبفرح كذلك لا يحد ، مشقة تحمل مسؤولية الانتصار .. اذ انه بدعوهم هو ذاته الى انتصار اعظم ، وهذه الدعوة موجهة خاصة لتحقيق الانتصار المطلق الذي لن يتحقق ابدا. ان الشعور بالثورية المستمرة ، عن حق وعمق ، هو الذي يجعل الثوري يسخر من كل ثورة جزئية . انه مرهق بدعوة كبرى هي اعتقاده بافجع عبثية للوجود ، وهو ان كل شيء سيؤدي الى نقيضه . فالهدف عندما يتحقق يقلل من عظمة الانتصار فيه شعور مرهق بالخيبة اعمق فاعمق . لان كل انتصار انما يذكر البطل لا بالانتصارات الاعظم التي عليه ان يحققها كذلك ، ولكن يذكره بانه ليس ثمة انتصار نهائي ومطلق، و ن كل انتصار مرحلي انما يوسع ساحة النضال ، ويضخم من مسؤولية المعركة اعنف فاعنف .. وبالتالي فلا انتصار مطلق !!

اي لا راحة من عبء الحرية ، ولا من قلق النزوع ، ولا من تمزق التناقض وهو ان كل منتصرهو منكسر في ذات الوقت ، انه يبلغ هدفا جزئيا ولكنه لن يستطيع الاحاطة بالكل ، لان هذا الكل سيتسع كلما اوغل قلق الثوري في ديجوره .. انه الشيطان بذاته ، هذا الذي يذكر بوجود لاله وعدمه معا اكثر فاكثر كلما تشوف المجاهد لاستغراقه وضمه.

اذا كان هذا صحيحا بالنسبة لديالكتيك الوجود والحرية عند اي انسان ، فهو اعنف ما يكون عند الانسان العربي . اذ ان سديميته المقاومة قد حفلت بجميع السوالب التي تكفي للقضاء على اي بطل ثوري ، وتتحدى في الوقت نفسه ، لخلق اروع بطل !

ولكن هذا البطل ، مع ذلك ، يقاسي من ضلاله ، اكثر مما يهدأ ليقينه. ففي عالم الوجود ، المعدوم كل لحظة ، والمخلوق كل لحظة ، بارادة لا

يعرف سلامها من جحيمها ، ولا تفرق بين الهها وشيطانها ، ليس ثمة يقين . لا حد لكفر الوجدان وايمانه معا . ولا شيء يبعث على اليقين، في حدود غير مستقرة ابدا . ان الثوري مدفوع الا يوقن بما تخلق ثورته . واذا كان له ثمة يقين ما ، فهو ينصب على الثورة المستمرة كحركة .. فيؤمن بحركتها ، ويتجاوز ما تخلق هذه الحركة .. يؤمن بقدرتها على التحقيق ، ويرفض ما تحققه .

وهكذا فان موقف الثوري لا يرفض واقعا خارجا عنه . هذا الواقع محايث له ، متواجد معه . انه يرفضه ، ويرفض ذاته التي ترفض . اي ان سعيه لليقين ، ليس سعيا للاتحاد بموضوع لليقين مستقل عنه. بل هذا اليقين يتمنى لو استطاع ان يكون يقينا به هو ، يقينا بذاته . فهو حركته الثورية ، وهو موضوع هذه الحركة . فالثوري محتوم عليه الا يكون الثوري في عين ذاته، بل هو الثوري بالنسبة لما يستطيع ان يتجاوزه من تحققات ثوريته نحو الثورية في ذاتها .

ومحتوم عليه كذلك ان يناضل في ثوريته مستويات ، ونماذج لهذه المستويات متفاوتة الصدق والاصالة ، متباينة النوعية والقيمة .

انا ضدهم

ان من هذه المستويات مستوى اوليا يبدأ بمعاناته الشاب العربي قبل ان يكتمل وعيه بثوريته . فهو قبل ان يتعامل مع رموز (الواقع الفاسد) في الهيئة الاجتماعية ، يعيش نوعا من الانفصال ، داخل فئة شبه منعزلة متألفة من انداده وامثاله . وهذا الانفصال لا يعني ان الثوري كان متصلا بالسديمية ، ثم انفصل عنها ، بل انه لما يدخلها بعد . وهو حالة غير محددة ليست بالثورية ولا بالسديمية .

انه يشعر بتفرده ، لا ذلك التفرد الذي يأتي نتيجة تقييم الجماعة سلبيا على انهاجماعة لا تستحق ان تكون ندا له .

انه تفرد الوحشة ، وحشة من لا يعرف هذا الاطار المبهم المخيف الذي يحيط به . ويعبر عن هذه الوحشة بموقف متناقض : انه يرفض هذا (المجتمع) في سبيل (المجتمع الاخر) الذي سينشئه . ومن هنا نراه يقابل المجتمع هذا كفكرة مجردة ، وليس كواقع محسوس . وهو يفترض انه غير موجود ، وان وجوده ، ان كان له ثمة نوع منه ، فهو وجود هامشي ثانوي ، يقبع على طرف قصي من تجربته . فيدعو المجتمع بكلمة تحتمل كل معنى الغياب والحضور معا (الناس) . لان الشاب الثوري في الوقت الذي يعتقد انه قد تخلص من كابوسهم (الناس) انما هو يقابلهم بمنجى ذاتي اخر ، على اساس انه يرفض الناس . وموقف الرفض يفترض وجود ما نرفض . والفرق بين الشاب الذي يمارس الثورية ، وبين الشاب العابث ، هو ان الاول استطاع حقا ان يعي ، ولو جزئيا ، نقطته من السديمية . بينما ينجرف الثاني في لا محدوديتها كأية ذرة فيها . ان غيابهم ، كما قلنا يتضمن كذلك حضورهم . الا ان الثوري الشاب يعاني هذا الحضور بطريقة مأساوية ممزقة ، فهو يأبى ان يعترف بتأثير ما تصبه عليه الجماعة ، لان كل تأثير انما ينطوي على سلب لاستقلاله ، او تهديد للموقف الذي نجح حتى الان في ان يجعله موقفا قائما على الرفض والعزلة . وكل قابلية للتأثر من قبل الجماعة : انما تكشف فيه عن شبه اعتراف بقوتهم ضد قوته ، بمناعتهم ضد رفضه . ولكن هذا الرفض تسلبه كذلك صيغه اكثر نموا وجوديا في التجربة ، وهي صيغة تنطوي على حركة معاكسة من ذات الثوري نحو ـ هم ، وتتمثل له على الشكل الاتي : انا ضدهم .

فان الثوري في الوقت الذي يرفض فيه وجود الناس ، فانه يرفض كذلك وجوده . لا لان هذا الوجود هو شكل اخر من وجود الناس اذ ان كل وجود اخر يتحدد كموقف بالنسبة لوجود الناس ، فهو اذن تابع لصيغة السديمية ، وان كان ضدها .

انه يرفض وجوده الخاص لسببين متكاملين ، احدهما انه يريد ان يتخلص من وجوده المنعزل ، هذا الحالي بكل مضمونه السلبي الموحش. وثانيهما ان الثوري يتطلب حضور الجماعة ، لا بشكلها المشخص وصيغها المنوعة ، بل كعمق سديمي لتجربته النضالية يمنح حدة لكل بعد يستجد في نمو هذه التجربة ، من حيث قيمته الايجابية او السلبية . ان حضور الجماعة يمكن الثوري من اكتشاف مطرد فيها لمجالات نضاليته المتفجرة. فهو في حد ذاته ليس كله حاضرا تلقاء وعيه .. انه كائن غير موجود بصورة نهائية ، ومعنى هذا انه كائن اقرب الى الامكانية من الوجود المليء . فهو يمتلك امكانية الامتلاء ، امكانية الوجود النهائي الذي ينزع الى تحققه..



اي ان وجوده قائم على امكانية مجردة ، تحتوي هي بدورها على ممكنات جزئية لا نهائية . فوجوده الراهن اذن هو امكانية الامكانيات . وليس ثمة وسيلة للتعرف على هذه الامكانيات الا بمقدار ما يقوى احتكاك وجوده المجرد هذا بمنبهات الواقع الفاسد ، سواء في حركته نحوه او ضده ..

فاذا كنت انا (ضد ـ هم) فهذا يستدعي ان امارس هذه (الضدية) كفعالية متجهة مني نحوهم . والواقع انني منذ ان انعزلت عنهم ، ورفضتهم فقد استعديتهم علي . ففرضوا علي ان اكون كذلك ضدهم. فالضدية تقوم على مماثلة مبدئية بين الطرفين .. وهي علاقة جدلية غاية في ذاتها . اي ليس لها هدف في القضاء على طرف دون اخر ، لان نفي الواحد يستدعي نفي الاخر ، وبالتالي زوال الحركة كلها . الا ان هذه الحركة باقية ، ولن تنطفيء ، لانها صيغة مؤسسة لوجود الانسان في العالم . غير ان استمرارها لا يعني ثباتها . فهي كحركة تتبع شدة في التوتر تناسب تحولات المضامين المتفاعلة بواسطتها. فكلما نمت التجربة الثورية وحصلت مكاسب وقوى ، وفجرت امكانيات متجددة فيها ، كلما تغير مضمون الحركة وتطلب ذلك وعيا ثوريا جديدا لها ليكتشف معناها بالنسبة لكلية التجربة .

فحركة (الضدية) هذه هي الشكل الذي يتغير في الشدة ، ولكنه لن يتغير في الطبيعة ، واما المضمون المحصل ، فهو خاضع لتحولات كيفية مطردة باطراد عمق التجربة ذاتها . ولكن في لحظة حاسمة من تحولات المضمون لا بد من تحول كذلك لا في شدة الحركة ، بل في طبيعتها ايضا. فقد يتغير اتجاه هذه الحركة وان كانت محصورة بين طرفين متضادين فحسب . ان هذا التغير الاتجاهي قد يحمل زيادة في اثبات طرف ضد نفي في طرف اخر . وبدلا من ان نصطنع ، فنقول مع هيغل ، انها حركة معقولة لانها تتجاوز كل نفي بين الاطراف ، في سبيل تركيب ، وهكذا يصبح السلب ذاته موقتا ، وتصبح الحركة حركة في اتجاه الكون دائما .. بدلا من ان نتصور الحركة على هذا الشكل المعقول الدخيل على الوجود ، نقول ان التغير واقع في مضمون الحركة وفيها هي ذاتها كشكل لهذا المضمون ، وفي هذا المعنى لا يمكننا حتما ان نحدد في المستقبل اتجاه الحركة ، فليست هي بذات معقولية يجعلها اشبه بالنظام . بينما هذه الحركة بالذات هي التي تخلق الانظمة وتهدمها ، فلا نظام لها ، الا انها ليست بذات تصميم مسبق على فعاليتها الخاصة .

كما ان جدلية هذه الحركة لا تشبه جدلية ماركس ، وذلك لان الاطراف عند ماركس محدودة بشكل حتمي وسابقة على نمو الحركة ذاتها . فهي اطراف مادية ابدا ، لا دخل للوعي بها ، خارجية تخضع لهنيهتها من جدلية التاريخ المادية . بينما تمتاز هذه الحركة بانها تخلق التعين . ولا تلحق به . وهي حركة في سبيل التحقق الواقعي ، واقع الحرية ، وليس واقع النظام . فالضدية لا يمكن ان يخرج مسرحها عن ازمة التشكل الفردي الثوري بالنسبة للسديمية الغفل . وفي سبيل هذا التشكل يضطر الوعي الثوري الى افتراض تعين ما في السديمية ذاتها كيما يحولها الى شيء مختص يستطيع محاورته ومناضلته .

ومن التناقض الفاضح بالنسبة للجدلية المادية ، انها في الوقت الذي تبعد دور الوعي وتجعله يقبع في عتمة هامشية من الحركة ، كيما تعطي الطابع المادي لها ، فانها تفترض بشكل خفي انها حركة نظامية ، لانها تتبع تطورا معقولا اجتماعيا بالنسبة لتطور صيغ الصراع الطبقي ، فمن البدائية الى العبودية الى الاقطاعية فالراسمالية . فان ننفي تدخل الوعي في عملية الصراع الواقعي المادي ، وان نلبس هذه العملية ثوب النظام، اي ثوب المعقولية ، فهذا ما يجعل الماركسية ، في حد ذاتها ، فلسفة تبرير لما هو موجود ، وليس تعليلا للوجود ، اي انها فلسفة بدون فلسفة، تستخدم العقل وتتبرأ منه ، تصطنع الثورية وتؤمن بالحتمية ، تنزع الى الاطلاق بينما هي فلسفة تبرير لانظمة اجتماعية ظرفية لا تتكرر ، تعتمد الماضي لتفسر الحاضر والمستقبل في التاريخ الجدلي... والى اخر المآخذ الفاصلة التي تتعرض لها الماركسية عندما تطرح نفسها كفلسفة متكاملة امام الوعي الاصيل ، ولا تكتفي بمجرد كونها استثمارا طارئا لظروف المجتمعات والامم . فالانحلال الانساني مقابل التضخم الالي المادي الذي وصلت اليه مدنيات الغرب لا يبرر لنا ان نعتقد ان المادة هي السبب والنتيجة ، وانها كما كانت عاملا تهديميا في وحدة المجتمع الانسانية فانها يمكن ، وحدها فقط ، ان تنقذه من تناقضاته ، عندما تتحول الى عقيدة جماهيرية اي عندما يصعد الخطأ الحضاري ذاته الى درجة المبدأ المطلق المقيم لجميع القيم الحضارية الاخرى .

ثم ان الصراع ، وهو مفهوم انساني مأساوي يتولد من ديالكتيك الحرية والجبرية ، لا يمكن ان تكون له ساحة حقيقية خارج وجدان الفرد المتأزم، في الطبقة مثلا . فالطبقة هذه هي شكل اخر عن السديمية يجب مناضلته ، لانه تشكل لا شخصي غفل من التعين ، اللهم الا من الشروط الظرفية الخارجية التي دفعت الى تجمعه . وكلمة (الوعي الطبقي) في حقيقتها عبارة لا تعني شيئا ، وهي التي ما فتيء يرددها الماركسي. لان الطبقة ، وهي هذا الوجود الغفل اللاشخصي ، لا يمكن ان تتحول الى وعي بذاتها الا عندما تفقد تجمعها الطبقي هذا . فوعي الطبقة معناه اكتسابها شخصية ، وبالتالي بروزها ضمن موقف ثوري . وصيغة مجردة سديمية ، كصيغة الطبقة ، لا يمكن ان تكون لها شخصية وبالتالي موقف ثوري . ولهذا فان وعيها يؤدي الى تفتتها ، لانها سترجع الى افرادها . ومن وجدان الفرد المتأزم سيتولد ديالكتيك الحرية الثورية ، بمقابلته دائما بوجدان الكل الغفل المعتم . فاذا برزت امامنا طبقة ثورية ما ، فينبغي ان ندرك ان هذه الثورية قد وجهت اولا للصيغة السديمية التي نشأت عنها . اي ان الطبقة حطمت الطبقة كحاجز داخلي. وفي الواقع لا طبقة مع الثورية . انها لا توجد الا حيثما يزول الوعي الثوري ، اي عندما تميع شخصيات الافراد وتتداخل في كل عبودي مظلم آلي .

ان الثوريين لا تصنيف لهم الا انهم ثوريون ، وثوريون لا طبقيون . وكما سبق لنا القول ، فان الثورة انفصال اولا عن اللاتعين ، عن السديمية في الذات وفي العالم المحيط . وهذا الانفصال يتحول الى حركة ضدية ، توجه للذات وللعالم كذلك ، في سبيل التخلص من جذور السديمية في علاقتي الثورية .

وسنتابع هذا التحليل في حينه عندما نتعرض لموضوع الثورة القومية والثورة الطبقية ونكتفي الان بهذه الاثارة فيما يتعلق بموضوع الضدية .

ونعود الى القول ان الضدية ان كانت نجحت حتى الان بفصل الفرد عن السديمية ، اي بابرازه امام وعيه ككائن تختلف عن (هذا) ، الشيء غير المحدد المرهق ، فان الضدية لا تستطيع ان تقف عند حد هذا الاقتطاع الاعتباطي من جسم السديمية اللاجسمي.

فالثوري ، عند هذه النقطة الاولية ، قد ألقي به في هاوية لا قرار لها . وفي الواقع ان عملية الانفصال تنعكس في وجدان الفرد كسقوط مريع ، لا مبرر له ، الا انه حركة ما ، حركة لا تمت الى ميوعة السديمية بصلة ، انها انقطاع عنها ، انفصام . وكل هذه الحركة ما زالت توصف بنقطة انطلاقها الاولى ، اي ما زال لها ارتباطها الدائم بالسديمية .

وفي الحقيقة ان السديمية ليست صفة للاشياء في ذاتها . بل انها اولى مراحل الانفصال ، عندما يحكم الثوري على هذه الاشياء بالعدمية نسبة الى ارادته الانقلابية التي يحياها ولا يعيها تماما . فال «هم» وجود قائم في ذاته ، هو مزيج ، انساني وطبيعي معا ، يمتد من وضعي الخاص ليغرق في عمقية العالم كله . وهو قبل ان اقوم تجاهه بعملية ادراك ثورية ، تهز جذوره كلها ، فانما استقبلته استقبالا حسيا عاديا ، كنت اثناءه مجرد قابلية منفعلة ، كأي جزء انساني من السديمية . ولقد ثبت في ادراكي مجموعة كبيرة لا متناهية من الاسماء ، التي لها رصيدها الاجتماعي المعنوي والمادي الطبيعي المستقل عني. وهي اسماء لا تبقى هكذا جامدة منعزلة . بل انها تقع من بعضها ومني على مسافات تحددها خلقيا او دينيا او سلوكيا او اقتصاديا ماديا . وخلال هذه الابعاد تتفاعل اتجاهات وصفية مختلفة ، تقيم مختلف العلاقات الثابتة بين الاشياء والمفاهيم .

حتى ليبدو لي ، وانا ما زلت في قابليتي المنفعلة ، ان العالم مليء باشيائه وابعاده ومفاهيمه ، وانه كمية كبيرة لا تحد من هذه الاجزاء التي تنتظم كلها في تنسيق سابق على وجودي . وان كل شيء محدود فيه ، ولي ، وبيني وبينه ، حتى قبل ان يعرف هو شيئا عني ، عن شخصيتي ، عن اتجاهي . انني مصنف عنده حتى قبل ان اعرف من اكون انا بالنسبة لي. فلي اسم وكنية ، واب له تاريخه وام لها تاريخها واخوة ، وامة ودين ، وكل الظروف التي يبدو انه امر طبيعي بالنسبة لها ان يولد ضمنها انسان ، دون ان يخطر ببال احد فظاعة المفاجاة لهذا الانسان المولود ، لو كان يعي ، كيف يمكن ان يوجد كل هذا قبله وبالاستقلال عنه ، وعما يريد وعما يختار .

وتظل المحسوسات والكلمات تبني في اعماقه عالما خارجيا عنه من مختلف مراكز التوجيه والارسال ، من البيت ، وجدران البيت ، والصور المعلقة ، وروائح الاثاث ، وتنضد الاشياء تبعا لابعادها وتجاورها المكاني، وتدرجها اللوني ، وبروزها الحجمي . وبين هذه المحسوسات الثابتة تتحرك قامات ، وتفرقع اصوات في الفراغات ، وتنهل اشارات ، وتنفلطح وجوه ، والوان وجوه ، وتنصب نظرات ، واستطالات تمتد وتقبض عليه وتحركه ، كما تتحرك هي . وكما تتنضد هذه الاشياء في فراغاتها وتتثبت كخلفية في ادراكه ، لا تلبث كذلك اشياء اخرى حتى تتنضد فوقها ، وتشكل نظاما من العلاقات والمعاني المجردة ، والقيم ، لها صفة الشمول، تخرج من نوافذ البيت الى الشارع الى المدرسة الى العمل ، الى العالم .. الى الله ..

وما ان يصبح الشاب هكذا على عتبة الحياة حتى يكون قد اتخذ، دون ان يدري او يختار ، نموذجه المهيا له كنسخة بين نسخ اخرى لا نهاية لها ، فيقلب السديمية . وهذا ما نسميه عقل السديمية ، الرزين الواضع ، بالتربية .

وفي الحق ، ان التربية في مثل البيئة العربية المنحطة ، ما هي الا وسيلة لاستمرار القديم في الجديد ، وتجويف الجيل الصاعد من اوجه الثورية . انها تربية غير مقصودة لذاتها ، تمارسها الجماعة دون ان تعيها ، وكانها نوع من الدفاع الغريزي عن وجودها المنخور ، تلقاء ما قد يطرأ من عنصر المفاجاة من قبل الجيل الجديد الثوري .

وحتى في البيئات الغربية (الراقية) التي زادت العناية فيها بعلم النفس وتطبيقه التربوي ، فان تضخم هذه العناية ، وخاصة في امريكا لا يدل الا على امر واحد ، وهو التعويض . تعويض عن فقد معنى الفرد الانساني ، كوجود سر له قدسيته ، بعد ان ضاع الفرد في سديم الجماعة. ولهذا اتجه علم النفس والتربية الى تحليل السلوك وذلك بغية المحافظة على الشخصية التقليدية الوسط ،لتي توافق عليها السديمية ، ومحاربة كل ما يخالفها ، واعتباره انحرافا او مرضا او شذوذا ، يجب تقويمه واعادته الى الحالة السوية ، وهي الحال التي لا خطر منها على توازن السديمية الذاتي .

ومن هنا نجد ان اول ملامح الثورية تتأجج في ذات الشاب ، الذي مسته الثقافة بوعي ما ، كانخلاع عن النموذج التربوي الذي تلبسه دون ان يدري . ويتضح موقف الضدية في اعماقه قبل ان يتبين موضوعا لها . ولكن المعطيات السديمية التي تقدمها له حياته اليومية العائلية تحتم عليه اول اصطدام رمزي مع السديمية كلها . فهو ضد البيت . ليس في البيت الا .. هم .. هم الذين عاصروا طويلا ضجره الطفولي، وشكلوا كابوسا مخيفا لحواسه ، وموانع زجرية (لا تفعل هذا .. لا تقرب هذا .. لا تقل هذا .. لا تنظر هذا .. لا تسمع .. لا تشرب هذا ، لا تأكل هذا .. لا تنم هذا) موانع زجرية تنهال عليه من كل جهة ، من عالم كله سلطات وعبوس ، واصابع تهتز فوق حريته ، واشباح ثقيلة رزينة ، تتحرك كالنواس في الفراغ الاصم .

فالبيت بؤرة مصغرة عن السديمية . انه تجويف قائم في المدينة . له رائحة مضجرة . ظلاله لا تتغير . اشياؤه مبعثرة في زواياه بذوق سقيم ، وقانون صارم معلق في فضائه ، قانون من اجل الطهارة ، وضد النجاسة . الطهارة المادية الصرف ، في الجسم ، وفي الثوب .. واما في الوجود كمعنى ، فهو قبو لشتى الاحاسيس الغريزية المكبوتة، المتآمرة بالحقد ضد البساطة ، بالالية ضد العفوية ، بالتكرار ضد الجدة .

ويبرز الشاب هكذا في غاب من المحرمات . كلهم يحكمون باسم الاله ، من اخيه الاكبر وامه الى الاولياء والدراويش ، ومجاذيب الحي وعجائزه الى الجن والشياطين ، والمسابح والعمائم .. الى الشرطي ، والمخبر وجندي الاجنبي .

فهو اذن كائن خائف ، وكل من حوله خائف . والخوف بين الجماعة امان . شرط الا تخرج عن الجماعة فستخاف وحدك . وهناك سلسلة من انواع الشر ودرجات العقاب ستبلى بها .

ان صرخة (الحرام) تشل حركة جسدك ، تقطع الصلة العفوية بين فعالية حواسك وموضوعاتها . وتجمدك هكذا صنما . اذا سار اطرق في الارض . واذا تكلم خفت صوته .

حذار ان تفعل ، ان تقول ، ان .. ان ..!

انت انسان مراقب !

ان عيون كل القوى الخفية تحملق بك ، من اعماقك وحولك ، وفي زاوية من الظلام . وكلهم اقوى منك ، من ابيك الى الجن الى المعلم ،الى عسكر الاجانب ، الى الاله..

انساننا تحت المراقبة . وهو سواء استتر او سفر ، فانه لا ينجو من العيون السرية ، والعقاب المقدر المحتوم ، في الارض وفي السماء . وهذه الصيغة (موجود تحت المراقبة) هي التي سترافق انساننا ، وتبطن سوداويته من داخل وتؤسس لها جوهرا اسود الى الابد ، سترافقه في جميع تطورات سلوكه المعادي او الثوري.

ان السديمية تنصب شركا وعقابا لكل من سيخرج عن طاعتها العمياء لكل من سيتمرد ويحاول ان يكون مشروع وجوده الخاص . ان صيغة (موجود تحت المراقبة) هي علة كل ازدواجية في شخصية انساننا .

فكل القيم والمفاهيم التي تلقى ، انما يفسر عليها قسرا ، فاما ان ينسجم معها تحت تأثير العادة ، عادة الذل والخضوع والتسليم ، واما ان يرفضها سرا ، لا لشيء سوى لانها نتيجة قسر وجبر ، لا نتيجة وعي ثوري وتقدير لقيمتها الحقيقية . فيتحول في اعماقه الى فوضوي حقود يمارس كل اضداد القيم التي اقر عليها ، طالما شعر باختفاء عين المراقبة عنه . وهذه هي الفضيلة الشكلية التي انتهت اليها اخلاق السديمية . انها لا يهمها الا ما يبدو من انسانها ، واما اقبيته وزواياه واعشاشه السوداء الهاربة ابدا من النور والجراة ، فهي لا يمتد اليها سلطانها .

وهذا هو لانسان الهجين الذي اضاع معا قيمة الخير والشر . الكائن الخائن ، المراقب ، المتآمر الحقود . انه لا يرفض السديمية واخلاقها المزيفة ، لانها مزيفة . كما انه لا يسلك ما يضادها في سره لقيمة هذا الشيء في ذاته . بل هنا علاقة ميتافيزيقية هي علاقة السيد بالعبد . ان العبد غير الثوري ، لا يعي عبوديته ، ولذلك لا يتمرد عليها ، وهو يمارس حياته الشروعة بشكل لا مشروع بالنسبة لقانون السيد . فيفقد بذلك ما هو مشروع وما هو لا مشروع ، وبالتالي يصبح بدون مسؤولية بالنسبة لصاحبه . فلا يمكن لعبد ، ان يمارس اطلاقا الثورية وهو عبد . ولذلك كانت حياته السرية ، بما فيها من عبثية وتمرد ، ليست ذات قيمة على الاطلاق ، كما هي حياته السافرة كعبد خاضع .

وهذه العلاقة الوجودية (السيد والعبد) في الواقع تنتظم كل العلاقات الانسانية والاجتماعية في وجود السديمية . انها العلاقة القائمة بين كل طرفين متفاوتين في القوة التي تمنحها السديمية لاحدهما دون الاخر ، بحسب وقوعه في درجة من انظمة القيم فيها . والشاب الجديد ، يكاد يحيا في جحيم العبودية هذه ، فهو مركز تلتقي عنده كل انواع السيادات ، من الام والاب ، والاخ الاكبر ، والمعلم ، والاله وعالم موانعه ومحرماته كلها . ومن هنا كان عجز انسان السديمية عن ان يبرز مستقلا ، وان يعامل الاخرين كانداد له . فهو اما ان يكون سيدا او عبدا . وهو دائما يقع في درجة من تسلسل القوى ، وليس تسلسل القيم . لان كل قيمة في مثل هذا المجتمع الهرمي انما هي قوة عجماء ليس الا . ولهذا فمثل هذا الانسان ، لا بد ان يوجد من هو اقوى منه ، ومن هو اضعف. فكان سيدا لما دونه، عبدا لما فوقه. وبهذا الشكل، فان كل حرية يكتسبها في سيطرته على من هو دونه ، يفقدها تلقاء جبروت من هو اقوى منه ، فضلا عن ان مثل هذه الحرية، سواء حرية الطغيان أو حرية الاستسلام ، انما هو شعور مزيف يصاحب درجة تضخم القوة العجماء أو تقلصها عند صاحبها . وليست هي تلك الحرية التي يعانيها انسان تتفتح امكانياته الحقيقة ، وتمنحه كرامته في عين ذاته .

ان الانسان في علاقة السيد والعبد انما يختلس الاحساس بوجوده ، ويسرق حريته ، ضمن مجالات من الفعالية الشاذة المستترة ، التي لا تستطيع ان تتكون الا عندما تلغي وجود الاخر . وهو الغاء جبان كذلك ، لا يواجه موضوعه صراحة ، بل يلتف عليه بسلوك النفاق . تشهد على ذلك كميات من الكلمات المترادفة التي يتبادلها كل انسانين يلتقيان في مناسبة وجها لوجه ، انها سلسلة من الفاظ الزلفى والتقرب واظهار الحرص على صحة الاخر وراحته وصحة اولاده واولاد اولاده . وما يتبعها من الفاظ الحمد والتبجيل وتعظيم الاخر ، عن حق او غير حق ، ثم مباشرة تلك المناورة الخبيثة بينهما ، في سبيل ان يتعرف كل طرف على مصائب وكوارث حلت في الاخر ، ليحصل افتراق ثم التقاء اخر . افتراق عندما يتأكد الواحد من ان آلام الاخر اكثر من آلامه . واتفاق عندما يعي الطرفان انهما متألمان حقا . وانه لم يحصل شيء ينال من العادة . والعادة او الحال السوية هي اننا كلنا متألمون ، و بالاحرى منسحقون . انه وضعنا الميتافيزيقي العام الذي تعبر عنه هذه الجملة وهي لازمة الختام في كل مفصل من مفاصل الحديث « الحمدلله على كل حال ، الذي لا يحمد على الشر سواه ! »

وبعد ان يطمئن الاثنان ، طرفا المحاورة اليومية في وجود السديمية، على ان الانسحاق ما زال هو هو ، او انه اشتد ، بالنسبة لكليهما ، وانه لاسعادة طارئة نزلت على احدهما من السماء ، او طلعت عليه بكنز من الارض والجان ، او بمنحة من القدر ، يتحول الحديث الى الاخرين الغائبين . وهنا ينوب قناع اللطف المزيف والحرص المتبادل المصطنع . ويبدأ الخوض في خصوصيات الاخر والتهامه . فمن التلذذ والتشفي بالمبالغة بعرض مصائبه ومشاكله ، في عائلته او عمله او مع اصدقائه ، الى حسد مبطن بحقد وحشي ، ان كان له ما يحسد عليه من نجاح او سعادة طارئة .

والحق ان النجاح الذي قد يصيبه افراد قلة محظوظون في مثل هذا المجتمع السديمي ، انما لا يعني في اكثر الاحيان الا ان هذا الانسان قد ادرك القوانين العضوية لتكوين السديمية ، فآمن بها واخذ يستثمرها لصالحه . ومن يقال عنه انه ناجح ، باللغة اليومية للسديمية ، فمعنى هذا انه نجاح في عرف السديمية .. والناجح هو الذي استطاع ، اكثر من غيره ، ان ينسجم مع نموذج السديمية المطاوب ، السري ، غير المصرح به ، اي من كان افظع سديمية من الاخرين .

وعندما يصمت المتحاوران ، تشخص عيونهما ، وتتكشف كتلهما على مقاعدها وارائكها ، والزمن امتداد كسول لا نهائي ، تسمع طقطقة المسابح، او اصطدام الكؤوس ، او غرغرة النراجيل ، والشهيق والزفير في حركتهما البليدة ، وهناك من يجشأ او يسعل ، او يمخط في منديله ، او تعبث يداه باصابع قدميه القذرتين ، او يعسر تنفس احدهما من تخمة الخبز واللحم والسمن .. في معدته ، هذا الجوف الذي يبتلع كل شيء معوضا عن ضياع انسان كامل .

وتنتهي المحاورة : هكذا الزمان ! لا حول ولا قوة الا بالله !

وتجتمع صرخة صماء في اعماق الثوري الجديد : انا ضدهم ! وغثيان زخم يتدافع في احشائه .

والمكان ، في البيت ، ضيق ، مشغول بالناس والاشياء . وعندما تهدأ حركة الاقدام والالسنة والبطون والانفاس في الليل ، يشخص الثوري المراهق في الظلام . انه وحده الان ، والمراقبة ماتت ، انسحبت الى اطراف الكون ، والله نفسه لن يستطيع ان يعثر عليه ، ههنا تحت الغطاء ، وحواسه مدفونة كلها في السواد . ولكن حشرجة بهيمية ، ولهاثا مسعورا ، يتعالى اليه .. من هناك ، من المكان الضيق وفيه زاوية لابيه وامه . ان المكان لن يتسع لاكثر من هذه الاجساد المتدرجة في الكبر .. لن يتسع لاخ جديد . ولكن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ..

وقد تهدأ المعركة من الزاوية ، ويرفع رأسه من سواد الغطاء..ويتحرك حجر ما قربه ، ويلمع ثمة لحم تحت نور القمر او ذبالة الشارع ... انها ساق اخته ، وتصطك اسنانه ، وينكور على ذاته ، ويبدأ بالارتجاف: حرام .. حرام ! ولكنه يظل مرتجفا ومتكورا لاهثا .. وعندما تهدأ حركته السرية تحت الغطاء ، واثر شخير الاب ، ولمعة اللحم ، وجمود القمر في كبد الافق البارد .. يبدأ بحلم اخر : انه ضدهم ، ضد البيت ، ضد

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

يهتز الشارع يا لوركا ..

اليوم رمادي اجرد
فالسحب تنيخ على افق مدينتنا
والمغرب مربد

ماذا تلد الهرة سوداء الابوين سوى
هر اسود

فاحمل يا سيزيف الصخره
دارت ساقية الحزن المره
هذي مئذنة ترمق نهر الليل
يكسوها ظل الشمس الغارب
ذكرى تنبشها ، لا شيء على جسر
الماضي الشاحب !

لا جدوى ! ابواق تعوى .. حمحمة
الخيل

يا صوت الارض الريفيه
كيف ركضت؟صهلت على هذاالسيل؟
«الشارع يهتز كأن خطاه الوتر المشدود»
لوركا يا كبدي .. ماذا قات عن
الاحزان السود

« افتح عينيك ولا تسرح كدت تبعثر
تلك الحلوى»

عرق اليوم ـ ابي لا اقصد ـ عفوا ..
لوركا عفوا ...

يهتز الشارع مثل دمائك في غرناطه
والاوتار تشد نياطه
كم غنيت الحرية والموت
فالحرية تلد الفرحة للناس
«والموت رقاد لا عتمة فيه ولا صمت»
ما اعمق هذا الاحساس !
ان لاح جناز قد هرول في صمت
للقبر

وارتاح الناس على الافريز بكوا من
غير دموع

« فليرحمه الله »
ثم انسابوا في موجات النهر
ماذا تفعل يا لوركاي ؟
هل بحت أصوات الناي

والتفت احراش خريف مسنون النظرة
كالموت

لا نأمة فيه ولا صوت
قالتها عارية الصدر
في لفظ مرتعد كالطفل المعروق

« يا عيني كان عريسا لم تطفأ بعد
شموع العرش المشنوق

ما زال المخدع رفاف العطر
فليرحمه الله .. »

صوت في الزحمة تاه
طق . طق . طق . طق
خيل . مذياع . بوق
هبني يا لوركا الشعرا
ملحمة مثل عروس الدم
تنضو عني هذا الهم
ترميني في أودية أخرى

★

ماذا أبصر ؟ مئذنة غرقى في نهر الليل
أعلى ما في قريتنا مئذنة المسجد
جدى كان ينادي فيها الفجر
تصحو الديكة لما اذن .. يصحو الطير
فليرحمه الله
جدى جمجمة ملقاة في جوف القبر

ما احتفلت مركبة الفجر بها لما خلتها
ملقاه

وامتص الدود العينين
حتى شعر اللحية .. حتى الرسغين
«والموت رقاد لا عتمة فيه ولا صوت»
لوركا يا من اعجزت الموت
جدى فلاح من حلفا
لم ينهر يوما ضيفا

يهوى الارض يضمدها بالعينين اذا
أغفى

لما مات انتحبت قريته بللت التربة صيفا
كانوا الفا

حتى شتلات النخل انتحبت والشاطيء
ـ يا لوركا ـ اصغى

يقتات الكسرة ما اشتاقت رئتاه التبغا
روحي مثل شجيرة حناء
جامدة من غير دماء
ماذا تجدى اشعار الخنساء
ماذا تجدى يا لوركاي .. ؟

★

يهتز الشارع لا زال اصما
أعمى يقتاد الاعمى
وامرأة هلكي تتصابى
هل تحيي الاصباغ شبابا ؟
يا اصحابي اني اغرق
وحدي في الزحمة موثق
مدوا أيديكم قولوا كيف الحال ؟
هذا شيخ يجثو فوق عصاه
في عينيه .. حتى الشارب .. يا الله
في مشيته .. جدى .. يا جدى ..
« ماذا يا ولدي »
عانق أحزاني وامسح خوفي
لا تربت بالكفين على كتفي
هذا لا يكفي
« لا قوة الا بالله »

★

لوركا يا من اعجزت الموت
اني اعجز عن كلمه
لما ساقوك الى الاجمه
كان سكوتك ابقى ما قلت
هب لي شيئا يا لوركاي
يمشي في اوصال الناي
يهتف انا احيا ..

القاهرة جيلي عبد الرحمن



كنت اشعر ، وقت استقبلتني شجرة الجوز الضخمة الممتدة الاغصان، انني أتحول شيئا فشيئا الى جثة . كان وجهي يزداد اصفرارا ، ويداي تتصلبان ، وقلبي يكف عن الخفقان .

وكانت السماء ، وقتئذ ، تعتكر البكاء .

✶

شيء مذهل ولكنه حقيقي كالقدر .. ان اتذكر الان كل شيء ، حتى التفاصيل .

انسفت وريقات القصة الخضراء القصيرة على صفحة ذهني تهتز مع النسيم اهتزازا عصبيا مستمرا ، يوقظ في صدري الحزن والفرح القديمين المكبوتين ، وكانت رائحة البرية تتسلل الى انفي طرية دافئة غير منظورة كانها حب ينام ويستيقظ في الاعصاب .

لماذا كنت أركض ؟

كانت قدماي تحدثان في تناوب ارتطامهما بالارض المعشوشبة صوتا جافا رتيبا ، وفي اغلب اللحظات مخيفا ، ولقد خلت بسبب من ركضي بهذه السرعة غير المحدودة ان عظامي قد تهاوت من جسدي ، وانني اصبحت طريا ، مائعا ، رجلا بلا عظام . كنت حائرا منذ غادرت منزلنا الجديد في المهاجرين بهذا الحزن غير المحدود الجاثم على صدري هذا المساء ، يلتهم طمانينتي كلما قذفتني قدماي خطوة جديدة الى حيث شجرة الجوز ذات الاغصان الطويلة التي اعتدت ان القى هيفاء تحت ظلالها . كنت احب هذه الصبية الارستقراطية البيضاء اللون كالحليب ، التي يعيش في عينيها نعاس مستديم يزيد من جمالها ، ولقد خلفتورائي من اجلها كل الحكايا القديمة ، ووقفت قلبي عليها وحدها .. لايدق بعنف الا عندما تستقبلني ذراعاها وشفتاها وكل شيء جميل فيها ..

اذكر جيدا ...

كنت اركض ، ربما لانني لم اعتد ان اتأخر يوما عن موعدها ، وكانت الريح تحمل الى وجهي صفعات باردة كانها صفعات سوط مبتل بالماء، ولم اكن لاشعر بالوهن ، وحتى قطرات المطر الهزيلة المحمولة من جبل قاسيون .. لم تحرك في وجهي عضلة ما . لقد كنت مدفوعا بقوة غير منظورة الى الركض .. الركض الى حيث شجرة الجوز ، ووطننا الاوحد كما تقول هيفاء ، وكنت في عدوي شبيها براية مصممة على الاستمرار في المضي الى الامام .

كان علي ان اجتاز حقل الفصه الذي يعرفني منذ يفاعتي حق المعرفة واصعد التل الصغير لاصل الى حيث هيفاء تنتظرني ، واذ اجتزت الجزء الاكبر من الحقل ولاحت درب صغيرة ، ضيقة ، مسورة باغصان من توت السياج الاخضر رأيت مهدية لائذة بالدك الترابي القصير القامة ... ترتجف من البرد ..

كانت مفاجأة غير متوقعة .

ولو انني لم امل براسي ناحية الدرب الضيقة لما رايت مهدية ، ولكنت مضيت في الركض ..

وتوقفت كانما شددت الى الارض بارطال من الحديد ، وحدقت فيها ، ولم استطع ان اقول كلمة واحدة قط .

كانت مهدية تقف في ارض الذكريات كانها عروس كئيبة فقدت زوجها ليلة العرس : قامة نحيلة تهتز كقصبة تجابه الريح ، وعينان حزينتان تحملان في غبش المساء الذي كان يلون الاشياء والاشكال بلون قاتم ... شعورا مضيئا بالخزي والحقد ، ولقد أعددت نفسي لاقف وجها لوجه امام شيء من ماضي الجميل احيانا ، ولكنني لم استطع ان انجو من غزوة من الرعشات الباردة اجتازت صفحة بدني المكسو جيدا ، ومن غزوة اخرى من الشجن حفرت علامة جديدة في جبهتي الملأى بالعلامات .

قلت :

ـ انت ؟ مهدية ؟

قالت :

ـ انا .. مهدية ..

بتحد .. كأن ساعة فاصلة في تاريخ سنيها القليلة قد ازفت .

وتحسست ، وانا اقطع المسافة القصيرة التي كانت تفصلني عنها، جبهتي الباردة كجبهة رجل مات منذ دقائق ، وقذفت بخصلة الشعر السوداء ، الرومانتيكية كما تسميها هيفاء ، المرمية على جبهتي الى الاعلى، وقلت :

ـ لماذا خرجت هذا المساء يامهدية ؟

قالت :

ـ ولماذا لااخرج ؟ اليست هي الارض نفسها التي عرفتني وعرفتها منذ ولدت ؟

قلت :

ـ بلى . ولكن الدنيا برد كما ترين .

قالت :

ـ خرجت في البرد قبل الليلة كثيرا .

قلت :

ـ اكبر الظن ان هروبك من الحوش ، هذه العشية ، سيثير في قلب امك اسى وقلقا كثيرين . انت صغيرة يامهدية .

كانت مهدية صغيرة السن بالنسبة لي .. فعلا ، وما ازال اذكرها وهي تتعثر في مشيتها بين الخرفان والدجاجات المتروكة لشأنها امام الحوش الصغير الذي تسكنه مع اسرتها : أمها واخوتها الصغار وذكرى

الاب الراحل ، وكان الحوش يقع في بداية حقل الفصة .. يطل من جانب على الشارع حيث تبتديء المدينة والمدنية ، ومن جانب على البساتين حيث الفلاحون والعرق والتعب والارض المعطاء .

قالت :

– لست صغيرة .

ولامر ما لم تزد بكلمة واحدة .

ولا ادري لماذا شعرت بالحرج والخوف . وللحظات خاطفة لم استطع ان استوعب ماكان يجري على صفحة وجه مهدية ، ولكنني كنت المح وسط الضباب المساء وخيوط المطر التي تصل السماء بالارض اشباح دموع تركض من الفتحتين الجميلتين الواسعتين ، ولقد اشكل علي المشهد اول الامر ، فلم ادر اكانت تلك القطرات دموعا ام مطرا ، ولكن صوت النشيج قطع كل شك .

لم تكن مهدية ليبكيها شيء على الاطلاق . عرفتها كذلك منذ عرفتها . كانت صلبة .. في الظاهر ، مشاكسة كانها ولدت مع بقرتهم الحمراء المشاكسة من بطن واحدة ، ولكن صلابتها لم تنطو ، في يوم من الايام على قلب قاس .. وما كان ارقها وقت كانت تجلس في الاماسي المقمرة بين وريقات الفصة الندية .. تعد النجوم المعلقة في السماء كالقناديل بصوت حاد منغم ، وما كان ارقها وقت كانت تمد كفها الصغيرة الى شعري ، تمر بها عليه بليونة .. معجبة بنعومته التي لم توفرها الطبيعة لشعرها الاسود الطويل . ان كل شيء قد تبدل ، وها هي ذي تبكي ..

اذكر جيدا كل شيء ..

ضحكت مهدية وقت رأتني ، ذات يوم ، ببنطلوني القصير الذي كان يكشف عن جزء كبير من فخذي .. وبدا عليها الخجل ، فهي لم تألف ان ترى الفتيان بملابس معيبة كهذه ، ونشأ بيننا خصام عجيب متجدد، سرعان ماتحول بتكرار مجيئي الى حقل الفصة القريب من دارنا انئذ ، الى تفاهم صغير عميق ميدانه عيناي وعيناها الواسعتان الجميلتان .

ان راسي لمشحون الان بمئات الصور الصغيرة التي لارابط بينها ، ولكنني استطيع ان اميز في زخم هذا الحشد الهائل من الصور وجه مهدية الصغير الحلو ، وفمها المنمنم الذي كان ينفرج عن ابتسامة ملونة وقت كنت اطل عليها ، بعد ساعة انتظار مضنية تقضيها تحت ظلال شجرة الجوز الكبيرة ، كانت تفتح ذراعيها لي وتحتضنني ، وكانت تقول لي :

– ها هنا لايرانا احد قط . الا تحب هذه الشجرة الحنون كانها ام ؟

وكنت اقول :

– بلى . احبها .. احبها .

فتقول :

– هي لنا اذن . هي ملكي وملكك .

كانت مهدية لاتحب ان تنتظرني الا عند شجرة الجوز هذه ، ولقد حاولت اكثر من مرة ان امضي بها الى اي مكان اخر في البساتين الكثيرة المنتشرة على ضفاف نهر تورا ، ولكنها كانت تتشبث بالشجرة العجوز على نحو عجيب .

لم اعرف ، وقتئذ ، لم كانت تحب شجرة الجوز الوارفة الظلال تلك . ولكن عينيها الباكيتين اللتين كانتا ترنوان الى حيث هيفاء تنتظر ... قد علمتاني ان العواطف البدائية التي منحتنيها مهدية ذات يوم.. كانت بحاجة الى ان تلتصق في مكان معين لتخلد ولتصبح ذكريات عزيزة. ومن يدري ؟.. ربما كانت مهدية تتشبث بالمكان بسبب من هذا الدافع المبهم العائش في صدرها ، ربما كانت تحس انه ملكها فعلا ، ولكنني ، انا نفسي ، لم ارتبط بشيء : بارض او بزمن او بعاطفة . كنت اجلس الى جانبها فاقبلها قبلات صغيرة مختلسة ، او اتمدد بجسدي المتأجج ليلتصق بجسدها الحار الذي كان ينمو بسرعة وقتئذ ، او امد يدي الى صدرها ، ولم يكن كل هذا في حسباني سوى مراهقة سرعان ما تنطفيء وتنسى .

كل هذا يبدو الان قديما ممعنا في قدمه .. كانه حلم ، ولو لم تكن مهدية امامي بثوبها الفلاحي الاحمر اللون المتسخ الذيل ، وبجديلتيها السوداوين اللتين كنت احب ان اداعبهما ، وبعينيها الواسعتين الباكيتين. لظل جزء كبير من ماضي مدفونا في صدري : البئر التي تبتلع كل الاشياء ، حتى الاحزان والافراح .

قلت :

– كفي عن البكاء يا مهدية . لماذا تبكين ؟

قالت :

– هي دموع قليلة سرعان ما تجف

قلت :

– ما خلقت عيناك للدموع يا مهدية .

– تعلمت عيناي البكاء اخيرا .

وشعرت بالاسى ، وقدرت ما تثيره وقفتي من حزن ، فقلت :

– حسبنا الان اننا تلاقينا يامهدية . لنفترق ..

قالت :

– سنذهب الى حيث شجرة الجوز ، شجرتنا ، شجرتي الحبيبة الحنون ...

وارسلت مهدية دفعة جديدة من الدموع ، ولكن صوت النشيج كان قد مات .

كان المطر قد عنف تهطاله ، والريح تصفر ، والجسد الصغير الملتف بالثوب الاحمر اللون يهتز من البرد ومن الحزن . وكنت اذ انقل قدمي في بطء شديد الى حيث هيفاء تنتظرني تحت ظلال الشجرة الضخمة العجوز التي لم تكن ملكها قط ، اشعر انني اتحول شيئا فشيئا الى جثة . كان وجهي يزداد امتقاعا ، ويداي تتصلبان ، وقلبي يكف عن الخفقان ..

وكانت السماء ، وقتئذ ، تحتكر البكاء.

عادل ابو شنب



وحل في جبين الشمس

بقلم سمير تنير

موجة من البحر(*) حملها القدر الي ، تلقيت رذاذها بصدري ووجهي، تنشقت نفسها . وأنسام لبنان حلوة على الدهر . حملت صحرائي ويممت صوبها فوجدت عنائي فيها ، وبؤس قومي مدروجا بين حروفها . لمحت انسان بلدي البسيط المكابد والجبار المكافح في آن ، في سبيل لقمته ، عمله ، كرامته ، قلبه ، أمانيه .. وكل ما تشمله هذه الكلمة النبيلة المختصرة ((الكفاف)) ولكنها مع ذلك عسيرة المنال صعبة التحقيق ما دم الانسان اعزل في مجتمع لم تحتو قوانينه على ضمان حق المواطن في حد معقول من معيشة كريمة . وفي خلال العمل اليومي والحياة ذات الصراع المستمر ، تمر على المرء لحظات تخرجه عن بلادة الاستمرار ، وتجبره على معاودة النظر في سير حياته ، فيعيش برهات تمنيات تتوتر فيها عصابه فيثور او يخور ، ويستقبل الحادث بنظرة تختلف عما اعتاده من اهتمام او عدم مبالاة . وهنا يكون الفنان كامنا يرصد ، اذا وجد الزاوية التي انحرفت عندها منظورات الانسان اسرع بالتقاطها وتثبيتها ، متنقيا من عناصرها اجود ما يتفق وعدته الفنية (من كلمة أو لون) واحس ما يتلاءم وموقفه من العالم (ايجابا او سلبا) والكل يعلم انالمستحيل في الفن هو نقل الحياة الطبيعية برمتها ، اي بكل ما فيها من فوضى وصدق واشياء غير مبررة وردود فعل يحتاج فهمها الى نقص تاريخي قد لا تعثر فيه على حقيقة مقنعة ..

ثم ماذا نفيد اذا رأينا الحياة اليومية تعاد كما هي ؟ الا نشعر بالسخف والملل ؟.. واذن فكلمة ((انتقاء)) هي كلمة شديدة التوفيق في حديثنا عن علاقة الفن بالحياة اليومية . واذا وصفنا فنانا بانه يجيد الانتقاء ، فكاننا نصفه بانه موهوب او شديد الوعي. وعن طريق هذا العمل السحري يتمكن الفنان ان يعيد خلق العالم كما يشتهي اي يعبر عن رأيه بالحياة الواقعية ويحدد موقفه منها ويعرض مفهوم الانسان عنده .

اما اللحظة التي يتوقف فيها الزمان لنفسي عن سيره الطبيعي فقد كانت تبدو ، في الفن القصصي القديم ، على شكل معجزات تتدخل فيها قوى غير منظورة من ملائكة وشياطين .. ثم تحسنت الاحوال عند الفنانين بعض الشيء فصاروا يرجعونها الى عاهة او مرض ، ثم احتاجوا الى وق ـتطويل كي يدركوا ان الامر العارض في الحياة اليومية يحتاج الى كثير من الجهد في التقاطه ، وكلما كانت زاوية الليل اقل انحرافا كلما كان الجهد في ايجادها وابرازها متعبا يقتضي صنعة وتفننا ولعل الاستاذ سمير تنير موفور الحظ من موهبة الرصد هذه .. فهو يعرف كيف ينقل الحادث العادي الى مستوى الازمة ، ويعرف كيف يحيط هذه الازمة بسيالة حياتية تبرز انحرافها البسيط وتبرره . وهذا يعطي قصصه نكهة انسانية فيها أنين وتذمر. اننا نحس وطأةالازمة التيءرزح تحتها البائسون من الباحثين عن الخبز ، ومن منا لا يعذر ذلك الشاب الذي وقف يتأمل السماء والبحر ، شاعرا بنشوة فكرة تعوم وتغرق بينما كان يغريها بان يصرخ .

ـ انا عطيل .. الذي هزم الاعداء في كل مكان

واذا بامه تقطع عيه متعته بتلاوة تراتيل حبها ، بصوتها النائح :

((ستذهب اليوم الى العمل ، لا تتاخر .. فطورك جيد .. لا تشارك العمال به . ابوك مات واخوتك صغار .. ليس غيرك .. انت رجل البيت)) . فاذا بالشاب يتميز غيظا وينفجر .

ربما كانت الام في قصة ((احرف صغيرة)) تؤكد لابنها بكلامها ذاك عطفها عليه ، وتريد ان تشعره بمسؤوليته الجسيمة . ولكن الشاب يحس بكل ثقل العمل وتعبه في تلك اللحظة بالذات حين استسلم للبحر والسماء فاقبلت امه تنغص عليه هنيهات التحرر تلك

وفي مثل تلك الثواني الحالمة بين ذراعي فتاة الماخور حين كان سامي يحلم بانتشالها من ذلك المستنقع البشري ، اذا بصوت العجوز يوقفه من نبله ومشروع الغرام ذاك ..

((تعالي .. هناك زبون يريدك)) .

تجد هذا المشهد في قصة ((وحل في جبين الشمس)) ويزيد في تعاسة تلك الحال ان سامي يرتمي ويزبد كانه يقاتل عدوا غير منظور ... بينما ((رأى الفتاة تتطلع اليه برفة واشفاق ثم تمشي نحو العجوز مطأطئة الرأس))

وفي قصة ((مجرد امنية)) تبلغ موهبة الرصد ذروتها ، فيستحيل الحادث اليومي الى غناء شعري فيه تمجيد لاندفاعات الحب في نفس المراهق ، وفيه رثاء للعاطفة المخنوقة والامنية الموؤدة ، فتى طلع على الدنيا من جديد وهفا ـ كالعادة ـ الى بنت الجيران ((سعاد)) كان في حديقة الدار اصيل يوم ربيعي والهواء يتسلل الى صدره ويدغدغ حواسه ((احس بالطبيعة تفتح ذراعيها وتتلقاه باحضانها .. انه منذ زمن يتوق

(*) مقدمة مجموعة قصصية لسمير تنير ستصدر قريبا .

ان يعطي انسانا ما .. شيئا .. هدية .. رمزا لحب او اعترافا بجميل » كل تلك المشاعر الدفاقة ترقرقت في عروقه منذ لمح على ارض حديقته « شريطة معقودة ، ناعمة كالحرير ، لونها احمر قرمزي .. رفيقه .. ذات ثنيات لطيفة وتموجات مغرية . فريدة هي في وحدتها ... » ذلك هو الشعر !

ويستطيع قصاصنا بمهارة دقيقة ان يبرز الاسى الذي ولد عند ذلك المراهق من تردده في امر اهداء الشريطة الى بنت الجيران ... فهو يضيع بين الاقدام والاحجام لان قدمه لم تثبت على الارض بعد . وهذا الحزن الصغير رقيق مترف ناعم يبلغ اعماق الافئدة ... ويذكرنا بمراهقتنا المحرومة من العطف والارشاد . ففيه نافذة انسانية يعانيها كل مراهق . وفيه نافذة محلية تعرض مشكلة التابو المضروب على العلاقات بين الجنسين . وانني سوف استعجل الامور واخل بقواعد « النقد الرصين » فاذكر ان هذه القصة من اجمل ما في المجموعة واقربها الى القلب لما حوته من عفوية ودقة ولما فيها من طابع محلي يكشف عن الانسان في احد مناحيه ...

وابطال قصصه جميعهم يثورون بشكل ما ، ثم لا تلبث نفوسهم ان تهدأ او ان تنحني امام العاصفة مثل طفل علقت رقبته بحبل ثم هوى .. انه يحرك اطرافه بلا اتجاه ثم لا يلبث ان تشخص عيناه ويموت دون ان يفكر بالسبب . ورغم ان ابطاله متعددو الاجواء والمنازع ـ وتلك ميزة تحسب للقصاص ـ فان العمل هو ازمة حياتهم ، فاذا خسروه انحدروا الى دركات ملحوظة في فقدان الكرامة وانحطاط القيمة حتى ان قصة « الليل والامل » تقدم لنا الانسان في مسكنة كلب ضربه صاحبه فعاد يتمسح به طمعا في لقمة ، وفي قصة « النور بالثمن » يسير الشيخ في طريقه الى العمى وفقدان الحيلة دون مسعف او معين . اما قصة « الازهار في كل مكان » فانها لتدفعنا الى الرعب والاشفاق حين نرى المسلول ولما ينقه بعد ، مضطرا الى ترك المستشفى ومخالطة اولاده وجيرانه والعمل مع الناس ، لان الوكالة لم تعد تدفع ثمن علاجه !

ويشكل العمل اليومي « لعنة » غير مثار عليها امام بطلة « وحل في جبين الشمس » وبطلي « الشموع المنطفئة » اذ يكتشف احدهما انه مهرج يضحك الناس وليس فنانا بل مسخ يشوه الاشياء الصغيرة الجميلة .

ولكن كل ذلك لم يجعلهم يثورون بحنق واصرار ، ولم يكتلهم ولم يجعلهم يؤمنون بهدف واحد مقدس مشترك . وترى تعزيتهم تقتصر على القناعة واكتشاف بعض امور انسانية وهبوا لها حياتهم . فالمسلول حين يصل الى بيته صباح العيد ويلتقي بامرأته التي تعمل خادما وبأولاده الذين يقضمون الحلوى « يشعر بأن الحياة تعود اليه من جديد . ان نظراتهم الحزينة لم يستطع يوما ان يصمد لها وأيقن في تلك اللحظات ان كل ما في الحياة من قسوة سينهار حتما امام تلك الاعين الرفيقة الحنون ، وكذلك الشيخ الذي يدلف الى المستشفى وبعينيه « الماء الازرق يناجي نفسه مفتخرا ب « انه ياكل لقمته ، بشرف وامانة » لكنه مع ذلك سوف يفقد بصره وسوف يهيم يستعطي تاركا زوجه المقعدة وحيدة في البيت !.

ولعل الكاتب نفسه قد استشعر اخطبوطية هذه الازمة ورباطها الخانق، ولعله لم يهتد الى حل ، فاكتفى باثارة المشكلة وتجسيدها وعمد الى تصوير قسوتها بطريقتين :

الاولى : انه كتب قصة ساخرة اسمها « جنازة » وفيها يعرض وسط مظاهر الحزن حوارا فيه مساومة بين تاجرين جشعين ، ونشعر من خلال القصة ان التاجرين غير مخيرين فيموقفهما ، بل مدفوعان بلؤم الى الحفاظ على مصالحهما .

والطريقة الثانية ان ابطال نصف عدد قصص هذه المجموعة هم فتيان يافعون ، وابطال النصف الثاني هم اناس عاديون لم يحظوا باي قسط من الوعي الاجتماعي لمشكلتهم ، وفي الحالتين يكونون مغدورين اذا لم يسيروا في الطريق الصحيح .. اي في طريق التجمع والعمل من اجل حياة اكثر عدالة وكرامة . ولعل هذه الظاهرة تعود ايضا الى سببين :

الاول : سن الكاتب فهو مايزال في العشرين من عمره . اي انه يمنح من موهبته ومطالعاته ومشاهداته الاولية في بيئته وما حولها ..

والسبب الثاني يعود الى ان الامة العربية لم تجد طريقها النهائي في سبيل بناء اشتراكية عربية . ومع ذلك فان قيمة هذا الكاتب تتجسد في انه من بين اوائل الكتاب العرب ـ غير الشيوعيين ـ الذين طرحوا هذه المشكلة باخلاص وبساطة ومعاناة .. وبدون مبالغات ايضا . ولعل ذلك يرجع الى وعيه والى انه « لبناني » اي انه من بلد هادن الاستعمار بشكل من الاشكال وانصرف الى بناء صيغته الاجتماعية في حين ان الاخطار الخارجية التي تتهدد البلدان العربية كادت ان تصرف اكثر الكتاب عن هذا السبيل .

★

في مجال الحديث عن الصنعة « التكنيك » احب ان اثبت رأيا قابلا للتطوير . وهو ان كل كاتب حر في شكل الاداء الذي ينتقيه ما دام يتلاءم مع الفكرة التي يريد الايحاء بها ، والحوادث التي ينتقيها ويسلسلها ، اذ مادامت القصة فنا مستوردا فلا يمكننا ان نهضم تقاليدها بل علينا ان نخترع هذه التقاليد بشكل يتلاءم مع نفوسنا . على ان الكاتب مازال يجيد الحديث عن التجربة الذاتية اكثر مما يجيد الحديث عن التجارب الاخرى التي لاتخصه وليس لها مساس بحياته حتى اذا حاول الحديث على مستوى المبادىء شعرنا بالبعد عن الحياة وبان التركيب العقلي بدا يهيمن على القصة باكملها . ان الهدف الذي يريد ان يصل اليه الكاتب غير واضح فيما يبدو . انه يسير ثلاثة ارباع الطريق ويسير الطريق كله في « الليل والامل » « ومجرد امنية » « الحمار الابيض » .

ومع ذلك ففي اسلوب هذا الكاتب صدق ينفذ الى القلب وفيه رؤية صافية للعالم .. رؤية فيها جلاء ودقة وبساطة وتلك اهم صفات الاسلوب الجيد . ففي جمل امثال : « لم يحدث شيء .. الامور لم تتغير كانه توقف عن السير . لم يتغير شيء فالمدينة غسلت بالمطر ، وبدت عارية . » و « في الافق الواسع كانت الاشياء تنساب امامي من وراء الدموع رقيقة ناعمة وكان لا اثر لحياة ولا وجود لها . »

في جمل مثل هذه نطمئن الى الموهبة ودقة الحس ونشعر بالجمال .. وقد ركز الكاتب موهبته الحساسة في اقصوصتين شعريتين هما : « الفجر ينزف» و «النور في القلب» وفيهما نجد انتصارا عظيما ونرى رؤية غضة للعالم على شكل عرضاني كاننا في فيلم ملون يعرض لقطات سريعة للعالم في ثانية .. ذلك نشاهده في « الفجر ينزف » وانني اترك الحكم على هاتين الاقصوصتين لاثنين من كبار المثقفين الموهوبين في الوطن العربي .. مع اختلافي معهما في نقطة واحدة هي انهما اعتبرا الاقصوصتين شعرا وانا لا اسمي الشعر الا اذا وجد فيه وزن اي اذا اعتمد وحدة زمنية منغمة .. وعذري في هذا الخلاف انني اذا ناديت بحق القصصي في ابتكار التكنيك فلانه ليس للقصة العربية تكنيك .. وانا اجد في تراث الشعر العربي شيئا هاما يجب المحافظة عليه ، هو : الوزن .

كتب الشاعر الجبار بدر شاكر السياب عن هاتين الاقصوصتين :

« ان قصيدتك « النور في القلب » و « الفجر ينزف » تحملان نواة شاعر عظيم يجمع الى خصب الخيال وقوة الاحساس المعرفة المبكرة ـ ولهذا التبكير اهمية كبرى ـ المعرفة المبكرة بماهية الشعر .

« انك تذكرني بشاعر كان من المتعمقين بالفلسفة ولكنه كان يعني الاشياء ويرى ان واجب الشاعر ان يمجد هذه الاشياء البسيطة الفانية ... يمتدحها للملاك وهو يستعمل كلمة الملاك بدلا من الاله . انه ريلكة ولا ريب انك سمعت به . ان علينا ان نعبر عن المحسوس المتجسد Concrete وليس عن المجرد Abstract اننا نعيش في عصر الرموز .. التعبير بالجامد عن المجرد .. هذا ما ادركته وما حققته فنجحت فيه . ونحن ـ واقصد الشعراء ـ اما ان نستعير هذه الرموز من الاساطير والتراث الادبي العالمي .. واما ان نخلقها .. نبتكرها ، ولكي نبتكر هذه الرموز لابد لنا من بناء ادبي معين : قصة او قصيدة طويلة او جملة قصائد تستعمل فيها نفس الرموز . او اقصوصة شعرية .. وهذا الاخير ما فعلته . فضمن مثل هذا البناء .. هذا العالم الذي يخلقه الفنان تستمد الرموز معناها الجديد الذي نريده لها . »

اما القصاص الشاعر جبرا ابراهيم جبرا فقد كتب اليه :

« في كلتا قصدتيك محاولة جريئة اهنئك عليها . فانت تجرب في كثير من الاناة والتدقيق . وانت ترى بوضوح ، صور النور في شتى اشكاله والوانه . والتجسيد وهو هم ما في الشعر ـ ات عن وضوح الرؤيــة .

« في « الفجر ينزف » انت انجح منك في « النور في القلب » لانك تتجنب العبارات المبتذلة العاطفية : « المصباح يتاوه » الابواب في الاعلى تصفق كنبضات القلب » « اليدان تتشابكان في حب ومودة وطهر » الخ انسنة الجماد لاتعجبني اجمالا .. كما لاتعجبني المجردات الاخلاقية في الشعر . في « الفجر ينزف » تنمو قصيدتك من الداخل باندفاع ، لولا انك تفسدها احيانا قليلة بكليشهات النثر : « الفجر يتثاءب . الافق مخضب بالنار والظلال الهائمة تهرب » . اقلع هذه الصور العادية من شعرك . كان يكفي في هذا المقطع جزؤه الاخير الجميل : « الضوء يطلع من البحر . كامرأة عارية تنهض من السرير » وافسدت المقطع الثاني بالعبارة الاخبارية الاولى « اغرودتي كانت حزينة » كانك تنبهنا الى نوع العاطفة التي يجب ان نستشعرها مقدما . وهذا خطأ . قل : « اغرودتي كانت تقول : يارب . .الخ »

« انك تبني جو الاقصوصة الشعرية بناء قصصيا زمنيا وحسنا تفعل كما ان قصيدتك ملأى بصور مرئيه خفاقة الحركة .. « من العجوز التي تحلب البقرة الى المختار الذي يفتل شاربيه » غير ان صورك تميل الى الانتشار بدلا من التجمع ، ولعل السبب هو استعمالك هذه الاسطر القصيرة التي يكتفي كل منها بذاته » .

✶

ارايتـم ... ؟

هذه الموجة من البحر ماجتازت بوادي الشام طمعا في دمشق فقط .. وانما اجتازت بوادي العراق طمعا في بغداد ايضا . وكما تندي صدري ووجهي برذاذ البحر ، فاحتضنته فرحا طروبا .. كان قبلي من سعد برشاشة الماء قبل هوائه ..

وانا موقن ان القارىء سوف يعيش هنيهات غنيات مع وعي متفتح وموهبة متالقة .

دمشق **محيي الدين صبحي**

قصص بلغارية قصيرة

ترجمة : طلعت السمري

مطبعة المعرفة ـ القاهرة ـ ١٥٢ ص

أجاب ارنست همنجواي الروائي الشهير على سؤال لاحد الصحفيين عندما سأله هل « مارست النقد الادبي في صدر حياتك » قائلا : « انني لم امارس الادعاء والغرور . »

وبالرغم من ان راى همنجواي في النقد لا يمثل حكما مطلقا ، ولايمكن ان تكون له صفة الشمول .. الا اننا نرى ان مثل هذا الرأي ينطبق على كثير من النقاد الذين يتصدون لهذه المهمة الخطيرة ..

وان عددا من نقادنا يتوهمون ان الحركة الادبية ما هي الا ميدان للقتال .. لا يخوضه الا الفوارس المثقلون بالحديد ، والمجيدون للكر والفر ، وهم لم يؤمنوا بعد ، بان هناك علاقة حية ، متفاعلة ، ذات مضمون بناء بين الناقد والاديب ... وان من اولى واجبات النقد الاساسية ومهماته التوجيه والكشف عن خصائص كل اديب ومميزاته الفردية ، ونواحي الاجادة في ادبه ، وتقييم الانتاج بالاسلوب الذي يسمح بتطويره، والدفع به الى الانطلاق بدلا من اقامة العوائق والموانع التي تسد الدرب على الرواد ، وتطمس معالم الاشياء التي تواجههم .. ولهذا فان مشكلة النقد .. مشكلة معقدة تستلزم دراسة خاصة ، وخاصة اذا كان العمل الادبي المراد نقده .. مترجما ، لاننا ما زلنا في حاجة دائمة لننقل لادبنا ما قد تعجز امكانياتنا الادبية عن ابداعه ..

تذكرت هذا وانا اطالع مجموعة القصص البلغارية القصيرة التي ظهرت اخيرا في القاهرة ... والتي قام بترجمتها الاديب الشاب طلعت السمري ، وهذه هي المجموعة الاولى للمترجم ، وصحيح انه نشر كثيرا من الترجمات والبحوث في عديد من المجلات والجرائد المعروفة .. ولكنه مترجم ناشيء على كل حال .

ولقد كان الادباء الناشئون ، وما زالوا .. يفتشون بجهد ومشقه ، ومعاناة ، عن دروبهم الجديدة .. ومترجمنا هذا من هؤلاء الجادين « عرك الحياة .. وعركته الحياة .. » اذ انه قصاص كذلك . وهذه البراعم تحتاج فيما تحتاج اليه من الهواء الطلق ، والنور الصافي ، والرعاية الصادقة المخلصة ... بل والى النقد المخلص كذلك ، الذي ياخذ بالايدي في حب ، ويرشدها في امانة ، ويصلح الاخطاء بغير تهكم ، ويسقيها ماء عذبا ، لا ملحا اجاجا يميتها ويقضي عليها .. وهي في اول الطريق ...

والمجموعة التي اصدرها الاديب طلعت السمري تضم اربع عشرة قصة لاثني عشر كاتبا بلغاريا .. امثال « جورجي راتشيف » ، « بويان بولجار » « ديمتر تاليف » ، « تشودومير شوربجيسكي » ، « الين بلان » وبعض الكتاب المعاصرين امثال « ايفان اوستريكوف » ، « دميان كالفوف » ، فاليافاتوف » ، « راديشكوف » ، جورج ماركـوف » ، « قسطنطين كوليف » وسأحاول هنا تلخيص .. او عرض بعض القصص ... لاكلها .. عرضا سريعا دون ذكر التفاصيل . والتعليق عليها في صدق وامانة .

فالقصص فيها شبه الى حد كبير بالقصص الروسي .. في طريقة معالجتها للاشياء ، وفي طابعها الانساني ، وقوة تعبيرها .. وقد يرجع

ذلك الى تتلمذ بعض كتاب القصة في بلغاريا على يد كتاب روس ..

فمثلا قصة « المسبحة » لـ « جورجي راتشيف » يحكى فيها قصة رجل عجوز وزوجته ... لم يعش لهما طفل ، واستمرا هكذا فترة كبيرة الى ان رزقا بمولود اسمياه « كيريل » تباركا بالحاج كيريل .. الذي قام واعطى لوالد الطفل بعض حبات مسبحته ليلضمها للمولود الجديد فتبعد عنه الشرور. ونما الطفل ، واطلق عليه اهل القرية اسم « كيرشو » لازدياد نموه .. واستمر الاب يلضم لولده حبة جديدة ، في كل مناسبة تمر بحياة وحيده .. حتى اتم دراسته المتوسطة ثم اشتغل موظفا .. حتى طلب للجيش .. فانتظم في صفوفه .. وما لبثت ان قامت الحرب ...

وفي اثنائها رقي الى رتبة الملازم الثاني ... والاب فخور كل الفخر بوحيده الذي عوض صبره في الحياة .. فيتتبع بنهم شديد اخبار الحرب ... ويتلهف على قراءة خطابات ولده التي كان يحدد فيها المعارك التي اشترك فيها .. فيقوم الاب ويفتح الخريطة .. ليتبع سيرها ثم يدور في كل القرية حاملا خريطته ليشرح للناس كل شيء عن المعركة.. غير ان خطابات وحيده انقطعت فجأة مما جعله يتساءل :

لماذا لم يكتب « كيريل » هل هو مريض .. ام جريح .. او اي شيء اخــر ..؟!

ولكن ذلك الشيء الاخر الذي يخشاه يجعله يردد مرة اخرى :

ـ لماذا يتقاتل الناس هكذا .. ويموتون ؟! الم يحصلوا على ما فيـه الكفاية ... هل يريدون تحطيم وحيدي ؟ »

كانت الدماء تجري في عروقه باردة كالثلج كلما فكر في هذه الاشياء.. ولكنه يضيف حبة اخرى لمسبحته المباركة .

وفي صباح يوم كئيب ، اخبره ناظر المدرسة بوفاة وحيده .. ففقـد الامل في الحياة .. وزهدها .. وقد شوهد بعدها في حجرته الساكنة، والتي تتسلل الشمس من نافذتها الضيقة .. وقد انعكس ضوؤها على حبات مسبحته المختلفة الالوان وظهر وفي اخرها حبة سوداء كبيرة .. جديدة ، وهي تلمع لمعانا قاتما .. ومع لمعانها زحف الحزن الاسود الى قلبه الحزين ، وغمره الى الابد ..

هذه لمسة فنية لا يدركها الا وجدان قوي .. يرى الاشياء في هدوئهـا حتى ولو كانت عنيفة .. صراخ.. وضجيج ولكنه يرى ما فيها من دموع تسيل بلا عنف ... وتسرب الاحزان في داخل الذات الانسانية بحيـث تظهر كبيرة .. او اطراقة هادئة .. ووراء هذه الظاهرة البسيطة تتضح تماما الاعماق البعيدة المليئة بعناصر المأساة ... وهكذا تجد « راتشيف » يقص حكاية الانسان مع الحياة .. ومع نفسه ، ويعبر عن المواقـف الانسانية .

اما قصة « ستارلغ » عازف « الربيك » للكاتب الكلاسيكي الكبيـر « الين بلان » (١٧٧٨ ـ ١٩٤٩) فتحكي قصـة شاب موسيقي .. فقير جاء طالبا الرزق .. متجولا في القرى .. وذات يوم وجده العمـــدة على مسطبة .. في ساحة القرية ، فشك فيه وقاده لسجن القرية .. حتى يتبين له حقيقته .. ومنذ اللحظة التي دخل فيها السجن .. دوت في القرية الحانه العذبة .. من آلته الموسيقية « الربيك » .

وهذه الالحان .. جذبت اليه احدى الغجريات .. فجاءت تسترق السمع .. والنظر .. من نافذة السجن ثم توسلت للعمدة ليفـرج عنه .. وقد كان .. وتوطدت علاقة الموسيقي الفلاح .. بالفتاة الغجرية وعائلتها بعد ان عزف في حفلة عرس اخيها .. فأسر قلب الفتاة .. وعطف الاب .. ثم صداقته للاب واشتغاله عنده .. ثم هربه .. بعـد موقف غرامي مع الغجرية .. ثم حالة الفتاة النفسية بعد اختفائه.. ثم وفاته فعلا .. وغريبا كما جاء .. وقد احاطه الناس من كل جانـب وقـال احـدهـم :

« ان قلبه يتدفق بالغنـاء ... »

وقـال اخـر :

« انه مات من الجوع هذا الفتى الفقير .. »

ثم قالت احدى الفتيات لصديقاتها :

« انه مات من الحب هذا العزيز » ولكنهم جميعا كانوا على حق ..

وكذلك قصة « تشودومير شوربجسكي » : « غداء عائلة كوتشو » وقـد تناولها باسلوبه اللاذع الساخر .. المليء بالفكاهة .. فيحكي قصة لاحدى الاسر من الطبقة المتوسطة قبل التحرير وعلى التفسخ .. والتفاهة التي يعيش فيها افراد هذه الاسرة .. المكونة من اب عجوز بالمعاش يدعى « كوتشو » وزوجته المتصابية وبناته الثلاث « تستا » وهي دائما غارقة في المانكير ، و « تيسا » التي تهوى قراءة القصص الغرامية .. « وتسا» التي تتسلل من ان لاخر لتسرق قطعة من المربى دون ان يشعر بهـا احد .. وهكذا ليس في حياتهم شيء .. اللهم الا السيد « كوتشو » العجوز هو انشطهم .. فيذهب ليتسوق حاجياته .. ثم يعود للمنزل ويدخل المطبخ .. ليجهز الطعام دون ان تساعده احدى فتياته او حتى زوجته .. وبعد اعداده الطعام لم يجد من يحمل الصينية للغرف .. ويمضي الوقت سريعا .. حتى جاء موعد الغداء .. والطعام لم يعـد بعد فكان جزاءهم ان اكلوا .. خبز' ..وجبنا .. وبصلا .

وثمة شيء اخير .. هو ان القصص محلية ـ تتناول شرائح صغيرة وقطاعات ضيقة من الحياة من بلغاريا .. ورأيي انه لاباس .. بـل من

الضروري ان نستعرض حياة الشعوب الاخرى وان نتعرف على خصائصها وملامحها المحلية ، فكل ذلك يغني ادبنا ، ويثريه ، ويدفع الى شرايينه بدفقات جديدة من الدم ، النقي الذي يزيد شباب ادبنا فتوة ، وعمقا ورحابة ..

ولكني اقر في المقابل انه جاء بالكتاب بعض الاخطاء المطبعية واللغوية البسيطة ، وهي الشيء الذي فات المترجم فلم يحاول مراجعة الترجمة اثناء طبعها ..

القاهرة **محمد مهران السيد**

اوقفوا هذا السرطان

بقلم : الدكتور سيف الدين البستاني

اما السرطان فهو الماسونية ، واما المؤلف الداعي الى بتر السرطان فهو الدكتور سيف الدين البستاني – من عرب اللواء المقيمين في دمشق – ، وهو طبيب أغرم بفضح الماسونية والعمل على الحيلولة بين سمومها وبين مصير الشعب العربي ، منذ عشرين عاما . واما الكتاب فهو حصيلة هذه الجهود الطويلة المتانية التي خرج المؤلف منها وهو « اشد ايمانا بالواجب الذي الزم نفسه بانجازه ، الا وهو فضح هذه الزمرة الفاسدة وازالة الاقنعة الكاذبة عن وجوهها الشوهاء ، وتعريتها امام الشرفاء فلا ينخدع بها بعد اليوم احد » .

اذن فهدف الكتاب منذ الصفحة الاولى واضح ، الا وهو مكافحة الماسونية وتخليص الشعب العربي منها .

« ان الواجب الاول الملقى على عاتق امتنا العربية الناهضة الان هو تصفية هذه الجمعيات المخربة ، واجتثاث جذورها السامة من تربتنا الطاهرة قبل ان يستفحل خطرها ويستشري شرها فتقضي على كل امكانية في المستقبل لمنع خطرها ... ذلك لان المستعمرين كانوا يخلقون في المجتمع الذي يتغلغل نفوذهم فيه فئات خاصة لاتنتمي الى طبقة اجتماعية او سياسية معينة ، وانما ترجع بأصولها الى مختلف الطبقات ، لتعمل ضمن برامج مدروسة ، وأهداف معينة الحدود والشعارات سلفا تنتهي كلها الى هدف بعيد واحد هو خدمة السياسة الاستعمارية بأساليب غير مباشرة وخفية ، أو لتمهيد السبل امامها » . والمؤلف الدكتور سيف الدين البستاني ، لايعتقد بان الجمعيات الماسونية في الوطن العربي تخدم السياسة الاستعمارية البعيدة او المستوردة فحسب، بل هو يعتقد بوجود ارتباط اكيد بين الجمعيات الماسونية والصهيونية العالمية ، ويلقي الاضواء على العلاقات القائمة بين الماسونية وأهداف اسرائيل ... وهذه النقطة بالذات هي اهم مافي الكتاب وهي التي تعطيه اهمية في المكتبة العربية . اذ هو اول كتاب عربي يفضح ارتباط الماسونية باسرائيل عدوة العرب . .

وعلى الرغم من ان المؤلف لم يضع فصلا خاصا عن هذه الناحية : « ارتباط الماسونية نظاما وتكوينا بالصهيونية والاستعمار » فان هذه الحقيقة كانت محور الكتاب وهي تواجه القارىء في كل صفحات الكتاب وفي كافة فصوله .. وعلى سبيل المثال نورد هذا المقطع المأخوذ من فصل بعنوان : « موقف الماسونية من الفضيلة » يقول الدكتور البستاني : « اليك ماجاء في كتاب – كيف أنشىء المحفل الاكبر الوطني السوري اللبناني – تاليف وجمع حسين اللاذ واحمد مختار نجا ، فهما يتهمان محمد رفعة السكرتير الاعظم للمحفل الاكبر الوطني المصري بانه كان يتعامل مع الصهيونيين ، وانه اشتغل بالسمسرة وبيع الاراضي العربية لليهود . وبذلك ينفضح ارتباط الماسونية بالصهيونية وخيانتها للشعب العربي » .

وحين يعقد المؤلف فصلا للحديث عن سمات الماسونية وحقيقتها يقول : « ان اليهود وحدهم يخشون الكشف عن مآربهم التي تختفي بين جوانح الجمعيات السرية . والماسونية لاتضطر للاغراق في التكتم الا اذا كانت مسرحا سريا لهذه الاطماع ... فالماسونية وجميع الجمعيات السرية المماثلة ليست غايات وانما هي وسائل ، تستخدمها القوى الخفية لتهديم القيم التي تقف حائلا دون مطامع بني اسرائيل » .

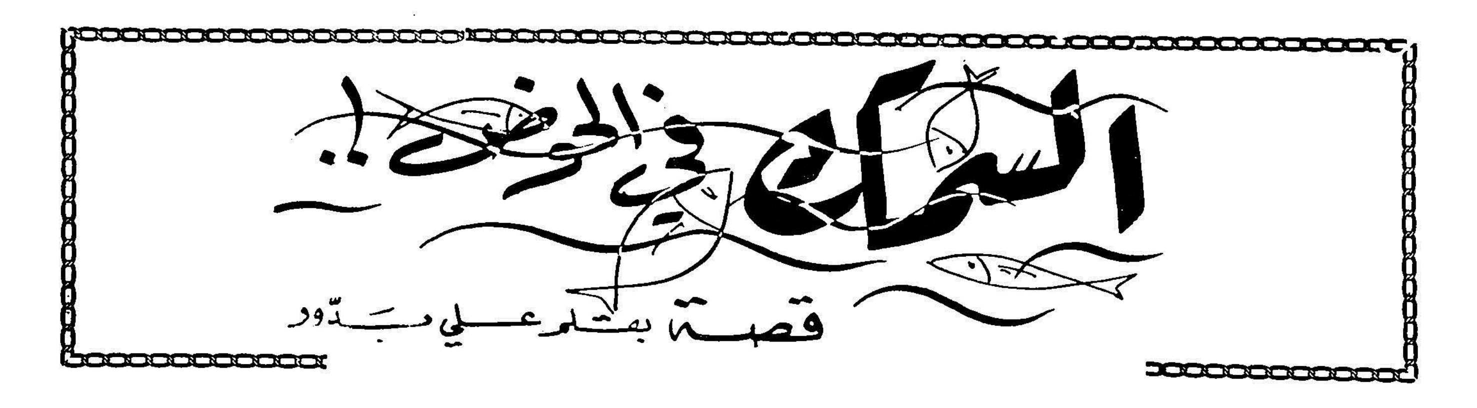
وهو في خاتمة الكتاب ايضا يقول : « لقد اتضح ان الماسونية يهودية استعمارية ، فهل يمكن للعرب او لغيرهم من امم الارض ان يأتلفوا مع تلك الروح العدوانية التي يقودها تلامذة التلمود من الماسونيين وأسيادهم احبار اليهود ؟ » .

هذا هو محور الكتاب ، او هذا هو السرطان الذي يدعو الدكتور البستاني الشعب العربي لمكافحته والتخلص من ويلاته . وهو في الوقت ذاته يشير الى تنافي الماسونية مع القيم الحضارية والانسانية وعداوتها لكل المكتسبات الاخلاقية والاجتماعية الصالحة .

وان كان للناقد ان ينصح باقتناء كتاب او تحاشيه ، فانني ادعو الى نشر هذا الكتاب على نطاق واسع في كافة الاقطار العربية وانصح باقتنائه في مكتباتنا العامة ومكتباتنا المدرسية .

وأظن انه سيرد على تساؤلات عديدة لدى القراء العرب والطلاب منهم بوجه خاص – ، وأظن انه سيزودهم بأسلحة فكرية فعالة في معركتنا الحياتية الانية مع الاستعمار والصهيونية .

دمشق **شريف الرأس**



كانت المرايا المتقابلة تعكس الوجوه البادية فيها الى ما لا نهاية. ورائحة البن تتصاعد من اطراف المقهى الاربعة ، والرواد على قلتهم منتشون بعبير الخمرة السوداء ، عندما مر احد صابغي الاحذية . كان صبيا لم يتجاوز الاثنتي عشرة سنة ، يحمل صندوقه الخشبي كانه حمل ثقيل قد ناء به الظهر الرقيق !

كان الى جانبي صديق يشرب قهوته ببطء ، وينظر بين لحظة واخرى الى حذائه المغبر ، ويبعث باحدى عينيه الى الشارع ، تبحث عن ماسح احذية ، فلما مر الصبي صاح الصديق بأعلى صوته :

ـ يا ولد .. تعال يا ولد ...

فتسمر الصبي ، وابتسم ، ثم استدار ، ودخل المقهى الصغير ، والقى بحمله بين اقدامنا ، واقتعد كرسيا صغيرا كان يحمله بيده . ومد الصديق احدى قدميه ، وبدأ الصبي عمله في معالجة الحذاء المغبر .

كان الصبي رقيقا نحيلا ، ذا بشرة ناعمة . وكان في وجهه عينان سوداوان جميلتان لم ار اجمل منهما في حياتي. وكان رغم اشتغاله في مهنة مسح الاحذية ، نظيفا تلوح عليه آثار نعمة غابرة . وكان لوداعته ولصفاء وجهه ولطافته ، اشبه بقطعة من الخبز قد نقعت في الحليب الساخـن .

حاول الصبي ان يمسك بيده الفرشاة ، فسقطت من يده ، ولكنـه تناولها بسرعة ، وبدأ يمسح بها الغبار . كان يبدو عليه التكلف فـي عمله ، وبدا انه يعمل في مهنة ليست له ، او انه لم يتقنها بعـد . وكانت يده المرتجفة وعيناه اللتان كانتا تشعان بالسنا الباهر ، وانكسار الامل على نظراته الحائرة ، يفسران محاولته المخففة التي كان يشبعها الجهد في تنظيف الحذاء ، ويطرحان دون اثارة اي سؤال ، حيـاة قلقة ، وعذابا ليس لهوله حدود ، كان الصبي يخضع له نفسه ، لتذوق مرارة الفشل في كل سحبه فرشاة على جلد مغبر ، ليلمعه فيبصر فيـه مستقبل ايامه الغامضة !

كان يرتدي سترة زرقاء باهتة قد لوحتها الشمس ، ولكنها كانـت نظيفة ، وفي قدميه كان ينتعل صندلا صيفيا لايزال فيه بقية من حياة حتى اواسط الخريف ، وكانت ازرار السترة اللامعة ، تخفي بعض الشيء نسيج الفناء الذي حاكته الايام على صفحة السترة التي توشك ان تبلى ولم تمسك على حياتها سوى يدين مولعتين بالنظافة ، قد حضنتنا هـذا الصبي الذي لايزال منهمكا في تلميع فردة الحذاء .

خطر لي ان احدثه ، بينما كان الصديق يشرب قهوته بلذة وهدوء .

قلت لـه :

ـ مااسمـك ؟

فاجابني وقـد توقف عن العمـل :

ـ حسين .

قلت وقد تفاءلت بالاسم :

ـ ومن اين انت ياحسين ؟

فاجابني وقد اسند ذراعه على فخذه ، وفي كفه فرشاة تنتظر :

ـ انا من درعا .. ولكننا مقيمون هنا في دمشق !

وتابعت اسئلتي بينما كان يتابع هو توقفه عن العمل خلال الرد عليها :

ـ هل لك اخوة او اخوات . ام او اب ؟

ابتسم حسين ابتسامة باهتة ، ثم ترك ابتسامته المتعبة تجيب علـى سـؤالـي :

ـ لي اخوة واخوات ، صغار . وام فقط .

وسألته مجددا ، ولكن بحنان اكثر عندما علمت انه كبير العائلة :

ـ والمدرسة .. ياحسين ! هل دخلت مدرسة ذات يوم ؟

فاجابني وقد اطرق برأسه يبحث عن شيء ضائع :

ـ بقيت فيها ثلاث سنوات . ثم هجرتها . ان عملي اليوم اكثر اهمية من الدراسـة !

فختمت اسئلتي المحرجة :

ـ وكم تربح في اليوم ياحسين ؟

فكان رده بسيطا عفويا :

ـ ليرة او اقل .. احيانا اكثر !

انزل صديقي قدمه عن الصندوق ، ورفع القدم الاخرى ، وبدا الفرق واضحا بين فردتي حذائه . وتابع الصبي مسح الحذاء بنفس اليـد المرتجفة ، وضعف الخبرة .. فكان اليد التي تمسك بالقلم تعجز عـن حمل فرشاة في حياتها . وكانت المرايا لاتزال تعكس مئات الصور ،ورائحة الخمرة السوداء تتصاعد مثل عبير وردة برية في صحراء مقفرة والاضواء تهتز تحت الهواء الذي تبعثه المروحة ، والزبائن بين داخل وخارج ،يغفون على جو المقهى ، ما تتركه انامل العازف على الاوتار المختلفة ، من شتيت الانغام التي يوحدها عازف الكمان الماهر . وكانت هذه المقطوعة التـي تعزف دون ان يسمعها احد ، ينقصها لحن « حسين » ذلك الصبي الذي لاينسـى .

شئت ان احدث صديقي فسألته :

ــ الا ترى الى المرآة كيف تعكس الصور عنا ؟ من نحن ، بين عديد الصور المتشابهة ؟

ولكن الصديق لم يجبني . لقد انصرف الى حسين يسأله :

ــ لماذا لم تتقن الفردة الاولى جيدا ؟

فرد حسين وهو يبتسم ابتسامة بيضاء :

ــ ثق ياسيدي انني وضعت فيها كل جهدي .

انهمك حسين من جديد في حمل الفرشاة ، والمسح بها ، ولكن ذراعه الضيقة كانت اعجز من ان تحمل فرشاة وتضغط بها على صفحة حذاء مغبر . وفي خلال العمل وانهماكنا مجددا في الحديث عن المرايا اخرج حسين علبة دهان مفرغة ، نظيفة ، ممتلئة بالماء حتى فتحتها ، ووضعها على جانب من الصندوق . كان في العلبة الزجاجية سمكة صغيرة . وكانت السمكة رفيعة طويلة ولكنها صغيرة . وكان اطار الزجاجة ضيقا فلا يتسع للسمكة اذا ارادت ان تتمدد على طولها فيه . كانت السمكة متعبة مرهقة ، مضطربة تصعد الى الذروة ، وتعود من جديد في لمحة لتستقر في القعر وكأنها تضغط على نفسها لتقصر قليلا .. ولكن ذلك كان مستحيلا . وكانت تتنفس بسرعة ، وبعنف ، وبتعب . خيل الينا انا وصديقي ان السمكة ستموت لامحالة اذا ظلت في هذا المكان الضيق. فسألت حسين :

ــ لماذا لاتضعها في طاس . او كوب . انها ستموت ياحسين ؟

فرد ضاحكا ، وهو يتأملها بشغف ووله مفرطين في السعادة :

ــ ستقاوم ياسيدي . انني سآخذها الى المنزل توا ..

انصرفنا الى تامل السمكة المحصورة في نطاقها الضيق . ولكن حسين كان ينظر اليها نظرة خاصة . كان يشعر نحوها بعواطف عديدة ، ولكنه لا يجيد التعبير عنها . لقد كان مشغولا بعمله الذي لم يتقنه بعد . انه لايعرف كيف تحمل الفرشاة ، ولا كيف يوضع الدهان على قطعة الاسفنج. انه يدخل المهنة الجديدة دون الالمام بابسط اسسها ومبادئها ، وكان جهله لاصول الصنعة يعوضه من ارتجاف يديه ، وحمرة خديه وخفوت الضوء في العينين السوداوين الجميلتين ، وارتجاف الشفتين القرمزيتين كجناحي حمامة مطعونة .

كانت السمكة توشك ان تموت . وكان حسين يسرع في مسح ماتبقى من الحذاء . كان يتعذب بعمله وحمله الصندوق وارتدائه تلك السترة الزرقاء البالية . لقد كان عليه ان يجرب عمل صانعي الاحذية المفرطين في الحذق . وفيما كانت السمكة تختنق بالماء ــ رغم انها لاتعيش الا به ــ وجدران الزجاج المحيطة بها تضيق عليها شيئا فشيئا ــ كما تضيق جبال الثلج في المحيطات على السفن التائهة ــ وتنفسها يضطرب ويشتد كلما بدت لها النهاية اقرب من عنق الزجاجة المفرطة في القصر ، كان حسين لايزال يحمل الفرشاة بيد مرتجفة ويحاول اتقان تلميع الحذاء ،ولكنه كان يخفق في كل محاولاته . وكان يبدو عليه الاضطراب وعدم الاستقرار وكان الشعور بالراحة يعاوده قليلا ولكن سرعان ماينذ عنه ليحل محله شعور بالقلق والمسؤولية التي القيت على كاهله ! وكان يعتذر بعينيه من الزبون ، ليسامحه اذا بدا انه لم يستطع تلميع الحذاء بالصورة المعهودة في مثل الحالات المشابهة . وكان لايستعمل لسانه رغم سلامته ، خشية الا يتفوه بكلمات ليس لها علاقة بموضوع الاعتذار ، اصلا !!

نزلت قدم الزميل ولملم حسين اغراضه ، وحمل سمكته الصغيرة في زجاجته الضيقة وتوقف لحظة امامي . كان يمزقه الالم ، فقد بدا وجهه الرقيق عابسا لمصير السمكة ، ولكنه اراد لو امد احدى قدمي ، فلم افعل . كنت راغبا من كل قلبي ان ينجو امل حسين في ان تعيش السمكة وتواصل الحياة .

غاب حسين في الزحام ، ولكنه ترك في نفسينا صورة لاتمحى . ان السمكة الصغيرة لاتزال تتعذب . لاتزال تصعد وتهبط دون ان تستطيع المكوث ولو لحظة على طولها فيحملها الماء اذا ارخت بكل ثقلها فيه . وحسين ، ذلك الصبي الرقيق الذي حمل صندوقا ينوء به الظهر ، واخذ يجلس امام الزبائن وفيهم الطيب وفيهم الشرير لايزال يمسح الاحذية بيد مرتجفة ، وعينين متعبتين ، وقلب لم يتسع لاحلام الطفولة فاتسع لهموم الصغار الذين يغدون ارباب اسر قبل الاوان !!

كان عبير الخمرة السوداء قد خدر اكثر الحواس ، وبعث النشوة في بعضها ، والمروحة تبعث الانسام الرطبة في المسام جميعا ، والمرايا المتقابلة لاتزال رغم صمتها ، تعبر عن مكنونها بابداعها من الصورة عشرات الصور المتشابهة ، وتوزع خواطر النفس على الماضي والحاضر والمستقبل وتقف اكثر فاكثر عند كافة الاحواض الضيقة المترعة بالسمك ، والمنتشرة في اكثر بقاع العالم . وخلال هذا الفيض من الصمت المثقل بالتامل سألني صديقي وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ــ هل تعتقد ان السمكة ستموت ؟

فقلت له وعينا حسين السوداوان تنيران لي طريق الجواب ، ووجهه الرقيق وبشرته الناعمة تمهدانه :

ــ اذا كنت تقصد السمكة الصغيرة ، فكل ظني انها لن تموت !

ولا ادري الى الان رغم مضي مدة طويلة على التقائنا بحسين ، اذا كانت السمكة قد ماتت حقا ! ذلك ان اتساع الحوض على السمكة ، بشير باتساع الاحواض جميعا !!

حمص — **علي بدور**

شارع حسن الأكبر

كنا نأتيه
ليلا ، يا حسن لياليه !
الشارع في الليل مليء بالعشاق
وخطى حيرى وعيون ظمآنه
وقلوب جوعى ، وظلال وسنانه
الفرحة فيه
واللوعة فيه
يا حسن لياليه !

✶

كانت تلبس لي فستانا اخضر
ولاني اهواها – كانت تتعطر
فالشارع من طيب شذاها عنبر
وعيون تحسدني ، وقلوب تكسر
كم كانت تبكي في الليل، وتهذي وتثرثر
« سأموت غدا بعد وداعك
وسأحرم من ومض شعاعك
الشارع من دونك صحراء
والدنيا من غير هواك خواء .
لو اني املك تغيير غدي
لو ان الليل يطول الى الابد
لمددت الشارع حتى ابواب الجنــه
ولقلت وداعا يا كمدي .. »

✶

الحب كبير يا أنس مسائي
هو اكبر من ضحكي وبكائي
هو اكبر – حتى – من حســن الاكبر
فهلمي نهجر شارعنا المظلم
وتعالى نغترف النور من الميدان
ونسير مع الناس
ونذوب نفسينا في اعذب كاس

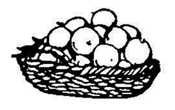
✶

كنا نأتيه سويا
واليوم اعود اليه وحيدا
ما زال الشارع مفتوح الاحضان
للطير الشارد والقلب الظمآن
مسيت بخير يا حسن الاكبر
صدقني .. لن اسأل عن قمر اخضر
وعبير كان يعطر اركانك
لن اشكو لبيوتك ارزاء زماني
لن اسكب فوق رصيفك احزاني
ففؤادي يعلم ان النور قريب
وعيوني ما زالت تحلم بالميدان
وحبيبي سوف الاقيه في كل حبيب .

✶

فمتى يا شارع اهجر ظلماتك
ومتى سأغادر وكناتك
لاجرب اجنحتي في الافق الرحب
ولانشيء مملكتي في كل فؤاد
ما بالك تحلم بالماضي ؟
ما بالك تبتز دموعي ؟
اطردني من ارضك ، شقق قدمي
أصرخ يا شارع غضبا في
اغلق من دوني ابوابك
ونوافذك المفتوحة ، اغلقها دوني
او فاحذر يوما ادخلك قويا فيه ،
وهنالك امسح من ارضك خطوى
وساطفيء مصباحا شاهدني ابكي ،
ولسوف امر على « الشرفة » عاصفة لا تلوي
وسأبصق من أقدس محراب ،
محرابك يا امسا ادبر ،
يا اصغر من ان تذكر .

القاهرة رشدي صادق



(✶) اسم لاحد شوارع القاهرة



عندما يسألني سائل « لماذا تعبر بالشعر عما تريد ان تقوله ؟ » اجيبه على الفور : « لان هذا ايسر لي وأسهل . »

ويبدو انه كان علي ان اثبت ذلك بان اكتب مقالي هـذا مستخدما الشعر فسنرى انه يتفوق على النثر في مجـال الايحاءات والتداعي .

انني اقرض الشعر لاني مضطر الى الاستسلام لطوفان من الفرح المحموم ، فرح يقبع بين الحروف المتحركـة ، هناك حيث يربض سر اللغة الاكبر . هذه الحروف المتحركة هي النهر او البحر الذي يشق طريقه بين الحروف الساكنة، الصلبة الضخمة. هذه التجربة هي في الواقع تجربة موسيقية.

واقرض الشعر لانني لا اعرف كم صيفا تبقى لي فـي حياتي هذه التي احياها . واريد ان اقول ان هذا الخاطـر تردد علينا بصورة اكثر عنفا واشد الحاحا حين كانـت اعمارنا تتأرجح بين العشرين والثلاثين .

ان الشعر اكثر حياة من النثر .

واقرض الشعر لان الشعر يحقق المتعة لروح الضعـف الكامنة فينا ، بأشكالها ومراتبها المختلفة . والشعر يقود العقل من الجوهر المنطقي الى ذلك الجوهر الكهربائي الذي يتوهج في اكثر ساعات حياتنا غموضا ، وهو يتوهج بصور جد غريبة ، وفي اولى لحظات تبلور الشخصية .

كل هذه الحالات عرفها الانسان ، غير انه لم يستطع التعبير عنها ، الى ان جاء الشعر فحدد معالمها وصاغها في اشكـال رائعـة .

واقرض الشعر لان النثر يجعلك كسولا ، اما الشعـر فيكسبك حيوية وذكاء .

والشعر يقفز بك الى الغاية التي ما بعدها غاية ، مـع تركيز كبير مداره جوهر الاشياء . والشعر يعبر عن غاية الانسان ، وهدفه ، ورسالته . اما النثر فيخبرنا بما عرفناه سلفا . وهو يخبرنا في خطوات متثاقلة ، وبصورة فظة .

الشعر يوحي لك بوجود لانهائية لم تعرفها من قبل ، وبوجود شيء افضل ، شيء لم يكن موجودا من قبل .

ولو قد امعنت التفكير ـ بينما العمر يمضي بك ـ لـو قد امعنت التفكير في بيت شعري بسيط « ظاهريا فقط » مثـل :

ـ « حي
كـوردة حمـراء
كوردة حمـراء . »

لاستفدت اكثر مما تستفيد من قراءة الف صحيفـة من النثر الذي يشرح لك موضوعا من الموضوعات . بالله عليك قل لي : مالذي ستشرحه هذه الصفحات الالف ؟

ان ذلك التشبيه ، البسيط ، للحب بالوردة الحمـراء يخلف وراءه سحرا كبيرا . وينقلك هذا السحر الى روعة بيت هاملت :

ـ « وجود او لا وجود ، تلكم هي المشكلة . »

وسرعان مايسلمك هـذا الى :

ـ « التألق ينساب ، هابطا مـن الهواء . »

انك قد تنتقل بعد هذا الى اي حقيقة شعرية عميقة تحبها وتعشقهـا .

في هذه الابيات ، وغيرها ، يبلغ عنصر التركيز ذروته ، الى حد انها تتشعب في ذهنك وتورق فروعها مثلما تورق الشجرة . ان الشعر يجعلك تعشق الحياة . واذا بـك تصبح جزءا من شيء ابعد منك ، واكبر . وهكذا تندمـج في علاقات وروابط خالدة ، ابدية وقد يغمرك في هـذه الحالة شعور ديني عذب ، ذلك لانك لو فكرت ـ ولو ساعة من زمان ـ في احتمال وجود شيء غامض ذي طبيعـة دينية ، فانك ستشعر وكأنك قد ولدت من جديد ...

ثم ينتقل الشعر من البيت الموزون المقفى ليأخذ طريقه الى الشعر الاكبر ، شعر الحياة ، شعر كل ساعة ، وكل فعل وكل حركة . وتصبح انت صنوا للذي لايتغير . تستطيع ان تحقق هذا بصورة اكثر مهارة وابعد عن الافتعال اذا قرات الشعر لا النثر . ان الشاعر الذي يكتب لك قـد يتعرض لمتاعب مؤلمة . اما انت ، ايها القارىء ، فقد تحظى بمتعة بعيدة كل البعد عن الالم وعن المتاعب .

ولكن بالرغم من كل ماقلت في السطور السابقة ، اعتبر كل محاولة للاجابة على السؤال « لماذا تكتب شعرا لانثرا » انتهاكا لحرمة الدوافع والحوافز التي تدفع الشاعر الـى الكتابة وهو لايدري بها ، ولا يعرف كنهها ..

ان النثر هو الزوج ، والشعر : الزوجة . فاذا فصمنا عرى الروابط التي تربط بينهما ، عادا واجتمعا من جديد. ان النثر يعتمد ـ بغريزته ـ على الشعر ، والشعر يعتمد ـ بغريزته ـ على النثر . وهما يعترفان بهذا الاعتمـاد المتبادل .

الى سواد عينين ثانية

صبها ، صبها يحب السكارى ، خمرة العين مثل خمر الدوالي
صبها ياسواد ، يانكهة الاصال ، يالمح رونق الاصـــال
صبها يبترد لهاث مسافاتي، ويطفيء جدا الظنون اشتعالي
انا ملقي على اراجيح وهمي ، اتلوى على زنود خيالـي
لا ابالي بكى بعيني جوع الكأس ، ام ضج كبرياء سؤالي.
طيب ياطيب ! ياغوى كل غوياء ، وسر ادعاء كـل دلال
ما احتفالي بأن اعيش ،ولكني بهذا الدجى الرعوش احتفالي
فمتى ادعي بأنك ملكي وبأني حرقت فيـك ضـلالي ؟

***

انا يالون ، يا اخضلال الاماسي ، وفوح العبير بين التلال
انا ياماس ، ياتوهج أحلامي على درب غربتي وارتحالي
لي اللظى المر، والتشوق ، والغربة ياليل ، لي وعود النوال
لي يا مرفأ الصبابات رحلات ، تناهى في ليلهـن مـآلي
لي رفيف ابترادة بين شطيك ، واهلا من بعدها بالزوال

***

طال ياموسم الغلال انتظاري ، ورمى اليأس ظله في سلالي
امن الال انت يالون عينيها فأغفو علـى حقـــول الال
صبها ، صبها يحب النشاوى خمرة العين مثل خمر الدوالي
صبها يا سواد جنت خوابيَّ ، ومدت عيونهـا آمـالي
صبها يدعيك آهي ويدعوك حنيني ، ويشتهيك امتثالـي
حملته اليك في فورة الصبوة ، رنوات ماسك المتلالي
فأفض من ضيائك السمح، يشرق الق اللون في اصفرار الكلال

***

صبها ياسواد يانكهة الله ، واهـلا من بعدها بالزوال .

دمشق

خليل الخوري

من الادباء العرب

ومع ذلك فلكل طابعه الذي يميزه ، ولكل الشخصية التي ينفرد بها .

حسنا .. انني اقول — بالشعر — ما اريد ان اعبر عنه لان هذا الاجراء امر طبيعي بالنسبة لي ، امر لاتكلف فيه ولا افتعال . ان اعظم رواية ، في اعظم نثر ، قد تحاول ان تقول في صفحاتها العديدة ماقاله الشاعر الانجليزي وليام بليك في بيت واحـد : « أوه
يا أيتها الوردة
انـك لمريضـة ! »

والشعر يتحداني اكثر مما يتحداني النثر ، ويتطلب مني مجهودا اكثر واعنف . ذلك لان الشعر قائم علـى التركيز،وعلى الكمال والصفاء، ومن ثم يصبح أحتمال الوقوع في الاخطاء اكثر في الشعر منه في النثر — ذلك النثـر الذي يعتمد على الاسهاب ، لا التركيز ، فـي التفسيـر والشرح والحكايـة ..

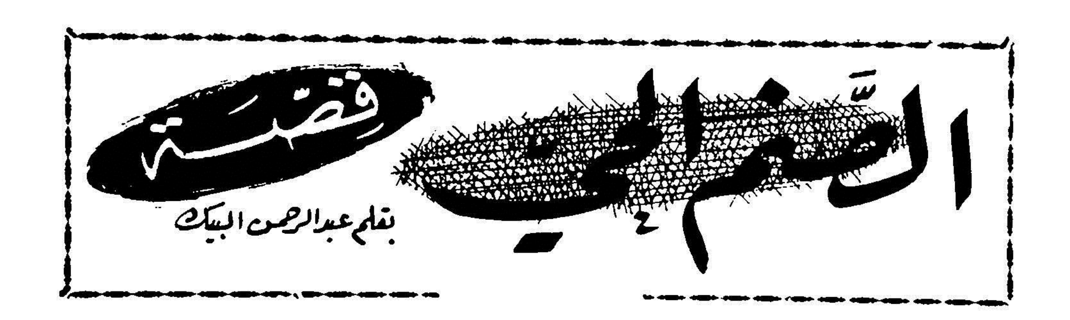
اننا نقرأ النثر لنعرف . ونقرأ الشعر لنكون اقويـاء . ونعني بالقوة هنا : عمق النظرة ، ولا نعني بها القوة المادية « بالرغم من ان الشعر قد يحققها . »

ان الشاعر يسلس قياده للشعر — ذلك الشكل البدائي المسحور — لان الشعر قوى ، لايكترث للمنفعة وعـدم المنفعة ، ولان الشعر يتحدى الزمن ، ويخاطب الـرب ويستحثه ويولي وجهته شطره .

وعلينا الا نصل في الشعر الجيد الى تفسير واحد ، نهائي ... فالشعر الجيد يزودنا بايحاءات تدخل علينـا السرور والمتعة والرضا والاقتناع ، غير انها ايحـاءات لاتموت على مذبح العقل ..

والمرء عاجز عن استكناه كل اسرار الشعر ، ذلك الشعر الذي يستحث الروح ويرضيها . غير أن الروح نفسهـا سـر يحاول العقل بمنطقه ان يحطمه دائما ..

ترجمة محمد عبدالله الشفقي



مهداة الى الصديق : علي بدور

في فجر احد الايام ، شاهد سكان المدينة مخلوقا عجيبا منتصبا في الساحة الكبرى وهو يبتسم . وكانت تبدو على وجهه سمات الرحمة وينبعث من عينيه بريق الشفقة والحب والاخلاص .

كان ذلك المخلوق عملاقا ، يشبه عفريتا من العفاريت انطلق من مكان كان فيه حبيسا ، وقد امتد راسه فوق الابنية الضخمة ، وملأ جسده الساحة الكبرى ، وامتدت ساقاه بعيدا حتى تجاوزتا اعمدة الهاتف والكهرباء.

وسرعان ما انتشر الذعر بين السكان ، فطفقوا يهربون ويدبرون ، فهم لا يكادون يرفعون ابصارهم لمشاهدة وجه ذلك المخلوق حتى يرتدوا بأعينهم وهم يرتجفون فرقا . الا انهم سرعان ما طرحوا الخوف جانبا والتفوا حول ساقي العملاق ، حينما جذبتهم ابتساماته الرحيمة ومخايل وجهه الانسانية .

تبلغ الزعيم ، الذي كان يحكم المدينة بالجور والتعسف ، نبأ هذا المخلوق ، فارغى وازبد وجزع ان يتحالف هذا المخلوق مع الشعب ، فقرر ان يقف بنفسه على سر هذا الصنم الضخم ليبدأ بمجابهته ، وليبادر الى درء خطره .

فلما مضى اليه ، جزع من ضخامة جسمه ، وفزع من قوة ذراعيه المفتولتين وفسحة صدره الصلبة ، ولكنه ، ما لبث حتى اخفى خوفه هذا ثم راح يرمقه بنظرات صارمة يريد ان يؤثر فيه ويطبع في قلبه طابع الخوف والمهابة . ولكن الصنم قابل هذا التحدي بزمجرة غير مفهومة دوت على اثرها الارجاء ، فوقع الزعيم تحت ضغط الاهتزازات الصوتية وارتجفت القلوب ، وظن الناس ان عاصفة شديدة اخذت تصدع الجدران وتقتلع الجذور والاشجار .

ولكن بعد فترة سكن كل شيء . ونهض الزعيم من مكانه واخذ ينفض الغبار عن ثيابه ، ولكن نظرة حانت منه فشاهد الناس يحفون به وينظرون اليه في شماتة فما كان منه الا وانفجر صائحا : « انه صنيعكم ... اتظنون انني لا اعرف ذلك ايها الاغبياء .. انه عميلكم .. ان هذا لن يجديكم نفعا . انتظروا قليلا وستشاهدون ما سيحل بهذا الصنم».

ولما امسك عن زجر الناس ، انصرف الى الصنم فاخذ يتلمس جلده فيجده صلبا كالصخر ، ثم يفحص شعيرات قدميه فيجدها متينة كالخيال . ولما حار في تحليل هذا الامر امر نفسه بالانصراف فانصرف بواسطة سيارة مصفحة .

وجد الناس في تلك الفترة مزيدا من الفرص ، فقاموا يرقصون ويهللون فرحين حول ساقي العملاق . وكانت المدينة قد اغلقت متاجرها وحوانيتها حتى وكانها بدت في عطلة رسمية . وبدأ الناس ينثالون من كل حدب وصوب الى الساحة الكبرى حتى اجتمع فيها عدد كبير .

وراحوا يقضون امتع الاوقات الى جانب ذلك الصنم الذي سحرهم بابتسامته الرقيقة ومخايله الانسانية العميقة التأثير .

اما في وزارة الدفاع ، فقد دعا الزعيم الى اجتماع طارىء . فتوافد الوزراء واخذوا يصنعون الى الخطط التي رسمها الزعيم في مخيلته للقضاء على هذا الصنم .

من اجل ذلك وجه الدعوة الى جميع علماء الكيمياء والفيزياء والفلك والكهرباء والطب والتشريح ، فلما اجتمعوا القى فيهم كلمة وطنية حماسية ، وحثهم على كشف سر هذا المخلوق العجيب ووعدهم بمكافات سريعة رفيعة .

واكب ذلك المبلغ من العلماء على البحث ، بعد ان اقاموا مخابرهم في الساحة الكبرى ونصبوا بجانبها الاجهزة الضخمة والمجاهر العظيمة. ولكن دراسة المخابر ونتائج المعادلات الجبرية والهندسية لم تؤت ثمارها كما هو في حال تطبيقها على الامور الطبيعية .

وغادر اهل العلم الساحة الكبرى خاسرين ، وعرف الزعيم مقدار الخسارة المعنوية التي لحقت بسمعته . ففكر ان افضل طريقة للسيطرة على هذا المخلوق انما يكون باستمالته ومفاضته عله ينجح فيما فشل به غيره .

اخذ الزعيم يخاطب الصنم بواسطة مكبرات الصوت فسأله قائلا :

ـ ايها المخلوق الغريب .. ايها الصنم الحي !! من اي بلد انت ؟

وهنا خرج الصنم عن صمته لاول مرة منذ حل في المدينة . وقال بصوت يشبه هزيم الرعد :

ـ انني ايها الزعيم المحترم من مدينتكم

فقال له الزعيم وهو يشعر بالزهو لهذا الانتصار الذي احرزه من جراء حمل الصنم على الكلام .

ـ حسنا ايها الصنم الحي ، ان كنت حقا من مدينتنا ، فالى اي حزب تنتمي ؟

وضحك الصنم العملاق ، فزمجر الفضاء ، وظن الناس الذين كانوا يستمعون الى هذه المحادثة ، بان عاصفة شديدة لا شك دهمتهم . ولكن الزعيم ما لبث ان اردف :

ـ ما الذي اضحكك ايها الصنم الحي .. اتسخر من نظام الاحزاب ؟

ـ انني اسخر من نظام يعترف بحرية الاحزاب ثم يضع نفسه فوق تلك الحرية .

وشعر الزعيم بارتباك شديد ، وقال للصنم بصوت خفيض يريد به الا يبلغ مسامع الناس :

ـ التزم الصمت ارجوك .. هل تريد فضيحتي ؟.

ـ بل اريد نشر الحقيقة .

ـ واية حقيقة هذه التي تزعم انها حقيقة ، الا تعلم انني اريد ان

استعمل الحيلة في حكم الرعية لاقدم الثمرة المرجوة لهؤلاء الناس الذين حاروا في فهم السلام واختلفوا في طريقة نشره على المجتمع ، انني اريد ان اظهر على الناس بطرق جديدة .

ـ هذا كذب وبهتان .. الا تدري بان الشعور في هذا العصر قد تيقظ على ان لاسلطان لاحد على احد .

ـ اذن فكيف يكون الحكم دون ان يتسم بفرض السلطة ؟

ـ يكون بالرشد والحلم وعدم الجور ، فاللين يذهب بالتعسف والرفق يزيل حب السيطرة ، وعدم الاستهتار باجماع الرعية على مبدأ يهون من نقمة العامة على الحاكم .

وسكت الزعيم قليلا ثم اردف في خبث :

ـ انني اعجبت جدا بآرائك ايها الصنم المقدس . ولقد حسبت في البدء انك مجرد صنم من الحجر .. صنعك اعدائي لمناوأتي ، واذا بك صنم حي تتمثل فيك مشاعر مثالية .. فهلا قبلت عملا برتبة مستشار عندي ؟.

ـ مستشار عندك ؟...

ـ اجل .. وسأغدق عليك المال الوفير والسعادة والرفاه ، وسأحيطك بكل ماتحلم به عين ويتمناه قلب ، فانت على مايبدو اوسع مني ثقافة وادق ملاحظة وابعد نظرا .

ـ يصعب علي ان اعمل لديك مستشارا .

ـ وما هو وجه هذه الصعوبة ؟.

ـ انك تتخذ مكاتبك في غرف تشبه الجحور ، بينما انا لااستطيع العمل والتفكير الا في مثل هذا الجو النقي النظيف ، فاي بناء يمكن ان يجمعني معك ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فانا استعمل اقلاما ضخمة في التوقيع وفي كتابة الرسائل ليست اقل حجما من اية شجرة من هذه الاشجار ، كما ان الورق عندي جسيم ، والدفاتر لدي اطول من حجمك بمرات ، ويؤسفني ان اقول لك بان محفظة اوراقي تتسع لك ولمعاونيك ولحفنة اخرى من مرافقيك .. لهذا ترى ان كل شيء بيني وبينك مختلف .

ـ هذا صحيح .. ولكني آمر من اجلك باشادة بناء يناطح السحاب ويعانق الرياح ، كما آمر من اجلك بصنع اقلام بحجم الاشجار ودفاتر بحجم الابنية .. وفراش بطول الشارع ومقاعد بحجم الحافلات ... اجل .. سابني لك قصرا فخما ، وسأجعله قبلة انظار العالم ، وسأحيطك بكل اسباب السعادة .

ـ انني اخاف هذه السعادة ، فما من باب عندكم الا وله قفل ومزلاج ، وانا اخاف ان تمنحني حرية صغيرة ، بحجم القصر الذي ستبنيه ، ثم توصد باب ذلك القصر دوني ، فتحرمني الحرية الكبيرة ، وعند ذلك اغدو لديك كعصفور بين قضبان القفص لايمتع جناحيه الا بالحرية الصغيرة.

ـ يالحرصك ايها العنيد !.. اذن اجعلك قائدا عاما للجيش والقوات المسلحة .

ـ لماذا ؟.. أمن اجل ان تامرني ان اطيح بالاحرار وافتك بأعناق الابرياء ؟.. لا .. .لا ! انني لااوافق .

ـ انني اقدم اليك الذهب والفضة .. ارجوك .

ـ انني لااحتاج اليها في عالمي ..

ـ اذن ماذا تروم من هذه المدينة . هيا ارحل عنها ارجوك ..

ـ أتسال ماذا اروم من هذه المدينة .. حسنا ، فما دمت تريد ان تعرف ، فلا بأس في ان اخبرك بان رائحة الدماء التي سفكت قد جذبتني .. انني مخلوق لاامتلك الا حاستين ، حاسة السمع وحاسة الشم فالاولى تجذبني نحو السجون العميقة ، فانقاد الى صيحات المعذبين وصرخات المغلولين ، والثانية تجذبني نحو المجازر ، فانقاد الى البقع الحمراء المسفوحة واقف بجانب الارواح الصاعدة ، واخفف سلوى المتكولين ، ثم اعرج على المنكوبين الاصحاء واسكب في انوفهم رائحة الحرية واسعر في صدورهم لهب الانتقام .. ثم اغيب ..

وظهرت علائم الغضب على وجه الزعيم فقال بصوت تخنقه الرجفة :

ـ اذن فانت متآمر لا مباشر ..بخ . بخ

ظننتك هبة من السماء سعت الي لتساعدني في تصريف امور المدينة واذا بك ناكر متنكر

ـ هدىء روعك ايها الزعيم ..

ـ دع روعي يستعر .. واستعد لمنازلتي .. فان كنت شيئا اقوى من قوتي فاسحقني .. والا .. فسأجعل منك ايها الطفل اضحوكة العالم .. سأصنع منجنيقا لشنقك .. وسأعلقك من اقدامك بشاحنات « ديامونت » واجرك في السهول والمستنقعات ، ثم سأقطع جسدك اربا اربا ، وابعث بلحمك الى الوحوش لتقتات من جبروتك ولتتغذى باعتدادك ايها الصنديد . ايها الصنم .. ايها الخرافة .. الا تدري اننا في قرن اندحرت فيه هذه الخزعبلات ، فلم يعد يظهر شيطان مثلك .. او جني او قوى غيبية لا سلطان لاحد عليها .. اننا الان في عصر البارود ايها الغبي ..

وانفجر الصنم ضاحكا ، فدوى ضحكه كأنه العاصفة وارتمى الزعيم مرة ثانية على الارض ، ولكنه زحف متراجعا .. بعد ان تحطم بيده ناقل الصوت . ثم هرب بسيارته المصفحة وهو فاقد الوعي .

احس الشعب بخطورة الحالة ، ورأى انه من المفيد ان يدافع جميع ابنائه عن هذا الصنم الذي لم ينزل الاذى باحد ، خاصة وان محادثته مع الزعيم قد كشفت امورا غامضة عن الرعية .. فأيقنوا بان زعيمهم سيء النية وانه اذا مافضى على هذا الصنم فمعنى ذلك انه سينتصر بسهولة على كل المعارضين والمطالبين بالحرية . فما عتم الشعب حتى قرر حمل السلاح والدفاع عن الصنم الحي .

وفي منتصف الليل ، امر الزعيم باخلاء الساحة الكبرى من الناس . ولكن احدا ما لم ينفذ امره . عند ذلك نشبت معركة حامية تراجع على اثرها الشعب ولجأ الى ضواحي المدينة لتنظيم صفوفه واعادة الكرة .

ولما تبلغ الزعيم نبأ التمرد والمقاومة ، استشاط غضبا وعرف مدى الصلة التي تربط الصنم مع رعيته .. فأسرع باصدار الاوامر الى الكتائب المسلحة باطلاق النار . فلما فعلت ازداد دهش الزعيم اذ علم بان الرصاص لم ينفذ بالصنم .

وسرعان مااستبدل الزعيم هذه الكتائب بكتائب اخرى ، وامرها برمي الصنم بالقنابل اليدوية ففعل افراد الكتائب ماامروا به ، ولكن شظايا القنابل تطايرت بين ساقي العملاق وكأنها هباب ورق محروق تداعبه موجات الهواء .

شاهد علماء التشريح والانسجة هذه المحاولات ، فاشتد تعجبهم من صلابة انسجة الصنم ، واقترحوا ان تفجر القنابل في جهازه الهضمي ، لاحتمال ضعف الانسجة هناك . وتطوع احد الجنود للقيام بالمهمة .فتسلق جسد العملاق مستعينا بشعيرات جلده حتى بلغ فمه ، فسار على شفته العليا ثم قذف القنبلة في الفم . وانفجرت القنبلة في المعدة ، ولكنها لم تقض عليه ، بل ساعدت بقايا الطعام على الهضم .

ازداد حنق الزعيم وغضبه حينما عرف ان العملاق لم يمت ، ودبت في اوصاله مشاعر الخوف فيما اذا خاب في القضاء عليه . من اجل ذلك خابر الاركان وامر المدفعية الثقيلة بضرب الصنم .

توجهت المدفعية الثقيلة نحو الساحة الكبرى في سرعة زائدة . وعند الجانب الشرقي وقفت تصب نيرانها على العملاق ، ولكن العملاق ، شانه في المحاولات السابقة ، تجاهل مايدور حوله . الا انه في الجانب الاخر من الساحة نشبت حرائق هددت المدينة بالزوال . فانصرفت فرق الاطفاء الى محاصرة النيران ، ولكن النيران التهمت وزارة الدفاع بالذات وكأنها قطعة ورق تعرضت الى لسن اللهيب .

وفي صبيحة اليوم التالي ، جاءت الزعيم مخابرة لاسلكية.من وزير الدفاع ، يدعوه الى منزله لوضع خطة جديدة . وذهب الزعيم الى منزل وزير الدفاع على جناح السرعة . وهناك قررا ان تقوم اسلحة المدرعات بالهجوم على ساقي الصنم ثم يلي ذلك انقضاض طائرات الفانبيرا من الجو لقصف ظهره .

واعجبت الخطة الزعيم ، فتحركت الاليات رامية تحطيم ساقي العملاق ولكن العملاق لم يتجاهل هذه المرة مايدور حوله . فلما سمع هدير الدبابات داس احداها بقدمه فسحقها وجعلها في مثل دبابة طفل مصنوعة من التنك . عندئذ ارتدت باقي الدبابات على اعقابها مذعورة .. واختفت ..

وحان الوقت لقصف الطائرات ، فحامت حول الصنم في الجو ، ولكنها لم ترهبه ، فقد بدت له وكأنها مجموعة ذباب لاقيمة لها . ورأى ان افضل طريقة لصدها هو بعث الاضطراب في الجو الهوائي . فاخذ ينفخ في الهواء حتى اضطربت التيارات الهوائية وحدثت الارتفاعات والانخفاضات ، واخذت الطائرات تتعثر في خطوط سيرها . واعلن الربابنة ان جوا غريبا يحول دون الوصول الى الصنم ، وان الطائرات تكاد تلقى مصرعها نتيجة للعواصف الشديدة . عندئذ امر قائد السرب الطائرات بالعودة ، ففعلت دون مكابرة .

اما في الليلة التي تلت هذه المحاولة الجريئة . فقد سكن كل شيء خصوصا بعد ان افلس الزعيم والجيش من كل الوسائل .

وحتى منتصف تلك الليلة ، لم يستطع الوزراء ولا القواد ولا الامناء العامون ان يجدوا مخرجا . واخيرا اقترب رئيس الاركان باستخدام القنابل الذرية .

وافق الزعيم على هذه الفكرة ، كآخر اجراء يمكن ان يتخذه بحق ذلك العفريت الذي جاء ليبشر الشعب ضده . فخابر مندوب دولة صديقة وطلب مساعدتها في القضاء على هذا العدو.وبسط الامر للمندوب وامره بايفاد الخبراء لتفجير قنبلة ذرية بين ساقي العملاق . واجابه مندوب الدولة الصديقة الى طلبه بالموافقة وشربوا وقتئذ نخب الصداقة.

في الوقت الذي عرف فيه الشعب بالمؤامرة الكبرى ضد الصنم الحي كانت الاستعدادات قد اتخذت لضرب الصنم ، فهب الناس ودخلوا المدينة من جميع جهاتها وحاصروا قوات الجيش واحتدمت المعركة .

واستمر الظلام .. واستمر خلاله النضال الى ان تسللت خيوط الفجر ، فجاء النور ، واخذ يطارد جحافل الظلام التي بدت وكأنها بقايا لصوص تتوارى .

ولما اشرقت الشمس ، لم يجد الناس اثرا للصنم الحي ، بل شاهدوا مكانه شجرة باسقة وارفة امتدت اغصانها حتى ظللت الساحة الكبرى ، وارتفع ساقها حتى تجاوز اعمدة الهاتف والكهرباء . اما قمتها فقد كانت تتجاوز اعلى الابنية .. انها شجرة الحرية .

عبد الرحمن البيك
حلب

أزمة البطل المعاصر

تتمة المنشور على الصفحة ٣٢

الاستاذ ، ضد الجاسوس..ضدالالهة . .انه سيفير العالم .. انه حر .. حر .! ويظل كل شيء في المكان ،لضيق هامدا جاثما .. ويغفو الثوري المراهق في هدأة كالاطفال .

وتتكرر الليالي . و.ما النهار فملك للشمس الساطعة الصلدة التي تكشف كل شيء ، وفي القمر تلتف المدينة على ذاتها ، المدينة القديمة الترابية ، في دهاليز حلزونية . والارض غبار وحرارة،وتراب وروث دواب. وكائنات ، مختلطة الازياء ، تدب في كل الاتجاهات .وتبحث العينان ، عن لمحة لحم طري تنسرق من تحت الجلابيب السود .. غير ان صراخ الباعة على كل البضائع ، بتلك الاصوات الغليظة المبحوحة ، والكلمات البلدية السقيمة .. واجهزة المذياع ، الاف من الحناجر الحديدية ، تنقل الزعيق والنعيق ، وايقاع الموت والنوم .. وسل الفل ينسرب اليه مع كل نفس ، يغبه من فضاء العالم الغباري المزدحم حوله ، وهو نقطة شاردة فيه ، تسب الناس ، تطلب المرأة ، تحلم بالبطولة ، تشتم الاستعمار والخونة ، وتتحسس الجيب الفارغة ، تحتقر الصداقة .. وتبحث عن المجهول ، عن كل شيء غير موجود ههنا ، غير لامع وقذر وغباري وسطحي.

هكذا تنبثق ثورية المراهقة كقاعدة جذرية لكل ثورية اخرى في شبابنا العربي . وهي قاعدة ، ليس لديها مشروع ما ، سوى انها الرفض والتقزز والاحتقار . والاتجاه الايجابي الوحيد فيه ، هو طموح كبير نحو تغيير العالم ، نحو محو مخطط وايجاد مخطط اخر . اما ما هو هذا المخطط ، فانه لا يعنيه في شيء . وهو ذاته ليس سوىامكانية شاملة مجردة ، لا يمكن تحديدها قبل ان تصطدم بتشيؤات السديمية ، وتتفاعل معها ضمن تجربة واقعية مليئة بعنصر المفاجأة والاضطراب .

وهذه الامكانية هي التي تلقي وجوده الى افق المستقبل . ان الثوري المراهق لايشحن وراءه ،ي ماض خاص به . وانما هو يشحن ماضي السديمية كلها ، ماض يتلبس دون ارادته . فالزمان هكذا محل مرهق ، انه الازل الاسود كله الذي عاشته امه بدون حرية . والحاضر ، ماهو الا لحظة هاربة ، ولكنها كذلك مثقلة بكل ابعاد الضجر والمقاومة الوحشية. فلم يبق اذن الا ان يرتمي الثوري الى المستقبل ، وهو مجرد افق اشبه بالسراب ، شيء لم يوجد بعد . وهو يبدو لصعوبة بلوغه ، ولانه لحظات تتجاوز ذاتها باستمرار ، يبدو كأنه ابد مطلق . فالثوري هكذا معلق بين عدمين لانهاية لهما ، عدم الماضي ، وعدم المستقبل . وهو نفسه ليس شيئا على الاطلاق . انه لم يتحدد ضمن اي اطار بعد ، وان كان مصنفا من قبل السديمية ، كشاب عابث يجب مراقبته واضطهاده . انه بالنسبة لامكانيته المجردة الشاملة ، ليس شيئا بعد على الاطلاق . انه هذه الارادة التي تنزع به نحو التكون . ولكنه تكون لا ملامح له ، لانه لم يتحقق بعد . وكلما تحقق جزء منه ، نزع هذا الجزء نحو متابعة التكون ، كأنه لم يكن هو شيئا .

وهو في ارتباطه بالسديمة ، يحدد نفسه مبدئيا ضمن علاقة الضدية. والضدية ، ليست تقييما اخلاقيا او وجوديا . انها محاولة لتأكيد طرف ضد اخر . والطرف هنا هو وعي المراهق الثوري . وهو كما تبين لنا عندما يؤكد ذاته ، ينفي السديمية ، باعتبارها هنا ،لكل اللاشخصي ، ويثبتها كشيء مشخص له ملامحه ، كيما يستطيع مناضلته . وكل وجه تبرز به هذه السديمية انما يحمل معه سواد العالم وغموضه كله . وهو يقوم تلقاء وعي الثوري كسلطة لا حد لجبروتها .

واول ماتتشخص له هذه السلطة ، في عائلته ، كما رأينا . وتظهر العائلة للثوري ، مجرد علاقات غريزية ، مغلفة بهالة من القدسية . وهي اقسى ، مايبعث في نفسه ، على الضجر . ،نها تكرار في السلوك ، والحركة والفعل والتأثير عليه . وهي حضور مفروض عليه ، دائم وصارخ . حضور يجرد كل كائن من سريته ، ويقشع من حوله هالته الذاتية . ويتبادل افراد العائلة بينهم كل مايحرمونه على الاخرين . ويخرجون بمباذلهم واقذارهم وتفاهتهم ، تلقاء بعضهم بعضا . ويحس المراهق بمدى التناقض بين حقيقة السلوك الانساني ، عندما يتحرر من عين المراقبة في البيت .. فليس هو الا سخافة وتكرارا وابتذالا وبين اصطناع القيم الرزينة في الخارج .. تحت عيون لا نهاية لها ، من المراقبة والموازنة والنقد .

وفي ،لواقع ان مرحلة المراهقة هي مرحلة ثورية بالنسبة لاي انسان وهي لاتكتفي بان تمارس هذه الفعالية ضمن جدران البيت وافراده المعدودين ، بل تتعداها الى الشارع ، والمدرسة والمجتمع .. حتى تبلغ العالم الميتافيزيقي بكل قيمه . من شك ويقين ، واحتقار وتهيب ، وطموح عاطفي او فيض حلمي خيالي من الامل والحب الغريزي .

بيد ان هذه الثورية لاترجع الى علة حيوية اكتسبها الطفل من المراهقة وهي ظهور الوظيفة الجنسية وما يتبعها من انفعالات وهيجانات نفسية . انها ثورية وجودية قبل كل شيء ، تشمل الثورية الجنسية وغيرها ، ولكنها لاتقف عند حدودها فقط . فالمراهق ، يعاني ازمة خلق وجوده حسب تصوره الخاص . وهو في حقيقته كائن غير موجود بنظره الشخصي . واذا كان يملك ثمة وجودا ، فان مسؤوليته تقع على عاتق السديمية لانها هي التي اكسبته اياه من خارج في مرحلة لم يكن يملك فيها اية مقاومة او وعي لامكانياته ، في الطفولة .

فهو يثور ضد هذا الوجود المزيف ، فيه وفيمن حوله . وهو يثور لانه لم يوجد بعد وجوده الخاص . فما زال مجرد امكانية مجردة ،تنزع الى التحقق ضمن امكانيات مشخصة لها ملامحها ومسؤوليتها . وهذا النزوع ، هو في حد ذاته ، حركة الثورية الاساسية عند المراهق لان كل اتجاه نحو التحقق انما يملك قدرةخالقة . والخلق لايعني الاستمرار في اتجاه الشيء الموجود السابق . ومن هنا كان لابد من مقاومة هذا الاستمرار وتحطيم اطاره . وادخال الشكل الجديد ، ومضمونه المبدع . فالمراهق ينطوي على وجود في المستقبل ، كله امكانيات لايبررها الان الا وجوده كامكانية مجردة مطلقة . وهذه الامكانية هي الحرية قبل انتكتشف اهدافها ، وتمارس اختيارها ، وتلزم حاجتها باية مسؤولية .

ان استشراف المستقبل ، والتامل فيه ، هو الذي يكسب وجود المراهق شفوفا عاطفيا ، وشاعرية وميلا صوفيا للعزلة . هناك يستطيع انيتامل حريته وهي بمعزل عن كل مراقبة او عقبة ، ومخلوقات هذه الحرية التي

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون ٢٢٩٢١

ستتحرك في فلك مستقبله يوما ما . ويرى علماء النفس ان المراهق يعاني نقصا كبيرا في فهم الواقع ، وبالتالي في التلاؤم مع مقتضياته . وهم بالطبع لايقصدون واقعا اخر غير السديمية . بينما كان المراهق في حقيقته انفصالا عن السديمية ، وثورة على معطياتها المختلفة ، وان عجز عن التلاؤم مع واقعها ، فهو لانه يرفض هذا الواقع مبدئيا . انه لايريده ان يكون نسخة عن وجود ليس من صنعه ، وان مازال لايدري ماذا يريد ان يكون هو حقا ، فيوجوده الخاص ذاك .

والامكانية المجردة التي ينطوي عليها وجوده الموقت هذا ، يصاحبها ايقاع عاطفي جمالي . ولذلك كنت المراة رمزا لحريته المطلقة التي يستشرف تحقيقها في المستقبل . فالمراة ، كجنس مباشر ، ابعد ماتكون عن تصور المراهق . ولكنها كرمز فانها تنطوي على كل ممكنات السعادة بالنسبة اليه . وهو يعاني الشوق اليها باسلوب الفنان والشاعر . انه يرى فيها نشوته المفقودة ، كانسان مسلوب الجسد والواقع . ومظهر الطهر والتعفف الذي يتبدى به سلوك المراهق تجاه المراة ، لايعبر ، كما يريد علم النفس الجنسي ، عن الشعور بالخيبة للتكيف مع العملية الجنسية ، بل انه يرمز للبراءة التي ينشدها المراهق في كل شيء .وهي البراءة التي ستعمق معانيها ، ويتضح جوهرها ، كلما وعى الثوري قضيته . انها اساس كل الاخلاقية الثورية عندما يستكمل الثوري شروط وجوده كثوري اصيل .

ومع هذا فالمراهق يتمنى الفوز بجسده ، كما يتمنى الفوز بوجوده الخاص ، وجسده ، في حقيقته ، هدف عياني كبير ، على حريته انتنقلب على عقبته ، وان تحوز عليه كقاعدة تربطه بالارض والحس الجميل .

والمراة كما هي رمز لحريته في مستقبله ، فانها كذلك لها كيانها المادي الذي يمارس تلقاءه فعالية وتاثيرا واقعيا ايجابيا . غير ان المراة التي يتمناها ، لاتمت لعالم السديمية بشيء . والمراهق العربي اكثر مايحتقر من واقع السديمية ، هي المراة المكفنة بالحجاب ، والمتخلفة عن عالم الوعي والثورة ، والمحتجزة وراء استرة البيت وخلف مفاهيم الحرام . انه يطالبها بمثالية ثورية غير قادرة عليها . ولهذا فما يلبث حتى ينحرف الى بائعات اللذة ، عندهن يحيا الثوري المراهق ماساة الجمال الطاهر البريء . فهو من جهة يحطم قاعدة اجتماعية في الحرام ومن جهة اخرى يهين المراة التي لم يتمكن ان يحولها من مجرد مثل اعلى في خياله الى عالم الارض والحقيقة .

ان معاشرة البغايا ترمز لى التشفي المحترق . وهي بدء للخيبة التي اخذ يعانيها الثوري كلما اصطدمت ارادة حريته بمناعة الواقع الصلد . وكلما حاول ان يحطم من مصيره الرتيب في بحران السديمية، ويؤكد لذاته ايقاعا بطوليا خاصا .

وخيبته في المراة ، تتبعها خيبة افظع اثرا . فانه لايلبث حتى يكتشف نظام التعامل المادي في السديمية . فالى جانب الناس المغلقين ، توجد اشياء مادية ، الات وادوات ، تشغل حيزا نفسيا ومكانيا كبيرا في حياة السديمية . وسرعان مايكتشف كذلك ان سلم القيم مقلوب ، وانه يبدا من هذه الجمادات الى خالقها ومبدعها الانسان . والناس مشغولون باستعمال هذه الاشياء ، ووراء صيغة الاستعمال هذه تتلاشى كل ملامحهم الانسانية ، ويتحولون الى طبيعة مستعملاتهم ذاتها ، اي انهم يصيرون الى اشياء اخرى ، لها تعادل وجودي واحد ، وتشابه في الملامح ، وتجانس في التقييم .

وبهذا النظام المادي تتصل كذلك مفاهيم السياسة . فان اكبر منفذ لصيغة العلاقة السديمية « السيد والعبد » هو المال وما يتبعه من نفوذ اجتماعي وسياسي . وفي السديمية العربية ، ليس ثمة وسائل طبيعية للحصول على القوة المادية . انها كلها تتبع نظام العلاقات في الطغيان والاخضاع . وهو طغيان يستمد قواه من وضع المجتمع الهرمي الذي يمثله الاب في العائلة ، والرئيس في العشيرة ، او الزعيم في الحي والمدينة ، او الشيخ في الطائفة وكلها تؤلف طبقيات تشتق نظامها من وظيفة سيادية رجعية ، تحيط نفسها ببرقع القدسية ، وتكاد تعطي لكيانها صفة الديمومة والخلود ، حتى تصبح عقيدة اشبه بالعقيدة الدينية ذاتها. ان الانهة والمستعمر والمال هي الرؤوس الثلاث لهرم السديمية ، اجتمعة في رأس واحد هو السيد المطلق ، هو الطغيان ، هو الجبروت اللاشخصي الذي يحكم ذاتية السديمية واوضاعها اليومية وعقائدها الميتافيزيقية ، وعلاقاتها المختلفة بين افرادها النسخ . وهي التي حلت مكان الاله الديني القديم الاصيل . ونقلت اليها قدسيته وسيادته .

ان معبود السديمية يتمثل لها في الاشياء ، وان صراعها وطقوسها تبدأ من الاشياء لتنتهي بالاشياء . وليتها كانت من صنعها . انها الات ومستعملات ، وادوات ترفيه اتت مع الاجنبي . ان لها ذات قوته ، وقدرته على امتصاص انانية السديمية ، وتجفيف نفسها ، ان تبقى لها هذا النسغ خلال الف عام من الهجنة والعبودية .

والثوري المراهق تلقاء هذه المعلقات اللاشخصية الوحشية ، التي تهاجم وعيه البكر باستمرار ، تنتابه شبه خيبة مطلقة ، فينكفىء على ذاته ، شبه منحرف الى الفردية الهدامة ، الى التشفي المسروق ، الى الحقد اللاعواني . ويتحول هنا حلم البطولة ، الى حلم بالموت ، موت غريب رائع ، يعطي له قيمة لم تعطه اياها الحياة .

ان هذا الموت الخاص ، الذي يتأمله الثوري الشاب ، لايبعث على الخوف او الالم او التعاسة . بل كثيرا ما احب الثوري اله . انه الم نضالي خائب . وهو يريد ان يموت ، لا لسبب معين . كانه يطلب الموت لذاته ، كما يطلب الثورة لذاتها . حتى ان مثل هذا المصير يبدو له انه بطولة جديدة ، انه هدف ايجابي ، يحقق له تفوقا ما . وهو كذلك تفوق مبهم ، في ميدان منافسة مجهولة .

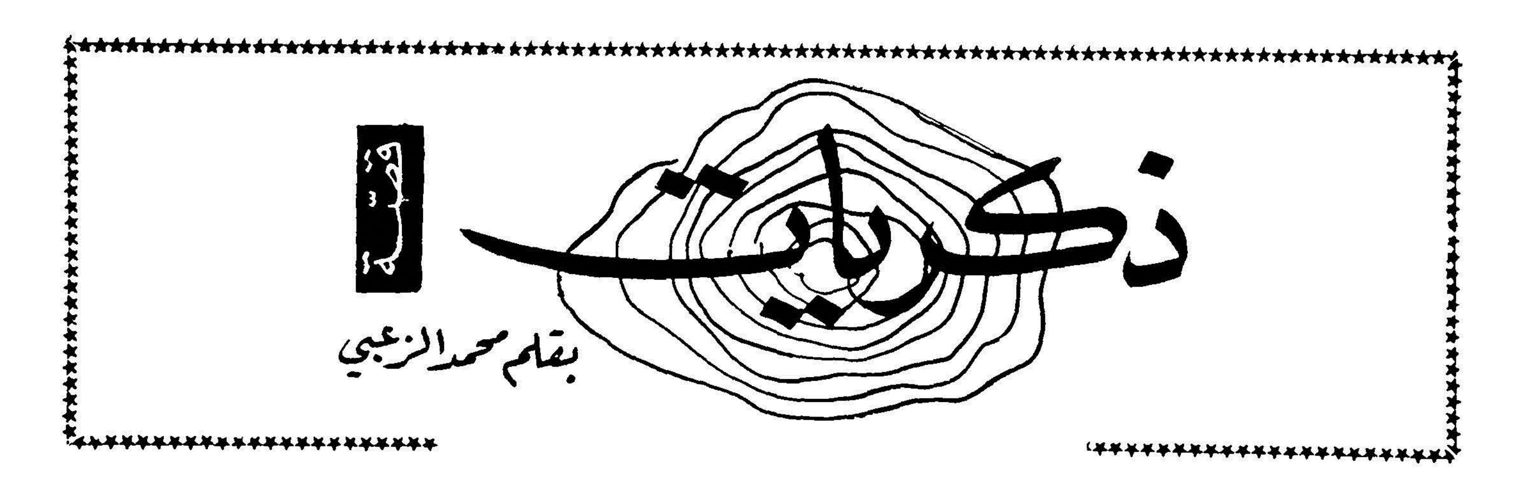
ولقد علل علماء النفس كثرة حوادث الانتحار عند المراهقين بارجاعها الى الطبيعة العاطفية الاسيانة التي يملكها عادة الشاب الصغير ، وتدفعه بدون روية الى القضاء على حياته . بينما يتراءى لنا نحن عندما نعالج المراهق العربي الثوري ، ان الحلم بالموت صيغة مؤسسة لبنية وجوده ، وليست ظاهرة انحراف ، او حادثة شاذة تحدث اثر خيبة عاطفية . انها رمز مأساوي لطلب المطلق في الحرية . وهو رمز يعني في الوقت ذاته ، احتقار الحياة اليومية ، ورفض وجود السديمية . ولا يعني اية خيبة ما من الانسجام مع مقتضيات السديمية . لان هذا الثوري اليافع لم يمارس ، في الحقيقة ، اية فعالية عيانية ضد واقع السديمية العياني . وهو مازال في تشوقه للمطلق ، امكانية مجردة ، بدون اهداف مشخصة فعلا .

وموت المراهق ، هو صورة مصغرة عما سيكون عليه حلم الثوري كذلك بالموت البطولي . (١)

مطاع صفدي

دمشق

(١) نقف عند هذا الحد من تحليل الثوري العربي المعاصر دون ان ينتهي الموضوع طبعا فانه ستليه صيغ اخرى وذلك في الكتاب الاصلي الذي سينشر قريبا . وشكرا للاداب .



قبل قليل كنت اقوم بتصفيف شعر طفلتنا « لينا » الاسود ، واسلمها طريق المدرسة الواقعة على مسافة قريبة من بيتنا ، وذلك بعد ان وضعت لها كتب يومها في محفظتها الانيقه المخضرة وطبعت على خدها الطري قبلتي المعتادة . وحين عادت الى غرفتي تذكرت ان علي ان اخرج لزوجي « يوسف » من المكتبة ، كتاب « نقد العقل المطلق » لكانت حيث سيستعين به في اعطاء درس يتعلق بهذا الموضوع في احد صفوف المدرسة التي ما زال يشغل فيها وظيفة مدرس فلسفة منذ ثماني سنوات. وبينما كنت ابحث عن الكتاب نتابتني هزة داخلية غامضة الملامح بلغت ذروتها حين صار الكتاب بين يدي ، وسرت بخطى متلعثمة الى يوسف احمل له الكتاب ، وكم كانت دهشتي حين رأيته بدوره يضطرب عندما وقع بصره عليه ، ونظرة سابرة ارسلها الى فوق ، واختها ركزها بين عيني ثم ربت على خدي الايمن بتحبب وخرج متسللا نفس الشارع الذي سبقته فيه لينا قبل قليل .. وكان ما يزال يسير مطرقا حين استدار به الطريق نحو اليمين وغاب عن ناظري . اما انا فقد اغلقت الباب ببطء وسحبت خطاي بتثاقل لالتصق باول مقعد اراه مستسلما لشعور اعجم غريب ، ما لبث ان بدأ يفصح عن حاله حين اخذت خيوط من الماضي تعود بتاريخها الى تسع سنوات تنسلل من مكامنها بكبرياء لتلفني برفق وتنقلني الى جنة عدنها حيث اعيش مع « ذكرياتنا » لحظة خصب . فالحق ان الزمان يستطيع ان يسدل ستره على معظم الحوادث البشرية الفردية ويحذفها مرة واحدة الى غير رجعة كأننا لم نكن اصلا، غير ان هنالك حوادث عملاقة في حياة الكائن البشري تقف كالطود في وجه الزمان تتحدى نهره ولياليه ، ودورانه على محوره بشكل مخيف :

ذات يوم ...

انني الان في الممشى الشمالي لحديقة جامعة دمشق ، والى جانبي زميلي في الصف والاختصاص يوسف ـ اي حاليا والد لينا التي قد تكون الان جالسة على مقعد الدرس ـ ، وكعادتنا بدأنا نتساءل عن اخر نقطة وصلنا اليها في اليوم السابق في نقاشنا حول الزمان والوجود وبعد اخذ ورد ومماحكة بمعنى وبدون معنى اتفقنا على نقطة شرعنا نلوكها بالسنتنا وخطانا ونلف حول عنقها حبل يومنا اللدن ... كنا في السنة النهائية لفرع الفلسفة وعلم النفس وكان نجاحنا مضمونا لتفوقنا النسبي على زملائنا ، وهذا ما كان يبرر انصرافنا المتواصل لمثل ذلك الجدل البيزنطي في نظر الزملاء ، اما الذي كان يجمع بيننا ـ انا ويوسف ـ فقد كان وحدة المصيبة ، مصيبة وجود بدون مبرر ، وبدون معنى،وبدون غاية،بينما الحب لم يكن يومها ليخطرلنا على بال،اذكنانعتبره بضاعة الاغبياء ، وتحريف غريزة يقف الانسان فيها على مستوى الدواب. حتى الوطنية وممارسة النضال ضد العدو كنا نراه من واجب غيرنا فحسب .. ولم نكن نطمع من وراء هذا الدوران المستمر في دوامة الفكر ان نصل الى اية نتيجة ، اذ ليس من المعقول ان يصل من لا يزال يحبو ويزحف في عالم الجواب المظلم الى نتيجة لم يصل اليها قبله اشخاص سبق ان وقفوا على اقدامهم كافلاطون وابن رشد وكانت وسجلوا بضع خطى عنيدة جبارة ثم ما لبث ان لفهم الزمان بوشاحه وراح بهم الى حيث لا ندري .

يوم آخر ...

كعادتنا ، « خطى سدى » وافكار سود ، وبعض مقاطع من نزار قباني. غير ان امرا جديدا سوف يحدث هذا اليوم ، وسيكون نقطة تحول في حياتنا نحن الاثنين ، حيث سنستدير نحو الحياة بزاوية مقدارها (١٨٠) درجة ؟! يصل الان الى آذاننا ، زئير مظاهرة طلابية يدوي في القاعة الداخلية لكلية الحقوق فيقف يوسف فجأة ضاغطا بيده اليمنى على جبهته .. ثم ينفجر :

ـ نحن نناقش هنا امورا سخيفة ، ونزرع الدروب والممرات حكايات لا تسمن ولا تغني ، بينما يزمجرون هناك ويعيشون الحياة بدمائهم واعصابهم وخلاياهم انسجاما مع طبيعتهم ومع منطق الحياة السليمة .

فقاطعه : ـ ومع ذلك قد يكونون مخطئين .

فرد بنفس الحماس السابق :

ـ حين تكون الطبيعة والحياة خطأ فنحن لسنا الا جزءا من هذا الخطأ، نحن لسنا من المريخ يا مريم ، وهذا الدماغ الذي نسفه به القيم الموجودة لم ينزل الينا من وراء المجرة ، نحن جزء من هذه الانسانية وهذه الامه وهذه الجامعة ، ومنتهى الغباء الا نكون الان بينهم نؤدي فريضة السلف علينا .

ـ انا معك يا يوسف ، ولكن هل عرفت لماذا سيتظاهرون اليوم ؟

ـ المعيب اصلا يا مريم انك لا تعرفين ، وانني اكاد اجهل ، اليوم هو هو (٢٩) تشرين ثاني .

ولما لم اكن مقتنعه تماما بفكرة الاشتراك بالمظاهرة فقد قلت له وكان قد هدأ قليلا :

ـ وهل تعتقد ان رقمين سيضيفان شيئا الى هذه الكتل البشرية المتدافقة ؟

ورأيته ينتفض :

ـ ليست القضية قضية ارقام يا آنسة ، كما ان الوطنية ليست فرض

كفاية ، انها قضية دفاع عن النفس والكرامة والملك ! تصوري اليهـود يدخلون هذه الجامعة الان ويستبيحونها وتصوري نفسك بالذات تصرخين كالمسعورة بين فكي احدهم ومخالبه .

ولم اكن بحاجة الى مزيد من الشرح بعد ان تصورت نفسي فعـلا فريسة بينهم ، ودون ان انبس بكلمة اخذت بيد يوسف ، وبقوة شددته صوب القاعة الداخلية لكلية الحقوق .

يوم ثالث ...

في صوتنا بحة « محببة » هذا النهار ، لاننا البارحة القينا بانفسنـا في سيل المظاهرة العرم الجارف وانطلقنا بكل قوانا نادي بحياة ثالوث الوحدة ، والحرية ، والاشتراكية وبسقوط ثالوث الصهيونية ، والاستعمار والشيوعية ، تاركين الفلسفة واساطينها تنتظرنا في المشى الشمالـي يحرسها سيادة الزعيم الاوحد ورائد المطلق « العقل » . واليوم ونحـن نتابع مضغ الخطى والحروف كنا نشعر ان اشياء جديدة تبرعم فـي داخلنا ، وان كلمات ذات لون جديد وطعم جديد تفرخ في حناجرنا ، فاحاديثنا اليوم في اي موضوع كان مفضوحا انها ليست اكثر من دريئة تخفي وراءها امرا يكاد يجهله كلانا .

يوم رابـــع ...

خلافا لعادتي افقت مبكرة هذا الصباح ، ورأيتني ارتدي ملابسي بسرعة واحمل دفتري وانزلق في مدى طريق الجامعة الطويل . كان لا بد من ان اتساءل عن ما هية هذا الشيء الجديد الذي دخل حياتي منذ حوالي الشهر وما برح يكبر ويترعرع ويتوضح . كنت اشعر انه يتحداني، وانه دخل حياتي ، رغم ارادتي ، ولذلك كثيرا ما شددت شفتي فيما بينهما وانا سائرة ، او انني اتوقف عن المشي في محاولة القاء القبض على ذيل فكرة ما تلبث ان تغيب ... اتكون هذه اعراض الحب يا ترى ؟ اعراض هذا السخف العجيب الذي يتساوى على صعيده السيد والعبد ، الغني والفقير، الجاهل والعبقري ؟ ولماذا يحب فلان فلانه ؟ الانها اجمل « من فوق التراب ولا فخر » ؟ اذن لماذا لا يحبها جميع الرجال ؟.. وبينمـا تتلاطم في جمجمتي وتتصارع في ملامح وجهي هذه الافكار ، فتجعلني لا ارى احدا في الطريق ، اذ بصوت يوسف ينقذني :

ــ اراك مبكرة اليوم يا آنستي ؟

ــ بل انا الذي اراك هكذا.

ــ لا بأس .. فالمهم اننا ضبطنا بعضنا بالجرم المشهود ! ..

« يا الشيطان الذكي ، الذي يعرف كل شيء ! » قلت هذا في نفسـي وتابعنا المسير صامتين نفكر في ذلك « الجرم المشهود » ..

حان موعد المحاضرة ، وبدأ زملاؤنا ينفضون من حولنا باتجاه قـاعة الدرس بينما بقينا جالسين كانما ستتمخض بعد قليل عن امر جلل تمهد له بعض حركاتنا ، وبعض ابتساماتنا . كان يوسف يغير قعدته بين الحين والحين ، ويضرب على المقعد الخشبي بجمع احدى يديه ، ثم ما لبـث ان استدار نحوي تماما وهزني من كتفي هزة خفيفة وقال :

ــ عرفت طبعا اننا كنا مخطئين يوم كنا ما نزال نسفه مشكلة الحب ، وانه كان علينا ان نكون اكثر وعيا وفهما فلا نطلق احكاما على امـور لم تشأ لنا ظروفنا ان ندخل تجربتها مبكرين ... ارايت حين خرجنـا لاول مرة من سردابنا يوم ذكرى تقسيم فلسطين واقتطاع اللواء والفينـا بانفسنا بين المتظاهرين كيف شعرنا بنشوة اصيلة واصبحنا ننتظـر اول مناسبة قومية اخرى كيما نعيش التجربة من جديد ؟

لم أرد عليه بشيء هذه المرة ، فقلبي كان ينبض بشدة ، ودموعـي كادت تشي بسكوتي وربما قد احس هو بذلك الا انه تابع حديثه علـى نفس المستوى ، ثم ما لبث ان فاجاني :

ــ سنخطب بعضنا الليلة ... يا مريم .. سأخطبك ، وغدا سيكون اصبعك هذا محوطا بحلقة صفراء على عادة الناس . وعندما سأصلي للعذراء بعد اليوم سأفطن ابدا الى ان اسمها هو « مريم » .

يوم خامس ...

لم اذهب الى الجامعة في الحصة الاولى هذا اليوم ، وحين وصلت متأخرة وجدته ينتظرني على الباب حيث بادرني:

ــ لماذا تاخرت هذه المدة فلقد كانت المحاضرة مهمة ومفيدة .

ــ بل لماذا تنتظرني على الباب ، الانني غدوت خطيبتك ؟

ــ طبعا فلقد اصبحت اخاف عليك ...

فاتممت انا مازحة :

ــ من نسمة الجنوب .

كنا كانما نشاهد بعضنا لاول مرة ، حتى اننا لم نستطع ان نتطلع الى وجوه بعضنا كعادتنا منذ اربع سنوات ، وحين جلسنا على احـد المقاعد كانت واضحة المسافة التي تفصل بيننا ، وبحركة لا شعورية رأيته يمسك بيدي اليمنى ثم يضغطها بين يديه ، وكان يحاول ان يرفعها الـى شفتيه حين مر ثلة من الطلاب امامنا ، فسحبتها بنزق واخفيتها تحت كتابي ، وغدوت ارتجف كانما يدي كانت ستقطع او ستظل عالقة بـين شفتيه .

يوم سادس ...

لم اكن قد نمت اطلاقا الليلة الماضية ، وقد قمت اكثر من مرة أشعل المصباح واتطلع الى يدي ببكاء عاني اجد فيها اثرا من يديه ، وكنـت كالمجنونة اضعها فوق الوسادة وانهال عليها قبلا دونها الجحيم ، او اضمها الى صدري وانام فوقها مخافة ان تفلت مني أو يطير منها خاتم سعادتي البكر . وحين بزغت الشمس بعد عناد كاد يقتلني ، كنت اتناول طرف الشارع كالمحمومة باحثة عن نبيي الجديد ... نعم كنا ندق اخر مسمار في نعش الفلسفة والعقل ، ونطلق كل ما وراء الطبيعة من اكاذيب حـين افقنا من اغماءة القبلة الاولى ، التي ما زال طعمها تحت لساني يتحدى تسع سنوات مضت ، والتي غرست في كياني الحياة وجرتني من اعصابي الى الطريق التي وجدتني فيها انهض مبكرة كل يوم لاصفف شعر ثمـرة قبلتنا الاولى ، بل ثمرة المظاهرة الاولى التي غرست في دمائنا بـذرة الحياة السليمة ، واضع لها كتب يومها في محفظتها الانيقة المختصرة ، واسلمها طريق المدرسة الواقعة على مسافة قريبة من بيتنا .

محمد الزعبي درعـا

رموز ترنيمة قديمة

– تتمة المنشور على الصفحة ١٢ –

غرب نيوغينيا ، الى هنود الاوماها في جنوب امريكا (٣).. كلهم كانوا يفصحون عن هذه الملامح المشتركة التي حاولت ان تحل مشكلة الوجود والخلق والدين بهذا التراث الموحد العجيب .. ففي اللحظة التي كان يظن فيها ان قصة نوح والطوفان هي قصة شرقية بحتة دونت وحسب في نقوش نينوى وفي التوراة والقرآن ، صدم العالم المتحضر باكتشاف حديث منقوش في امريكا الوسطى يحكي قصة الطوفان بابلغ مما حكيت به في ارض بابل .. » كان هناك اشتراك في محاولة تفسير الكون والوجود ، وكانت الحياة متقاربة القسمات هنا وهناك ، فيث يشترك مجتمعان في ملامح اقتصادية واجتماعية ونفسية واحدة ، تتقارب الثقافات وتتداخل النظرة الى الفن والوجود ، بل ان الدين نفسه يشترك بالخلال الاسطورة ذاتها ..

وارتبط الدين في ذهان البشر بالاسطورة ، لان المنطق والعقل كانا أبعد من ان يستطيعا تعيين حدود وخطوط لمشكلات الخلق من العدم ، واعادة الحياة مرة اخرى ، حيث عز على الناس ان يموتوا ويندثروا بدون بعث .. كانت الطبيعة في جانب ، وكانت الارادة البشرية في الجانب الاخر المتلقي ، الساكن .. وكان الناس ينظرون الى الجانب الطيب في الطبيعةعلى انه هبة من اله الحياة ، وكانوا يقدمون له الهدايا والقرابين لشكره وتقديره ، وفي مجتمع زراعي كأرض بابل ، كان تأخر الامطار نذيرا بان اله الموت قد دحر الى وقت ما .. اله الحياة «ارض بابل سقياها من دجله والفرات ، وارتباط المطر في الاراضي الزراعية بمقدم الخيرات والنماء ، يعادل ارتباط بابل بمقدم الفصل الربيعي المزهر » .. ونشأت فكرة الصلوات والاغنيات الجنائزية درءا لهذه المصيبة ، ودعوة لانكشاف هذا الغم ، وقد تمثل البابليون هذه البكائيات في احتفال تموز الذي سمي باحتفال النسوة الباكيات ، حيث كن يصرخن ويقطعن شعورهن وجيوبهن ويتطلعن الى السماء بحثا عن الفصل الغائب.. وقد اشتركت معظم المجتمعات الزراعية في تقديم هذه الشعائر مرة الى روح اله المطر، ومرة الى اله الفصول ، طلبا للزرع والنماء والحياة ..

✶

رموز الترنيمة ..

الجزء الاول من النشيد وصف لعطش مدينة ، والجزء الثاني احتفال مقدس وراثي لاستجلاب المطر (يعني الربيع) والجزء الثالث هو الري او استجابة الالهة لهذا الطلب المتجدد بالحياة ...

والصورة الاولى هي ملامح مدنية مصبوغة بلون احمر قان ، اذ تقول بعض الاساطير ان دماء عشتار هي التي صبغت زهرة (الدارلنج) التي ما زال العرب يسمونها (جراح النعمان او شقائق النعمان) بهذا اللون الدامي عندما كانت تبحث عن حبيبها فجرحتها اشواك هذه الزهرة التي كانت ناصعة البياض ، ثم ارتوت من دم عشتار . وفي شائعات اخرى كان التجار هم اول من لاحظ دماء ادونيس تصبغ النهر المعروف بهذا الاسم في لبنان (فينيقيا القديمة) وكان سبب هذه الصبغة هو انجراف التربة الحمراء للجبال وتفتتها وانسحاقها في مياه الامطار الشديدة وسريانها مع النهر ، وكان ذلك يحدث في الربيع من كل عام (٤) وقد آثر الشاعر ان يفتتح القصيدة بهذا الرمز الذي يشير اما الى دماء عشتار، واما الى دماء تموز نفسه .. وسوف يتكرر هذا اللون الدامي بدلالة اخرى كصيفة للشمس مرة ، وكرقية مقدسة يستعملها المتوحشون رمزا للتوقد والتشهي ، ودلالة اخرى على مدى جفاف الارض التي بوسعها ان تشتعل في لحظة وان تحيل الارض حريقا ، والشاعر يرمز بهذه الصورة الطبيعية اسقاطا على الوحش القديم الذي يسبب الموت والخراب والعطش ، كما سوف يرمز عن طريق الحلم بالاسود والفيلان الى الخوف والمقت والكراهية (✶). وفي الابيات التالية ، بعد تصوير هذا الجفاف المتكسر لبابل ، وهذا الدم الارجواني المهدم في فضاء المدينة ، يهب الموتى الذين يرتبطون بتموز ، برابطة الانتساب الى العالم السفلي حيث يغوص في كل عام ، يهبون مبشرين بالصحو الالهي للربيع تحت عرائش العنب . ولاختيار الكرمة دلالتان ، فهو نبات يسبق معظم النباتات الاخرى تسمبا للربيع وايماء بمقدم هذا الفصل المزهر ، ومن جهة اخرى يرمز اختيار تموز الانبعاث من وسط العنب الى فكرة خزن الرحيق في الارض الطينية وتحويله خمرا ، فالاثنان يشتركان في هذا الغياب الباطني في الارض ، حيث يتجدد تموز ، ويتجدد الشراب .

والريح التي تتردد في ابراج المدينة تكشف عن صلتها بانين المرضى، فهي ليست ريحا من نوع الرياح التي تسبق المطر ، بقدر ما هي ريح حارة مزهقة للانفاس ومجففة لنداوة الاجسام . ريح صحراوية خانقة تدور في المدينة وكانها تخبر اهلها الا فائدة ترجى من تقديم القرابين والضحايا استجلابا للمطر ، وانها هي الحقيقة ولا شيء سواها ، وتظل الشموع مطفأة والمعابد خالية من الناس ، وتقفر المدينة كلية من البشر اليائسين من قدوم المطر ، ويترك التعبير عن العطش والجفاف للزروع في ضواحي المدينة حيث ينادي القصب لاهثا بان شمس اذار قد عادت ..

عيون البشر وحسب ، وليس اجسادهم ، هي التي تدور وتتنقل هنا وهناك متسائلة عن ميعاد انتهاء هذه الكارثة ، بكل الجوع الذي يطل من حدقاتها المتلئة بالحسرة والخوف والرهبة ، ولا بد ان نضيف ان الندم محسوس به بشدة ، لدرجة ان لهجة الابيات نفسها تشعر بذلك فالندم احساس يتبع الاختيار اللاحر ، حيث يفرض ظرف ما ، جوره على قدرات انسانية لا تستطيع ان تختار . وهنا يقع الانسان تحت طائلة القدر الذي يمثل الطبيعة كوحش ظالم يمارس القتل وحرق المحصول وابادة الماشية .. والحزن الذي يستتبع هذه النظرات التي تجول في الارض وبين الزرائب والحقول ، متأسية على المصير المهلك الذي ينتظر هذه الحيوانات ، هذا الحزن العيني يلحظ بلامبالاة شديدة هذه السحب الراعدة التي تشق السماء كحيوانات عنيفة غير مخصبة وغير معطاءة . ويتردد في هذا السكون المخوف صوت الاسى الباطن الذي يثور رويدا رويدا ليتهم هذه الالهة الحجرية التي ترقب هذا العذاب بقلوب صلبة ، يتهمها باللارحمة والتعذيب . بل ان فرط الصمت الذي ترد به هذه الالهة على هذا الطلب المحتضر بالسقيا ، يشكل عند الناس الفة منهم لهذا الاجرام الالهي والظلم ، وذلك يشبه العملية التحقيرية التي يسلكها سكان قرية خارج اسوار روما

(✶) الخرافة هي ادراك بشرى عام يخص الانسان ككل . اما الاحلام فهي شخصية بحتة ومدلولاتها فردية وباطنية .

نحو تمثال الهي ، فهم يجرونه على الارض الى داخل الاسوار ويظنون ان هذا التحقير يجيب طلبهم بالمطر .. (٥)

ويستمر النشيد في ادانة الالهة والسخرية بها حتى يتحول الاسى الداخلي من الهزء الى الاحساس العميق بالمأساة ، فتعود صور الارض التي تموت والعذارى الحزانى التي يفيض الماء من وجوههن ، والكروم التي تذبل ، الى ذاكرة العيون التي تجوس حدقاتها في المدينة وتلاحظ تقهقرها الانحلالي ، وموتها القريب . وذلك يشبه الاحساس الحزين الذي يستولي علينا عندما يموت قريب لنا ، ثم ننساه لفترة قصيرة اثناء حكاية يتلوها صديق او دعابة .... ثم تتكشف هذه القيمة الحلوة قليلا قليلا عن ملامح الحزن الذي يكبلنا ، فتستحيل الدعابة في الشعور الى محاولة منا مجرمة للنسيان او الخيانة ، وينقلب الحزن خزيا واحساسا بالتجريم المتعمد ، وتصبح المأساة حاملة لوجهين، بدل وجهها الوحيد السابق ..

وصورة الاسد التي نطالعها بعد ذلك لها دلالتان ، الاولى منهما تتصل باسطورة جلجامش ، وهو ذلك الملك السومري الذي ذهب ليفتش عن بنات الخلود ، وبعد رحلة طويلة ، وصل الى ارض الملك (عطنا بشتيم) الذي اطلعه على سر النبات الذي يهب الشباب كل من ياكله ، وبعد مغامرات عديدة يحصل على النبتة ، وفي اثناء غفوة له بجانب غدير ، يتقدم الثعبان بطيئا منسلا ويبتلع النبتة (وذلك هو سر استعادة الثعبان لشبابه بتغيير جلده كل عام ..) ، ويفيق جلجامش ليجد النبات مسروقا ، فيبكي « وتاخذ الدموع تجري على جدران انفه .. ★ والاسد يرمز في هذه الاسطورة مقترنا بالرجل العقرب ، الى الصعوبات الطبيعية العديدة التي تقف في وجهه ، وتعطل ارادته وتعيق طريقه ..

صورة الاسد تقترن في النشيد بالصورة السابقة ، وهي الموت المنسل بين النور والظلمة ، فتموز يموت كل عام ويدخل من مملكة النور الى مملكة الظلام ، فحتى هذه الرغبة بالموت السريع واللحاق بمملكة الفناء ، لا يحققها هذا الاسد الذي يرمز الى التعطيل والى السد الذي لا يمكن اختراقه ..

والدلالة الثانية للاسد ، ليست دلالة ميتولوجية ، بل هي باطنية خاصة بالشاعر ، وكامنة في لاوعيه ، ففي اكثر المعابد البابلية ، توجد صورة للاسد المجنح رمزا للبطش ، وتذكيرا بالالوهية والقدرية والعنف والوحشية .

اما الكشف عن هذه الصورة الباطنية فيرتبط ايضا بالصورة السابقة التي تعني في حاليها :

رفض القدر ان يستجيب الى داعي الانتحار ...

والجرح الناري يرتبط بالخنزير الذي صرع تموز ، وبالرغم من مصرعه يعتبر عطاء للارض واحياء لها ، ويرتبط ايضا بالمسيح الذي فدى البشر بجراحه المفتوحة التي يتدفق منها الدم الذي يصون البشرية ، ويحمل عذابها وجراحها ، وكما ان عودة المسيح تعني رفع الخطايا عن البشر ، فان عودة تموز تعني منح العالم حياة جديدة وروحا غنية شاملة ... بينما يرتبط لمرة ثالثة ، بالتابو في جزيرة جاوة حيث يرمز الجرح الى هطول الامطار ، ويرتبط ايضا بالتقليد الذي استنته القرى في مقاطعة (اجهيو) في اثيوبيا ، وهو ان يسمح للقرى ان تتقاتل لمدة اسبوع في شهر يناير من كل عام ، استجلابا للمطر ، وقد منع الامبراطور منليك هذه العادة .. بيد ان الامطار توقفت عن الهطول في السنة اللاحقة .. الامر الذي جعله يصدر قرارا باستمرار هذا التقليد ، على ان يكون العراك في يومين فقط كل عام .. (٦)

فالجرح والدم المتدفق منه ، رمز يستعمله المتوحشون بديلا عن الاحتفال بدعوة الامطار وجلبها ..

وفي اتفاق تضامني ، تعود العيون الى جولتها الخارجية لتلاحظ المدينة ، وحالة الجفاف : لا مطر ، ولا نبات ، ولا ثمر .. وتمرح الاغنية الكئيبة عن القدر والظلم مرة اخرى ، باسى اشد حدة : « سيدنا جفانا . آه يا قبره !! » وهذه التعاسة تنصب حتى على الحفرة الفاغرة فاها ، والخاوية حتى من جرة بها نقطتا دم من الرب ، والخالية حتى من بذرة صغيرة تعني بشكل رمزي ، ان الحياة كامنة ولو بصورة ضئيلة في المدينة .. والقبر رمز بدائي ايضا وقديم للمطر ، استعمل في الشرق الاقصى وفي كاليدونيا الجديدة ، حيث يصبغ جالبو المطر انفسهم بالسواد ثم ينبشون قبرا يستخرجون العظام منه ويعلقونها في شجرة لاستجلاب المطر .. وترمز الجرة المدفونة الى البضاعة المكنوزة التي تفك عنها اختامها في ايام الفقر والجفاف ، وترتبط بالجرة الفخارية التي يملؤها سكان نجونيلاند الوسطى بالجعة ويطلبون من الرب ان يغيثهم ..

وتنتهي الفقرة الاولى بمقطع في منتهى الاذلال من حيث الجو النفسي ، وفي منتهى الابداع الفني من زاوية الجمالية والتعبير ،بالاشارة الى سرقة من بيوت النمل المفروض انه يسرق منا نحن الغلال ويختزنها. وذلك يكشف نضوب المدينة وامحالها ، ومدى قرب نهايتها نحلا .. كل شيء في بابل ينتظر الاحياء.. بين ان الرب غافل عن هذه الطلبات الصامتة بالحياة ، وهذه المآسي الفارقة ، وهذا النضوب والجفاف في الارض والعيون ، وحتى في الدعوات . كل شيء ينتظر اشارة من الرب ببدء الحياة . .

ولكن لا بد ان الرب لا يستجيب الا بوسائل معينة ، وبواسطات مجددة ومخططة ، واذا لم يصح البشر ، ولم يقلبوا الدنيا ضجيجا ورقصا وغناء لقهر لامبالاته ، فما من فائدة ..

واذن ، فالنشيد الثاني هو محاولة لايقاظ اله المطر من غفوته ...

يبدأ النشيد بموكب من الاطفال والفاكهة ، وهما رمز لتعاقب الفصول في الحضارات القديمة ، كمصر ، والحديثة كبلاد العرب .. حيث يتم احتفالات المطر في الثانية واحتفالات الاطفال حين يختفي القمر خلف غيمة في الاولى ، بنفس المظاهرة من الاطفال والفاكهة ، او الاطفال وسعف النخيل ...

وينشد الصغار الذين يحملون سلال الصبار والفاكهة ، نفس الاناشيد التي يغنيها الناس المنكوبون في كل مكان : سيدنا شاأوتا . لقد قسوت علينا ، نبئنا بما تريدنا ان نفعله لك .. اننا نموت يا سيدنا فاعط اطفالك المطر ، بينما نعطيك نحن خمرتك ... (٨)

بنفس الكلمات والمعاني يضرع الاطفال للاله ان ينسى غضبه العدائي ، وان يذكر ان المطر ليس فقط للرجال الكبار ذوي الشوارب والاذرع القوية .. اذ انه ايضا للاطفال الصغار الذين تحبهم، واذا كنت ايها الاله لا تحب الاطفال ولا تحن اليهم .. فمن تحب اذن .. وعلى من

★ The Hero with Thousand Faces
Joseph Campbell (PP. 185 - 188)
(P.B) Meridioan Books New-York 1956

تصغي حنانك ..؟!

ويبدو ان الاله يستفيق في المقطع الثالث ، ويحن لهذه القلوب الواجفة، والشفاه الجافة المشققة ، والارض التي سودتها الحرارة ، وينبعث منها الدخان في القيظ .. يحن لكل ذلك بعد ان ذكره الاطفال بالوهيتــه ومسئولياته .. فيسقط المطر وتعود لبابل الحياة .

ان هذا العمل الفني الذي استمد ارضه الخصيبة من كل هذا الحشد من التراث الانساني ، بكل تفتحاته وكل ارتباطاته بالرجل الشعبي الذي يقاوم الارض ويقاوم القوى الباطشة بكل انواع المقاومة وصورهـــا المتناقضة ، انما ينبىء عن عمق التصاقه بالواقع ، عن طريق غير الطريق المشهود الذي طالعناه في الف قصيدة وترنيمة ..

فلا يعني الارتباط بالواقع ان يحتشد العمل الشعري بصور العمـال وقضايا الضريبة التصاعدية ، وحال الفقراء في العالم . ان الشعـر لا يكون شعراً اذا لم يكن مرتبطا بالخرافة او بالدين او بالتقاليد الشعبية القديمة والحديثة او بالاحلام .. او بها جميعا .. ! ولست اعني ابـدا ان يهبط الشعر الى لغة الطريق ليجاري الاغنيات الشعبية . بل ان يكون الشاعر مفتوحا على تراث امته الحضاري والثقافي جميعه ، شاربا مـن الوحل الذي يشربه الذين يقهرون بالاغنية تمردهم وثورتهم ، وخاضعـا للقوانين الدموية التي تربط بينه وبينهم وتجعله المتحدث باسمهم .. ومن هذا الارتباط الداخلي بالشعب يمكن للشاعر ان يصبح اكثر المتكلمين باسمه تأثيرا عليه واخضاعا لروحه هو المتطورة ..

ان الحديث عن الواقع ينسرب هنا الى مجالات اكثر افصاحا ، فما لا يمكن التعبير عنه بالمواجهة ، يمكن كشفه بالمداورة ، وهذا ما جربــه الشاعر العراقي وقفز فيه بشعرنا الى اعمق المجالات التي انتهى اليها الشعر الغربي . ان الميثولوجيا تكشف عن الوسائل الموحدة التي يكـافح بها الشعب العالمي المسكين مصائب الطبيعة ، ومصائب الحكام : بالاغنية والخرافة والصلوات ..

وفضل هذه الترنيمة انها استطاعت ان تبين ان ما ترمي اليه عـلى انها اغنية وقربان يقدمه الناس الى الاله ليهطل المطر ، ليس الا رغبتهم وفعلهم وارتباط ذلك بارادتهم .. فاذا كان الرجل الشعبي في البلاد العربية قد قاوم بطش الالهة وبطش القوانين والحكام بهذه الصورة من الالحاح ومن الرغبة الحارة في ان يكون سيد مصيره .. واذا كـان الغربي قد قاوم بنفس الصورة من الارتماء في حضن الميثولوجيا ، فاشلا في اثبات قدراته على التغيير ، فما اقرب الطريق اذن الى ازاحة هـذا الهم عـن صدر الشرقي ، باتباع نفس الوسيلة الغربية ، التي التجـأ اليها الرجل العادي بعد ان خذلته الخرافة . ما اقرب ان يقاوم بارادته وعنفه الخاص قدره ومصيره ، وان يخلق من جديد عزته وامجاده ..

بيد ان هذه الصورة هي الشكل الميتافيزيقي للقصيدة ، وعلى الذهن اذن مهمة ان ينقل ابعادها الى الواقع الحضاري . .

*

مغزى الترنيمة ..

لا يمكن للشاعر او للناثر ان يتجاهل عصره باي شكل من الاشكال ، عصره الذي يعيشه ويحيا مشكلاته وتعاسات اهله ، وحسراتهم ... وكل صورة من صور التعبير التي يستعملها لا بد ان تعود مرة اخرى الـى التحسيس بمأساة يعانيها شعبه او يعانيها هو من خلال معاناة شعبه ، واذا شاء ان يتخذ الرمز اسلوبا مغلقا للوصول الى هدفه ، فلا يعني ذلك ابدا ان يضخم من استغلاق عمله الفني ، بقدر ما يعني ان الشكل عنده ربما كان خاضعا اما لضرورة فنية ، واما نتيجة لظرف سياسي يعانيه وطنه .

والفترة التي عاشها الشاعر حين اخرج هذا العمل الفني ، هي فترة من اشد الفترات اظلاما في تاريخ العراق الحديث ، حيث كانت الاسرة المالكة تحكم البلاد بيد حديدية ، والثروات يمتلكها الاغنياء والحاكمون، والاستعمار الانكليزي يؤازر الملك في البطش بالاحرار ووضعهم فـي السجون . اما الفقراء فقد كانوا يسبحون في السل وامراض سوء التغذية والجهل ، وينظرون الى اطفالهم الذين تتحلب افواههم حـين يشاهدون طعاما معروضا في واجهة .. ينظرون اليهم والحسرة تأكل عظامهم واكبادهم .. كان الوضع مذلا للغاية ، وكريها للغاية ..

فالصورة الاولى للترنيمة ، هي صورة العراق الجائع الذي يموت في انتظار الامل او المعجزة التي ستتفجر وشيكا فوق هذه الارض ، وقـد وضحت المعجزة في شكل نبوءة مطلسمة ومغلقة : « وتوشك ان تـدق طبول بابل .. » والصورة الثانية ، التي تبدو في شكل دعاء واسترحام للاله ليست في الحقيقة الا ابانة وافصاحا عن نتيجة الفعـل الارادي البشري في التطوير ، والصلوات القربانية هنا ، تقفز من مدلولها الـى المدلول الاخر الرمزي . فاولا هذه الضحايا التي تقدمت بشكل اطفـال صغار – رمز تغاير الفصول –، واكرر لفظة – تغاير – ، ما هطل المطـر الذي يرمز الى الثورة والى الاطاحة بالحكم الفاسد ، واقرار حكم على مستوى ديموقراطي وشريف وعادل ..

والواقع ان هذه الصورة الجديدة في تحويل دلالة الاسطورة من مجرد الطلب الخاشع للمطر ، الى التأكيد على فعالية الارادة الانسانية التي

تعمل وتخلق وتقاوم ، هي تطوير للمثولوجيا وتجنيب لها من الوقوع في عثراتها المألوفة . فلو كان الدعاء ، دعاء وحسب ، لتوقف هطول المطر على مجرد الامكانية . ولكنه في الترنيمة يسقط فعلا ، وكذلك العمل الانساني ، انه يؤدي فعلا الى ازالة الطغيان ..

والصورة الاخيرة من القصيدة ، هي مقدم الثورة وانتصار القوى الفقيرة على الاذلال والدكتاتورية والطبقة الحاكمة والظلم ، في صورة قطرات المطر التي تغسل بابل من عارها ومن خطاياها ..(✶)

✶

تقييم للترنيمة ..

لم نقرأ في شعرنا الحديث عملا موحيا وفنيا بهذه الدرجة من الاتساع والعمق والجمال . واذا كانت قصائد قليلة قد ايقظت فينا حبنا للكلمات الحلوة ، فان هذا العمل الفني الكبير قد ايقظ فينا وعينا وادراكنا بضرورة انتقال الشعر في مفاهيمنا من درجته اللفظية الى الدرجة العظمى من الارتباط العميق بين الفكرة والرمز والشكل ...

نادرة جدا في تاريخنا الفني ، الاعمال الشعرية التي ترتبط بالانتروبولوجيا الحضارية وبالخرافة ، والدين والموروثات الشعبية ،بقدر ما هو ثقيل انتاجنا الشعري الذي يهتم بالعواطف الفردية المجردة ،ويهتم بحشد الالفاظ الجميلة المسكونة بالاهواء . .

ان الشعر هو اقرب الغدران الى الدين واقربها الى السحر والخرافة، وذلك لانه مرتبط بالمنابع العميقة التي تغذي الموسيقى . وبسبب من ذلك يستحيل الشعر العقلي الى هم منطقي ، تنتهي حياته بالانتهاء من مناقشة فكرته ..

والشاعر الاصيل هو الذي ينمي الساحر القديم فيه، وذلك مقدار انتمائه الى الشعر ، اما انتسابه الى العصر ، ففي تنميته للعلاقات الاجتماعية بينه وبين ابناء وطنه ، مدركا لمشكلاتهم ، وغائصا في اعماقها .. فالشاعر الجيد اذن هو مقدار ما يحمل من اساطير مختزنة في باطنه ، ومقدار ثقافته ووعيه الدائم المتطور ..

ومن قديم كان للاسطورة هذا السحر الجليل في افئدة الناس ومشاعرهم ، طالما الاسطورة لا تفترض نقاشا او معارضة ، بل تتطلب تسليما وخضوعا وخوفا وخشية ، وكان الفرد بالقياس الى ضربات الطبيعة القاسية،شيئا صغيرا يمكن ان يسحق،وان يموت بمنتهى البساطة، ولذلك امكن للاسطورة ان تنمي في الانسان هذا الشوق الى الاعتراف بالعجز والصغار ..

وكان ذلك هو هم الانسان القديم ، ولذلك اخترع الله واخترع الدين والشيطان . اما الانسان الحديث فقد مكن له ذهنه ان يحقق اشياء كانت في القديم احلاما وامنيات ، واصبحت الخرافة والاسطورة في وعيه تعبيرا عن عبوديته القديمة ، وانتسابا الى عصر كان فيه اقرب الى الحشرة وابعد عن الانساني فيه ..

فاذا شاء الشاعر في الانسان الحديث ان يستخدم الاسطورة ، فلا بد ان يقفز من دلالاتها السيئة القديمة الى دلالة جديدة تحقق ما حققه الانسان نفسه في الحياة ، فتنقلب البكائيات الى دعوات للتغيير ، وتتحول القرابين الى صورة من صور الارادة البشرية في التطور وفي الانبعاث ..

وذلك ما حققه هذا الشاعر الشاب بادق مما حققه الشاعر الانكليزي المعاصر (ت.س. اليوت) فمن المعروف ان دلالات اليوت الانتربولوجية ، هي نفسها الدلالات القديمة ، ولا يمكن ان تخرج عنها ، او تفترض معنى جديدا لها .. فلا يمكن ان نقفز من دلالة بارسيفال ، لفيرلين في السطر ٢٠٢ من الارض الخراب ، حتى الى دلالته عند فاجنر ، فضلا عن دلالة حديثة له ، وكذلك الدلالة الكاثوليكية في نهاية القصيدة ، والتي استعارها من الاصول الثلاثة عشر للاوبانيشاد ، لا يمكن فصلها عن بقية الابيات التي هي دعوة عنيفة للعودة الى حضارة القرون الوسطى،وتتويج الكنيسة ملكة على الانسان . انه نكسة بشرية توازي اية نكسة قبلية اخرى تطلب من الانسان ان ينزع عنه رداءه الانساني ، وان يعود الى الوراء تابعا وحقيرا ، كما كان .

اما الشاعر العراقي ، فقد قفز بالاسطورة من تحقيرها للانسان وتصغيرها له ، الى التاكيد على فعالية الارادة البشرية ، والى الحض على العدالة والانسانية ..

ان العمل العظيم يعلن عن نفسه ، ويكشف رواءه في لحظة وحيدة وعبقرية ، وهذا العمل الشعري الجدير بالدراسة ، سيظل الى اجيال بعيدة مقياسا لارتباط الوعي والاخلاق والجمال بالحس البطولي والانساني والاسطوري في الفرد الشرقي الحديث (✶) ..

محيي الدين محمد

القاهرة

(✶) الانحراف الذي حدث في ثورة العراق ليس مما يشين نبوءة الترنيمة ، انه يعطيها املا جديدا في تصحيح الاوضاع ..

(✶) الارقام من ١ الى ٨ ، اشارات ميثولوجية من كتاب (الغصن الذهبي) لفريزر .
(The Golden Bough) Sir James G. Frazer



ذهب كريبس الى الحرب بعد تخرجه من معهد الميتودين بكنساس . وتظهره صورة فوتوغرافية بين زملائه الاكليريكيين ، وهم يحملون جميعا القبة العالية . وكان قد انضم الى رماة البحرية عام ١٩١٧ ، ولم يعد الى الولايات المتحدة الا عندما عادت الفرقة الثانية من « الرين » في عام ١٩١٩ .

وتظهره صورة اخرى وهو على « الرين » بصحبة شابتين المانيتين واحد العرفاء . ويبدو فيها كريبس والعريف كبيرين جدا بالنسبة لبزتيهما اما الالمانيتان ففير جميلتين . ولا يظهر « الرين » على الصورة .

في الوقت الذي عاد فيه كريبس الى مسقط رأسه باوكلاهوما ، كانت الحماسة التي يستقبل بها الابطال قد اصبحت مجرد ذكرى . لقد عاد متاخرا جدا . اما زملاؤه الذين سيقوا الى الخدمة فقد استقبلوا جميعا بحرارة عند عودتهم . واجتاحت البلد موجة عارمة من الهستيريا . ولم يتاخر رد الفعل . فقد بدا انهم يجدون كريبس سخيفا الى حد ما اذ يعود متاخرا جدا ، بعد سنوات من انتهاء الحرب .

وفي البدء رفض كريبس ـ الذي كان في غابات « بللو » وفي « سواسون » و « شمبانيا » و « سان ميبل » و « ارغون » ـ ان يتحدث عن الحرب . ولكنه ، بعد فترة ، احس بحاجة للتحدث عنها ، الا ان ما من انسان اراد الاصغاء اليه . لقد استمع الناس الى كثير من قصص الفظاعة حتى ما عادت الاحداث الحقيقية تثيرهم . وتبين لكريبس ان عليه ان يكذب كي يستمعوا اليه . وعندما فعل ذلك مرتين ، نفر هو ايضا من الحرب وقصص الحرب . وتملكه اشمئزاز ، بسبب كذبه من كل ما جرى له في الحرب . فكل الظروف التي كان يمكن ان تبعث فيه احساسا من الهدوء والاحترام ـ تلك الظروف البعيدة الان التي قام فيها بشكل بسيط وطبيعي بالعمل الوحيد الممكن لانسان في الوقت الذي لم يكن من شيء يجبره على ذلك ـ قد فقدت معناها وقيمتها ، بل فقدت وجودها نفسه .

وبالفعل كانت اكاذيبه بسيطة ، فنسب لنفسه امورا رآها اخرون او قاموا بها او سمعوها ، واورد بعض الاحداث المريبة والمألوفة عن الجنود كاشياء اكيدة . بل ولم تثر اكاذيبه اي احساس في قاعة البليارد . فاصدقاؤه ومعارفه الذين استمعوا الى اقاصيص مفصلة عن الالمان الذين وجدوا مقيدين بالسلاسل الى رشاشاتهم في غابات « الارغون » والذين لايستطيعون ان يتصوروا ـ وقد اعمتهم عنصريتهم ـ المقاتلين الالمان الا وهم مقيدون ، لم يتاثروا اطلاقا بحكاياته .

واشماز كريبس من تجربته في الكذب والمبالغة ، وكان من حين الى حين ، عندما يلتقي برجل اخر حارب حقا فيثرثران بضع دقائق في غرفة الملابس ، اثناء احدى السهرات مثلا ، يتخذ غريزيا موقف الجندي القديم بين الجنود الاخرين ، موقف الانسان الذي امضى حياته وهو خائف ، خائف الى حد مهيل . وهكذا فقد كل شيء .

كان ذلك في اواخر الصيف. كان ينام الى ساعة متأخرة ، ثم يستيقظ ليذهب الى المدينة ويبحث عن كتاب في المكتبة ، ثم يتناول غداءه في البيت ثم يقرأ على درجات المنزل الى ان يكتفي ، ثم يذهب الى المدينة من جديد ليمضي ساعات النهار الاكثر قيظا في قاعة البليارد القاتمة الرطبة لقد كان يحب لعب البليارد كثيرا .

وعند المساء كان يتعلم عزف الكلارينيت ، ثم يتسكع في المدينة ، ثم يقرأ وينام . وكان دائما ، عند اختيه الصغيرتين ، بطلا . ولو شاء لقدمت له والدته الفطور في فراشه . كانت دائما تدخل غرفته عندما يكون مضطجعا وتطلب اليه ان يروي قصصا عن الحرب ، ولكن انتباهها كان يتشتت دائما . ولم يكن والده يبالي بكل ذلك .

وقبل ان يذهب كريبس الى الحرب ، لم يكن مسموحا له بقيادة سيارة العائلة . كان والده يعمل في وكالة عقارية ، ويرغب دائما ان تكون السيارة تحت يده عند اضطراره لنقل العملاء الى الريف ليريهم ملكا او مزرعة . وكانت السيارة تقف دائما امام بناية « البنك الوطني الاول » حيث كان لوالده مكتب في الطابق الثاني . والان وقد انتهت الحرب فالسيارة ماتزال نفسها .

لم يتبدل شيء في المدينة باستثناء الفتيات الصغيرات اللواتي كبرن . لكنهن كن يعشن في عالم معقد جدا من تحالفات قد تحددت ومن تنافسات مستفلقة ، بحيث ان كريبس لم يستشعر في نفسه القوة والشجاعة ليدخل فيه . الا انه كان يحب ان ينظر اليهن . كان هناك كثير من الفتيات الجميلات . وكان لجميعهن تقريبا شعر قصير . وقبل ذهابه ، كانت الفتيات الصغيرات فقط او الفتيات المتساهلات يتزين هكذا . وكن جميعهن يرتدين صداري وقمصانا بياقة مستديرة. وكان ذلك يكاد يكون زيا موحدا . وكان يحب ، وهو على الدرجات ، ان ينظر اليهن وهن يسرن على الجانب الاخر من الشارع . كان يحب رؤيتهن يمشين تحت ظل الاشجار . وكان يحب اعناقهن المدورة من فوق صداريهن . كان يحب جواربهن الحريرية واحذيتهن بكعوبها المسطحة . وكان يحب شعرهن القصير ومشيتهن .

وكانت لا تجتذبنه ابدا عندما يكون في المدينة . انهن ماكن ليعجبنه عندما يشاهدهن في قاعة الشاي اليوناني . في الحقيقة ، انه ماكان ليشتهيهن . لقد كن ، في داخلهن ، معقدات جدا . كان الامر يتعلق بشيء اخر . كان يشتهي ،بشكل غامض ، صديقة ما ، ولكنه ماكان ليبذل جهده ليحصل عليها . لقد كان يود لو كانت له احداهن ، ولكنه لم يكن راغبا في ان يمضي كثيرا من الوقت للفوز بها . لم يكن راغبا في اقلاق نفسه بالمكائدة والدبلوماسية . لم يكن ، باي ثمن ، راغبا في المغازلة . لم يكن راغبا في ان يكذب من جديد، فما كان ذلك ليستحق العناء .

كان يرفض ايضا النتائج . كان يرفضها نهائيا . كان راغبا في ان يعيش دون نتائج . ولم يكن اصلا يشعر بحاجة حقيقية الى صديقة . لقد علمه الجيش ذلك . كان الظن شائعا بأنه لايمكن الاستغناء عن فتاة . كان جميع الناس تقريبا يعتقدون ذلك . لكن ذلك باطل . ما من احد بحاجة الى المرأة .

وكان هذا اسخف ما في الامر . فمن جهة كان احد الشبان يشيع ان الفتيات لايعنين شيئا بالنسبة اليه وانه لايفكر فيهن ابدا وانهن لايثرن فيه اية حرارة . ثم يتباهى اخر بانه لايمكنه الاستغناء عنهن ، مؤكدا انه بحاجة اليهن دائما وانه بحاجة الى فتاة في فراشه كل الليالي .

كل ذلك لم يكن الا اكاذيب . اكاذيب في الحالة الاولى وفي الثانية . ليست هناك حاجة الى الفتيات اذا لم يفكر بهن . لقد تعلم ذلك في الجيش ، ثم ، عاجلا ام آجلا ، ينتهي الامر بالحصول على احداهن . ان المرء عندما يكون ناضجا حقا بالنسبة للمرأة ، يعثر دائما على احداهن . عاجلا ام آجلا يتم ذلك دون حاجة الى التفكير فيه . لقد تعلم كل ذلك في الجيش .

والان لقد كان يرغب كثيرا لو كانت له فتاة بشرط ان تأتي اليه دون كلام . لكن الامر كان هنا، في بيته ، معقدا جدا . كان مدركا ان التجربة الماضية لاتتجدد ، وان من العبث الاعتماد اليها . وهذا ماكانت تمتاز به الفرنسيات والالمانيات . فكل هذه الاحاديث غير مجدية معهن . لم يكن الكلام ممكنا ولم تكن هناك حاجة اليه . كان كل شيء بسيطا وكان التفاهم جيدا . وفكر اولا بفرنسا ثم بألمانيا . وبالنتيجة كان يفضل المانيا . لم يكن راغبا في مغادرة المانيا . لم يكن راغبا في العودة الى بيته . الا ان الامر قد انتهى به الى العودة . وها هو الان هنا من جديد ، جالسا على الدرجات .

كان يحب الفتيات اللواتي يجتزن الرصيف المقابل ولكن العالم الذي كن يعشن فيه لم يكن عالمه . كان يفضلهن من نواحي كثيرة على الفرنسيات والالمانيات . كان يتمنى لو كانت له احداهن . ولكن ذلك لايستحق عناء المحاولة . لقد كن بمجموعهن جميلات ، وكان يحبهن هكذا . كان ذلك رائعا . ولكنه ما كان ليندفع في المباهاة . لم تكن هناك واحدة يرغب فيها الى ذلك الحد . الا انه كان يجد لذة في النظر اليهن جميعا . كلا . ان ذلك لايستحق العناء. ليس في الوقت الذي تصبح فيه الحياة محتملة من جديد .

كان جالسا على الدرجات يقرأ كتابا عن الحرب . كان مؤلفا تاريخيا يجد فيه من جديد قصة المعارك التي اشترك فيها . ولم يستهوه من قبل كتاب الى هذه الدرجة . وتمنى على كل حال لو وجد فيه خرائط اكثر . كان يقلب صفحات كتابه ، وهو سعيد بقراءة قصص مفيدة حقا وموضحة بخرائط مفصلة . والان انه يدرك كيف كانت الحرب فعليا . لقد كان جنديا طيبا . وهنا كان كل الخلاف .

وفي صباح يوم ، بعدشهرمن عودته تقريبا ، دخلت والدته الى غرفته وجلست على السرير وهي تلف مئزرها . وقالت :

ــ هارولد ! لقد تحدثت مع والدك البارحة مساء . انه لايطلب اكثر من ان تأخذ السيارة للخروج مساء .

ــ ايه ؟ قالها كريبس وهو لم يستيقظ جيدا بعد . أخذ السيارة ؟.. آه . نعـــم ؟

ــ نعم . ان اباك يعتقد منذ بعض الوقت انك تستطيع ان تأخذ السيارة للخروج مساء ، عندما يحلو لك ذلك .. ولكننا لم نتكلم في هذا الامر الا البارحة مساء .

قـال كريبس :

ــ انني اراهن بانك انت التي ازعجته للحصول على ذلك .

ــ ابدا . ان اباك هو الذي عرض القضية .

ــ حقا ؟ لكنني اراهن بانك انت التي ازعجته .

وجلس كريبس في سريره .

وسألته والدتـه :

ــ أتريد النزول للفطور ، هارولد ؟

فأجـاب كريبس :

ــ عندما انتهـي مـن ارتـداء ثيابـي .

وذهبت والدته . وبينما كان يغتسل ويحلق ويلبس للنزول الى قاعة الطعام لتناول فطوره ، كان يسمع طقطقة شيء يقلى ، صادرة من المطبخ. وعندما جلس الى المائدة حملت اليه اخته البريد . وقالت :

ــ حسنا ! هاري ! ايها المرموط العجوز ! لماذا استيقظت ؟

وتطلع كريبس اليها . كان يحبها كثيرا . كانت المأثورة عنده .

ــ هل قرأت الصحيفة ؟

وناولته « نجمة كنساس سيتي » فنزع عنها لفافتها وفتح الصفحة الرياضية ثم طوى الصحيفة واسندها الى ابريق الماء مثبتا اياها بصحفته بشكل يستطيع فيه القراءة وهو يأكل .

وظهرت والدته امام باب المطبخ ، وقالت :

ــ هارولد ! هارولد ! ارجوك لا تدعك الصحيفة . ان والدك لايستطيع قراءتها اذا كانت مدعوكة .

فقال كريبس :

ــ انني لاادعكهـا .

وجلست اخته الى المائدة وتطلعت اليه وهو يقرأ .

ــ سنلعب البيسبول في ساحة المدرسة بعد ظهر اليوم .

وانا التي ستقذف بالكـرة .

فقـــال كريبس :

ــ رائع . وهل تشعرين انك كفؤ لهـا ؟

ــ انني اقذف افضل من عدة صبيان مجتمعين . انني اقول لهم كل ما علمتنيه . ان الفتيات الاخريات لايساوين شيئا كبيرا .

ــ آه . حسنا . قال كريبس .

ــ انني اقول لهم انك فتاي . ألست فتاي ، هاري ؟

ــ وكيـف ؟

ــ تعتقد انه لايمكن ان يكون الاخ حبيبا لمجرد انه اخ ؟

ــ لا ادري .

ــ لا . انك تدري . قل لي هاري : الا يمكنك ان تكون فتاي لو كنت اكبر سنا ولو كنت تريد حقا ؟

ــ بالتأكيد . انـك مـن الان صديقتي .

ــ أحقـا انـا صديقتـك ؟

ــ بـــدون شـــك .

ــ اتحبني ؟

ــ هـــه ....

ــ هـــل ستحبني دائمـــا ؟

ــ بالتأكيـــد .

ــ هل تأتي لمشاهدتي وانا العب البيسبول ؟

ـ ربمـــا .

ـ اواه ! هاري ! انــك لاتحبني . لو كنت تحبني لرغبت في المجيء لمشاهدتي وانــا العب البيسبول .

وخرجت والدة كريبس من المطبخ ، ودخلت الى غرفة الطعام . كانت تحمل صحفة فيها بيضتان بشحم الخنزير ، واخرى فيهــا معجنات . وقـالـــت :

ـ دعينا لحظة ، هيلين . اريد ان اقول كلمة لهارولد .

ووضعت البيضتين امامه وجاءت باناء فيه شراب القيقب للمعجنات ثم جلست بمواجهة كريبس . وقالت :

ـ اريد لو تترك هذه الصحيفة لحظة . هارولد !

وخفض كريبس الصحيفة ثم طواها .

وسألته والدته وهي ترفع نظارتيها :

ـ هل قررت ماتريد ان تعمل ؟

فقــال كريبس :

ـ كـــلا .

ـ الا تعتقد انه قد حان الوقت لذلــك ؟

كانت تقول ذلك بلطف . و كانت تبدو قلقة .

وقــال كريبس :

ـ لــم افكــر في ذلــك بعــد .

فقالت والدتــه :

ـ ان الله يحتفظ بعمل لكل منا على الارض . وليس هناك مكــان للعاطلين في مملكته .

واحس كريبس بانه متضايق وبانه صعب الانقياد ، كما هو الامر دائما.

وتابعــت والدتـــه :

ـ انني قلقة جدا من اجلك ، هارولد . وانا اعرف انك قد تعرضت لكثير من التجارب واعرف كم الرجال هم ضعفاء . انني اعرف ان جدك العزيز ـ ابي نفسه ـ قد روى لنا قصصا عن الحرب الاهلية ، وقــد صليت لاجلك . انني اصلي آناء النهار من اجلك ياهارولد .

كان كريبس يتطلع الى شحم الخنزير وهو يتجمد فــي صفحته .

وتابعــت والدتــه :

ـ ان والدك قلق ايضا . انه يعتقد ان لاطموح عندك ، ان لا هــدف محددا لك في الحياة . لقد وجد شارلي سيمونز ، وهو بعمرك ، مركزا محترما جدا ، وسيتزوج قريبا . وقد وجد جميع الشبان وظيفة. انهم يريدون الوصول الى شيء ما . ويمكن من الان التاكد من ان شبانــا كشارتي سيمونز سيصبحون قريبا نافعين للوطن .

ولم ينطق كريبس بحــرف .

وقالت لـــه والدتــه :

ـ لاتعاند بهذا الشكل ، هارولد . انت تعلم اننا نحبك . وانني لااقول لك حقيقة الامر الا لخيرك فقط . ان اباك لايريد التعدي على حريتك . انه يعتقد انه يجب ان تحصل على الاذن بقيادة السيارة . واذا مااردت ان تأخذ احدى فتياتنا اللطيفات للنزهة فاننا سنسر لذلك . نريــدك ان تلهو . لكن يجب ان تبدأ العمل . هارولد ! ان اباك يترك لـــك الحرية في هذا الموضوع . كل المهن شريفة ، كما يقول . ولكن يجــب ان تبدأ باحداها . لقد طلب الي ان اكلمك هذا الصباح ، وتستطيع الان ان تذهب لمقابلته في مكتبه .

فقال كريبس :

ـ اهذا كـــل شيء ؟

ـ نعم . الا تحب أمك ياولدي العزيز ؟

ـ لا .

كانت والدته تتطلع اليه وهي جالسة في الجانب الاخر من المائدة ، والتمعت عيناها واخذت في البكاء .

وقـــال كريبس :

ـ انني لا احــب احـــدا .

لكــن لمــاذا اجابها هكذا . انه لم يكن ليستطيع ان يشرح لهــا ، لايستطيــع ان يفهمهـــا .

كانت تلك حماقة من جانبه . لقد نجح فقط في جرحها . واقتــرب منها واخذها من ذراعها . كانت تبكي ، ورأسها بين يديها .

وقـــال :

ـ لم اقصد ان اقول ذلك . لقد كنت خارجا عن نفسي . هذا كــل شيء . لم اكن اريد القول بانني لا احبك .

كانت والدته ماتزال تبكي .

ووضع كريبس ذراعه على كتفها :

ـ الا تستطيعين تصديقي ، قولي مـامــا ؟

وهزت والدته برأسها .

ـ ماما ، ارجوك ، صدقينـــي !

ـ نعم ، قالت الام بصوت متقطع . ورفعت عينيها اليه :

انني اصدقك ، هــارولــد .

وقبل كريبس شعرها . وادارت وجهها نحوه . وقالت :

ـ انني امك . لقد حملتك دائما على صدري عندما كنت طفلا صغيرا .

وشعر كريبس بضيق وبنوع من الغثيان .

ـ اعرف ذلك ، ماما . سأحاول ان اكون ابنا طيبا .

وسألته والدتـــه :

ـ هل تريد ان تركع وتصلي معي ، هارولد ؟

وركعا بحذاء مائدة قاعة الطعام وبدأت الام وكريبس بالصلاة .

ـ دورك الان ، هارولد .

فقال كريبس :

ـ لا استطيـــع .

ـ حـــاول ، هارولـــد .

ـ لا استطيـــع .

ـ هل تريد ان اصلي عنـــك ؟

ـ نعم .

فصلت والدته حينئذ عنه ، وقاما . وقبل كريبس امه وخرج مــن المنزل . لقد حاول كثيرا الا يعقد حياته . لكن هذا الفصل لم يثره اطلاقا لقد تملكته فقط شفقة على والدته التي اضطرته الى الكذب . سينطلق الى كنساس سيتي ، وسيجد فيها عملا ، وستسر بذلك . وقد لايتجنب فصلا اخيرا قبل رحيله . لكنه لن يذهب الى مكتب والده . انـــه سيهرب هذه المرة . لقد كان يريد حياة بلا قصص . كان لابد له مــن ذلك ، ولكن كل شيء ، قد انتهى الان على كل حال . وسيذهب لمشاهدة هيلين وهي تلعب البيسبول في ساحة المدرسة .

ترجمة جورج طرابيشي

مُناقشَات

حول « العروض العربي بين الكم والارتكاز »

بقلم ملك عبد العزيز

أحب اولا ان اقرر انني – كاكثر من يكتبون الشعر – لااصبر على بحوث العروض ، وان كنت قد صبرت عليها مرة في مقالي « حول اوزان الشعر الحر » فانني اضيق بها في اكثر الاحيان . ولكني رغم ذلك رأيتني في حاجة الى ان اعلق على مقال الاستاذ الحساني حسن عبد الله المنشور في عدد ايلول تعليقا قصيرا .

واول مالفت نظري هو اللهجة الجديدة التي كتب بها الاستاذ الحساني مقاله الاخير ، ففي مقاله الاول « نازك وعروض الشعر الحر » كان يخاطب نازك في كثير من الادب فيقول « فهل تقبل الشاعرة المعروفة من كاتب غير معروف ان يقول لها : نازك ، ان في شعرك غلطة » ولعل هذا الاسلوب المهذب هو الذي شجعني على مناقشة ارائه . فاذا به في مقاله الاخير يتحدث عن احد اساتذة الجيل الكبار بلهجة عجيبة لاتحتمل ماينبغي من احترام وتوقير ، فيقول « والمقطع هو الداهية الكبرى » التي تسلطت على عقل الدكتور مندور » كما يقول « ولكنه في غمرة « حمى الاختراع » والتجديد وتوليد النظريات « بالعافية » يرفض ان يبحث.. » وامثال تلك العبارات .

ولكني اقول للاستاذ الحساني حسن عبد الله الطالب بدار العلوم : انتظر قليلا حتى تتعلم ماتعلمه الدكتور مندور ، وتدرس مادرسه ، وتنفق ايامك ولياليك في دراسة اللغات القديمة والحديثة وفقهها ، ثم تحدث بعد ذلك بما يمليه عليك ادبك الجميل وذوقك المرهف .

ولعل هذه الطريقة الجديدة في المناقشة قد حملته على كثير من التسرع وعدم الدقة ، فانساق في فرحة غامرة يلقي الاحكام ويسفه العارفين .

لقد ادهشني ايضا تنصله من انه في مقاله السابق كان يستخدم الطريقة الحديثة كما شرحها الدكتور مندور في « الميزان الجديد » في مناقشته لموسيقى الشعر ، كأني قد نسبت اليه جريمة !! مع انه جعل هذا الكتاب احد مراجعه « هامش ص ٥٣ عدد حزيران » . كما انه خلال هذا المقال اكثر من استخدام كلمات « المقطع الطويل والمفتوح والمغلق والمقطع القصير والكم والارتكاز والتعويض » وهي كلها اصطلاحات لم ترد كلها او بعضها في كتاب بالعربية الا في كتب الدكتور مندور او الدكتور ابراهيم انيس . او لعلها وردت في كتب الخليل ونحن لاندري!! واظنني لست بحاجة الى ان اعيد نقل النصوص التي وردت فيها هذه الالفاظ فهي تملأ صفحات ٥٢ ، ٥٣ من عدد حزيران .

بل ان كل الابيات التي وزنها السيد الباحث في هذا المقال ، قد وزنها بطريقة المقطع الحديثة ايضا ، ولم يزنها بطريقة الاوتار والاسباب التي نسبها للخليل ، ولا بطريقة الساكن والمتحرك التي جرى عليها وزن الشعر العربي في كافة عصوره حتى اليوم ، وهذا فقط ماكنت اعنيه بقولي انه يتبع الطريقة الحديثة . اما انني كنت اسند اليه ايمانه بنظرية الدكتور مندور في الكم والارتكاز فذلك شرف لم يخطر ببالي ان يناله الدكتور مندور من السيد الباحث الكبير !!!

ويقول السيد الباحث ان الخليل قسم الكلام او الشعر الى الاوتار والاسباب وانه لذلك لم يكن بحاجة الى ان يتحدث عن المقطع او يشير اليه ، ولكن ، من أي شيء تتكون الاسباب والاوتاد ؟ ألم يشرح الخليل مم تتكون حتى يفهم الناس اصطلاحه ؟ ألم يشرحها بانها تتكون من حركتين فساكن مثلا او حركتين يفرقهما ساكن او غير ذلك ؟ واليس يعني هذا رجوعا الى الحركات والسكنات التي سارت عليها دراسة العروض حتى اليوم ؟ وهذه الاسباب والاوتاد التي قال بها الخليل الا تتكون من مقاطع ؟ فهل ترانا خرجنا عن جادة الصواب اذا قلنا ان المقطع هو وحدة الكلام ، وان الخليل لم يهتد اليه لانه بالفعل لم يذكره . وهل يظن الكاتب الفاضل اننا ننتقص من قدر الخليل حين نقول هذا القول ؟..

نحن ونحترم الخليل ، ونحترم كل ماقام به القدماء من بحوث في اللغة، وهذه هي الروح (1) التي كتب بها الدكتور مندور كافة بحوثه في العروض العربي ، ولكن ليس معنى ذلك ان نقدسهم ونقول « ليس في الامكان ابدع مما كان » لان التفكير بهذه الطريقة هو الذي اوقعنا في عصور التخلف الماضية التي ماتت فيها اللغة ومات التفكير وانتشرت الخرافات ، بعد ان اقفل باب الاجتهاد ، وتحكيم العقل في استنباط الاحكام التي تناسب روح العصر .

واذا كان صاحب العقد الفريد قد اهتدى حقا الى بعض ما اهتدى اليه الدكتور مندور في بحثه بكلمة القاها عرضا في احد كتبه ، فهل معنى هذا انه كان عليه ان يكف عن استخدام وسائل العلم الحديثة للتثبت مما قاله القدماء . وهل اذا كان القدماء قد قاسوا المسافات بالنظر او استمعوا الى القلب بالاذن الا يحق لنا اليوم ان نستخدم الوسائل والاجهزة الكهربائية الحديثة ؟... على ان الخليل نفسه وهو ابو العروض لم يذكر ان موسيقى الشعر لاتضطرب الا اذا حدث تغيير في الاوتاد « او النواة الموسيقية » كما ذكر الدكتور مندور وهذا الرأي هو خلاصة بحثه . بل اغلب الظن ان احدا لم يكن ليلتفت الى ما قاله ابن عبد ربه لولا البحث العلمي الذي قام به الدكتور مندور ، لان ابن عبد ربه لم يكن باحثا منهجيا ، بل كان يلقي ملاحظات متفرقة . ولو كان التفت الى هذه الملاحظة احد من قبل لدخلت في صلب علم العروض ولتداولتها كتبه .

على ان الاستاذ الحساني يمعن في خطئه حين يحمله اعتداده وفرحته بنفسه على الوقوع في اخطاء ماكان اغناه عنها . فهو يجزم في ثقة يحسد عليها بان اصطلاح النواة الموسيقية ليس الا سرقة لاصطلاح الوتد المجموع ولكن الدكتور مندور يقول ان النواة الموسيقية – التي ينكسر الشعر اذا لحقها تغير – تتكون من مقطع طويل ومقطع قصير متجاورين، وعلى المقطع الطويل يقع الارتكاز وكلمة « متجاورين » لاتعني لغويا ان يكون المقطع الطويل قبل القصير بل قد يجيء بعده ، وبذلك لاتكون النواة الموسيقية هي الوتد المجموع كما جزم السيد الحساني ، بل قد تكون الوتد المفروق ايضا .

كما انه ادعى ان الدكتور مندور قد « انخدع بما يبعثه اطلاق

(1) كتب الدكتور مندور في كتابه « الميزان الجديد » ص١٨٨: «ليس من شك في ان الخليل بن احمد كان رجلا عبقريا نفخر به مع من نفخر من اجداد ، ولكن العلم لايعرف الوقوف الـخ .... »

الاحكام من الاعتداد بالنفس .. فيقول ان نواته تلك تتكون في الشعر العربي « اطلاقا » من مقطع طويل ومقطع قصير متجاورين » .

ولكن لسوء الحظ ان الدكتور مندور كان اقرب الى تواضع العلماء وتحرجهم من تلميذه النجيب . فهو يصرح (١) تصريحا واضحا لا لبس فيه بانه اجرى تجاربه على ثلاثة أبحر من الشعر العربي فحسب بمعمل الاصوات بباريس وهذه الابحر هي : الطويل والبسيط والوافر . وهو لم يعمم نتائجه على الشعر العربي كله ، بل انه كان يتوق الى ان يتمم بحثه بعد عودته من بعثته وكان هذا امله حين كنا تلاميذ له في كلية الاداب ، لولا ان الكلية لم تجد المال الكافي في ذلك الوقت لاستحضار معمل للاصوات ، ولعل الاستاذ الحساني وهو طالب نابه بدار العلوم ومهتم بالعروض ان تتيح له كليته دراسة عليا في هذا الفن مصحوبة ببعثة في دراسة فقه اللغة ، وان ترسله ليجري تجاربه في معمل للاصوات بالخارج ، او ذلك الذي سمعت انه قد احضر مؤخرا بجامعة الاسكندرية فلعله عندئذ يتم جهود من سبقوه بدلا من ان يحاول تحطيمها ، ولعله يقدر جهادهم ، ولعلنا عندئذ نستطيع ان نستمع اليه في تقدير حتى اذا حلا له ان يعارضهم .

على ان هذين الخطأين اللذين وقع فيهما الاستاذ الباحث قد جعلاه يرى ان بحر الخبب خال من النواة الموسيقية في مثل قول شوقي :

« مضناك جفاه مرقده » لان التفعيلتين الاولى والثالثة لا تحتويان على تلك النواة « كما فهمها الباحث » . ورغم ان بحر الخبب ليس من تلك الابحر التي درسها الدكتور مندور ، فان الاستاذ الحساني لو تأمل التفعيلتين اللتين اشار اليهما لوجد بهما نواتين موسيقيتين هما « ناك في مضناك » ـ باعتبار الهاء مشبعة الضم ـ في مرقده » ذلك ان الدكتور مندور كما سبق ان اسلفنا قال ان النواة تتكون من مقطعين متجاورين احدهما طويل والاخر قصير ولم يحدد ايهما يسبق الاخر ، لان كلا من الحالتين صالحة لتكوين النواة الموسيقية .

ثم ان الاستاذ الحساني تجرفه الحماسة فيقول « ان الارتكاز وعدم الارتكاز طريقة عرجاء لادراك الايقاع في الشعر العربي » ثم يعود فيناقض نفسه بعد سطر واحد حين ينقل قول الدكتور ابراهيم انيس عن طبيعة الانشاد فيقول « مراعاة التفعيلات في الوزن واعطاء النبر « اي الارتكاز » حقه من الضغط ومراعاة النغمة الموسيقية » .

اما مماراة الاستاذ الحساني في قواعد الارتكاز اللغوية فأمر من الصعب مناقشته فيه ، لانه من السهل ان ينطق الكلمة بالطريقة التي تعجبه هو ثم يقول هكذا ينطقها الناس . ومن هذا قوله ان الارتكاز على ميم « مسامير » لايزيد على الارتكاز على ميم « مسمير » . كما انه يظن ان هناك تناقضا في قول الدكتور مندور ان الارتكاز لايقع الا على المقطع الطويل في حين انه يعترف بوقوعه على الميم في مسمير . ونسى ان قول الدكتور مندور الاول ينصب على الارتكاز في الشعر فحسب ، وهو الذي لا يكون الا على المقطع الطويل . اما في الكلام العادي فمن الجائز ان يكون على مقطع قصير لان بعض الكلمات قد تخلو من اي مقطع طويل، وان كان بالبداهة ان يكون ارتكازا اساسيا في كلمة مثل مسمير بل ارتكازا ثانويا ، لان الارتكاز الاساسي سيكون على المقطع الطويل« م » ، وكل هذه الحقائق تسجلها الرسوم الكهربائية التي تنتج عن الذبذبات الصوتية امام اجهزة الاصوات ، فالذبذبة القوية الناتجة عن الارتكاز الاساسي تحدث في اوراق التسجيل خطا أطول وأعمق مما يحدثه الارتكاز الثانوي ومما تحدثه الحروف العادية الخالية من الارتكاز .

وبعد ، فلن أستقصي كل ماقاله الاستاذ الحساني وأملته عليه حماسة الشباب وفرحته ، فحسبي ماذكرت ، ولكني سأشير الى مسألتين صغيرتين تتعلقان بشخصي الضعيف . فقد ذكر الاستاذ الباحث انني أبرر استخدامي لمفاعيله في بحر الرجز بانها عودة لكم التفعيلة الاصلية فلماذا اذن لم استخدمها بنفسها . ولكني اقول انني لم ابرره بذلك بل بررته بحاجات نفسية هي التي تدفع الشعراء كافة الى استخدام التفعيلات المزحفة بدلا من الاصلية ، ولكني أضفت ان الاذن لاتنبو عنها لانها من ناحية تساوي التفعيلة الاصلية في الكم ، ومن ناحية اخرى وهذا هو الاهم انها اقرب الى الاصل وزنيا من كثير من زحافاته . وفي الحق انني حين استخدمتها لم تكن في اذني مفاعيلن بل متفعللن اي بتشديد اللام وهي كما ترى قريبة جدا من متفعلن لولا الثقل الذي يلحقها ، وهي اقرب من مفتعلن وكذلك فعلتن التفعيلتين المزحفتين المعترف بهما .

كما ان الاستاذ الذي ينكر الحاجات النفسية للشاعر يقول في مفتتح مقاله « ان التجديد في موسيقى الشعر لا يقتصر لذاته ، ولكن المقصود منه قبل كل شيء فتح افاق جديدة للتعبير ، على انني لم أؤيد كل تجديد أو خروج على القواعد الا اذا استند الى اصول موسيقية ونفسية عامة يمكن اقرارها .

وأخيرا فاني أبشر الاستاذ الحساني باني لن اعود لمناقشة مسائل العروض ، لاوفر وقتي وجهدي لاشياء اجدى علي واقرب الى نفسي وان كنت اتمنى على الله ان يتحقق ماتمناه الاستاذ ساخرا من ان يدخله في زمرة الشعراء ليستطيع ان يفهم حاجاتهم النفسية ، فانني اعتقد اعتقادا صادقا ان اي ناقد حقيقي لا بد ان يكون قد عانى تجربة الانتاج

(١) ص ١٩١ من كتاب « في الميزان الجديد »

الفني شعرا او نثرا ولو لبعض الوقت ليعرف حاجات النفس الانسانية حين تتهيأ للخلق .

وبعد ، فاني احب ان اهمس للباحث الفاضل بان الطريقة التي كتب بها مقاله هذا لم تكن الطريقة التي يجمل بطالب نابه ان يتحدث بها عن اساتذته الكبار أمثال الدكتور مندور ، وان من أملى عليه تلك الالفاظ الجارحة او نصحه بها لم يكن بناصح ولا أمين ..

القاهرة — مالك عبد العزيز

الى السيد عادل الهاشمي

بقلم محيي الدين محمد

في مقالك تناقض هام احب ان الفت اليه النظر :

تقول : « واخيرا ، هل من الكرامة والعزة في شيء ان نقول ونردد — ونحن امة العدالة والحرية في الفكر والحكم — اننا لم نتنسم اريج حرية الفكر منذ الفي عام ..؟ ان من يقول ذلك مفتقر الى دليل . وما لسنا دليلا . أما الدلالة على تمتع امتنا بحرية الفكر فتفوق الحصر وتملأ اسفار التاريخ .. » (انتهى قولك) .

وذلك يعني ان الامةالعربية كانت وما زالت مجتمعا حر العقيدة مفتوحا للنقد والنقاش ، وطرح الاراء العقلية او الملحدة وغير الملحدة ، وان انعدام الشهداء كان بسبب من وجود حرية الفكر .

ثم تقول : « وعلى مدى العصور ، وفي عصرنا الحاضر شهداء لنا كثر في سبيل حرية الفكر وابطال مناضلون .. » (انتهى ..)

وذلك يعني ان الامة العربية كانت سجنا طويل الامد للمفكرين الاحرار والملاحدة . اي كان هناك شهداء فكر اضطهدتهم الدولةالاسلامية وعاقبتهم وعذبتهم ، وذلك يؤكد عدم وجود حرية فكر ..

فاي القولين — من فضلك — تريد ان تثبت ، لنستطيع محاجاتك .؟!

وشيء اخر اود ان اجلوه نهائيا بالنسبة لك وبالنسبة للسيد احمد صدقي الدجاني، ومن يشايعكما الرأي ، ويحب ان يطلق على اوصافا مسلية للغاية ..

ان حضارتنا الشرقية كانطلاقة ، كانت موجودة بتأثير التيار العقلي اليوناني ، ثم همدت لظروف متعددة اهمها ان الذهن الشرقي لم يتحول كلية وجذريا من تيار الزهد والاسطورية الى التسليم بالواقع الرياضي والعلمي الحقيقي . بل كان تطوره قمميا ، ولم تكن اساسه القاعدة في اعم اشكالها واوسعها .. نحن نعلم ان العرب عرفوا الكيمياء والفلك والجبر وحساب المثلثات ، ولكن منطق الحقيقة والانصاف يجعلنا نقول ان حركة الترجمة عن اليونانية هي التي حولت الذهن العربي هذا التحويل الى العلم ، ويكفي ان نورد مقالا صغيرا على ذلك ببعض الكتب التي ترجمت : الفيزيقا لارسطو . رفع الاثقال لايرن . الالات المصوتة على بعد ستين ميلا لمورتس . هيردن الصغير في الالات الحربية . قتنزينيوس وهيرون الاسكندري في الالات المفرغة للهواء والرافعة للمياه . هذا عدا كتب الموسيقى والاصوات والفلك والرياضيات التي ترجمت بأكملها ، بل ان الدستور العلمي ذا الاحكام التسعة الذي وضعه (اخوان الصفاء) الذين تستشهد بهم — ليس الا النص اليوناني للمقولات العشر المسماة (كاتيجورياس) .

لقد كان الذهن العربي احتوائيا وخالقا . ولكن مقدار الخلق فيه كان اضعف بكثير من مقدار المخزون الذي اضيفت اليه مقادير قليلة من شخصيتنا الذاتية ، وكان ذلك لان العلم كف عن ان يصبح حركة وتيارا، وصار كهانة واجتهادا . وان القول بان القرآن هو الذي خلق فينا وعينا العقلي ، كلمة جميلة وشعرية للغاية ، تحتاج من الاقناع المنطقي اكثر مما تحتاج الى الترديد الببغائي واستيراد جمل من المستشرقين وجوستاف لوبون خاصة .

ان الغرب ذكور واناث . والشرق العربي ذكور واناث ، فاذا طالبنا بان نتشبه بهم كبشر تحولوا من عقلية العاطفة الى عقلية الذهن ، فليس من اجل ان تصيح انت والدجاني :

واسلاماه !! لقد حل علينا الكفر والبلاء!!

بل من اجل ان يكون تاريخنا الراهن اعظم وانظف واروع من ماضينا القديم .

تقول ان التشريع الاسلامي عقلي . وانا اقول لك انه منذ كان التشريع وكانت اصوله ، وحتى الان ، ما زال العربي فقيرا ومريضا لم يتقدم خطوة واحدة ، ولا تقل لي ان ذلك ليس عيب التشريع وانه عيب المطبقين ، لئلا اقول لك ان النظرية لو عسرت على التطبيق يصبح الخطأ فيها اولا قبل كل شيء .. عندما نادي بزرع عقلية العلم والاشتراكية في ارضنا ، لااخون بلادي ولا احب لوجهها الجميل ان يكون نسخة من انكلترا او فرنسا ، بل احب قبل كل شيء ان استفيد من خبرات الغرب التكنولوجية في القفز بمستوى المعيشة في وطني الى مستوى الغربي واحسن ..

ولا تنس ان العلم ليس وقفا على امة أو وطن او جماعة . انه رموز سحرية انسانية تفتح المغاليق وتكشف الغوامض . لقد نقله الصيني بدون ان يفقد صينيته ، ونقله الروسي بدون ان يفقد روسيته .

ان الحضارة هي بناء يشد ازره الماضي والحاضر والمستقبل . هي مخطط عقلي وهادف . له اصول ومنطق وطريقة ، فاذا اردنا بناء امتنا من جديد وعلى اسس عصرية ، فلن يسعنا ذلك اذا القينا بتراثنا في المحيط ، ولن يمكننا ان نتحول الى الغرب كلية لاننا في هذه الحالة معرضون لفقدان وجهنا الروحي الذي نتميز به ، وحضارتنا الخاصة بنا جدا ، واذن فما هي الطريقة المثلى لتحويل ذهننا من واقعه الاسطوري الى واقع علمي ، اذا كانت عودتنا الى ماضينا لاتحقق ذلك ..؟

١ — ان النقطة العقلية التي انطلق منها الغرب والشرق كانت الذهن اليوناني .

٢ — انطلق الغرب من تلك النقطة بالذات ووسع فيها الى منتهى حدودها ، وذلك بعد ان جمدت المسيحية لفترة طويلة ذلك النشاط العظيم ..

٣ — سكن الشرق في هذه النقطة مدة (حركة الترجمة واحياء العلم) ثم التفت كلية الى الزهد .

٤ — اذا شئنا ان ننطلق مرة اخرى ، فمن اين تبدأ هذه الانطلاقة .؟ هل من الذهن اليوناني القديم، ام من تاريخنا العلمي المحول من اليونان ، ام من الغرب مباشرة ...؟!!

اخشى لو طرحت ردا على هذه المشكلة الهامة للغاية ان يكون مقالي في العدد الممتاز (الادب الثوري) غير ذي موضوع ، لانه الروح التي كتب من اجلها المقال .

اما اولئك الذين اثاروا زوبعة حول مقالي (مشكلة حرية الفكر) ، فاعترف ان واحدا منهم لم يفهمه جيدا ، واعذرهم في ذلك ..

القاهرة — محيي الدين محمد

« النور بالثمن » ايضا ...

بقلم عايدة مطرجي ادريس

قرأت رد الاستاذ سمير نير على نقدي لقصته « النور بالثمن » فرأيت ان اوضح الامور التالية :

يقول الاستاذ سمير ان القصة ، كما تبدو من خلال نقدي ، فن يخاطب الذات ، وهي بالتالي متروكة لنفسية القارىء واحاسيسه . وهي في الحقيقة ليست كذلك .

اقر بان القصة ، ككل اثر فني ، نعتمد في فهمها وتذوقها على ذاتية الناقد ومختلف تأثراته النفسية . فكما ان القصة ، وهي عمل ابداعي ، ملتصقة اشد الالتصاق بذات الفنان وانطباعاته الذاتية ، كذلك الناقد ، ودوره الابداعي لا يقل عن دور الخلاق ، يتعلق ايضا بذاته . ان عملية النقد عملية انسانية محضة . انها تصدر عن ذات حية ، فالى اي شيء نراها تتجه ؟ اليست الى ذات اخرى تتلقاها وتنفعل بها انفعالا قد يتعدى حدود الاحساس ليشمل الذات بمختلف ابعادها الحسية والشعورية والفكرية ؟ من هنا كان العمل الفني – ومنه النقدي – غير العمل العلمي ولذا كانت نتائجه متباينة اشد التباين .

وانا لا انكر بان هنالك قواعد يمكن ان يعتمدها الناقد ، ولكن ليس من الضروري على الاطلاق ان يبقى اسيرا لها . لا شك ان على الناقد ان يتثقف ويطلع على مختلف النظريات وتطبيق تلك النظريات فيهضمها . ولكن اذا ما برز امامه الاثر الذي سينقده فيجب ان يكون ذهنه خاليا من كل شيء ، من كل انفعال مسبق او نظرية مستوردة . ان انطباعاته الشخصية وصدى ثقافته ومعلوماته التي صقلت نفسه ومزاجه صقلا اصبحت فيه شيئا لا ينفصل ولا يتجزأ من نفسه هي وحدها التي يجب ان تبقى وان تقيّم . ان الفنان حر في ان يستقي معينه من نفسه ، من احاسيسه وانفعالاته الفكرية ، فلماذا لا يكون الناقد حرا ايضا في تقييم اثره من خلال نفسه هو ؟ ولماذا يطلب القاص ان لا اتمسك بشخصيتي الذاتية وانا انقد قصصه ؟ لعله لم يستطع ان يميز بين ان يحتفظ الناقد بشخصيته وبين ان يكون مجردا . ان التجرد غير اثبات الشخصية . ولو نفينا ابراز التأثير الذاتي لدى الناقد لما تقدم النقد ، ولكانت قواعده ثابتة الى اليوم من عهد ارسطو دون زيادة او نقصان ، ولما برزت آثار ادبية كثيرة حكم عليها نقاد بالعدم ثم اتى نقاد اخرون فوضعوها بين شوامخ الآثار الانسانية . ان الفن مغامرة ، ولعلها اصعب مغامرة يقوم بها الانسان وعليه ان يتحمل نتائج مغامرته تلك . وعلى الناقد ان يتحمل ايضا مسؤولية قوله . ولكن اثبات شخصيته يبقى ضروريا . اننا في عصر يقيم للفرد ولآرائه وزنا . ويجب ان يشمل هذا التقييم مختلف الميادين . ونحن في وضعنا الراهن في اشد الحاجة الى ذلك ، الى التجديد في النقد وطرح القوالب المسبقة لتجاري الركب الخلاق فلا يبقى النقد متخلفا عن الآثار الادبية نفسها . اما ما قد يلحق الفنان من غبن – وهذا ليس بالغريب – فيمكن ان يرده عن نفسه بالمناقشة الحرة التي تنبع من ضميره . وبهذا التفاعل يبقى ما هو صالح للبقاء ويندثر الغث منه .

ثم انني ارى تناقضا في موقف الاستاذ نير . فهو يشكو من كون الناقد يعتمد على ذاته ولا يتجرد ، ثم يدعوني في نهاية كلمته ان اعود الى قصص له اخرى حكم عليها « كتاب عرب كبار ونقاد بارزون بتوفر النفس القصصي » وانا اقول بان ذلك لا يهمني على الاطلاق ولا اتقيد وانا اعود الى قراءة قصتك من جديد برأي مسبق عن قصص اخرى قد يكون فيها ذلك النفس وقد لا يكون . ولكن هل يحتم وجود ذلك النفس في قصص اخرى وجوده في هذه القصة بالذات ؟ كنت انتظر شواهد على عدم تفهمي وتذوقي القصة وليست شهادة نقاد اخرين وبقصص اخرى شهادة مرضية علمية .

ثم انني ما أزال على رأيي في ان القصة تفتقد ذلك الخط اللاملحوظ الذي يربط بين الاثر الفني والقارىء والذي قد يتعذر على الناقد ان يدل عليه . انه شيء يحسه ينفعل به ، هذا « الشيء » هو الشعور المبدئي الذي يوحيه الجمال فيسعى الناقد من بعده الى تحليل عناصره واسبابه ومكامنه . هذا الشيء هو الذي احسه الجاحظ في الشعر حين قال بان الشعر لا يترجم .. واذا ترجم سقط موضع التعجب منه . وهذا الموضع هو الذي عبر عنه فيما بعد نقاد فرنسا بكلمة Ineffable او الذي لا يعبر عنه. وان كنت على يقين بان ما يتطلبه الشعر هو غير متطلبات القصة ، فان شيئا ما يظل يجمع بينهما وهو هذا الشيء الجميل الذي نعجز ان نعبر عنه . واول متطلبات القصة ان توحي ، ان تجذب القارىء ، ان تجعله اسير جوها يتنفس مع ابطالها ويشاركهم حياتهم . وهذا ما لم تحققه قصة « النور بالثمن » .

كذلك لست من المؤمنين بان كثرة المناقشات الفكرية والاحداث هي التي تعطي القصة حيويتها ، بل ذلك يضعفها ويقتل الحيوية فيها ، فالمعول في ذلك مقدرة الفنان ، فقد يرتفع بهذه المناقشة الى مستوى رفيع من التصوير والتأثير فيأتي اثره خالدا . ان ذلك متوقف على صدق التجربة والاحساس الفني.

وآسف اشد الاسف لعدم تمكني من فهم واحساس قصة «النور بالثمن»

التي وضعها المؤلف بانها ذات العقدة المنفلشة وليست من نوع القصص ذات العقدة المحكمة . ان وجود العقدة او عدمها لا يجعل من القصة قصة، وكذلك احكامها او انفلاشها . ان هذه النظرة الى تقسيم العقدة وتقييم القصص على اساسها نظرة « منفلشة » دون ريب !

عائدة مطرجي ادريس

حول «المقدرة السلبية في النقد»

بقلم صادق البكار

قرأت في باب مناقشات « العدد العاشر من الاداب » تعليقا للسيد حسان منير حول نقد القصص للاستاذ صدقي اسماعيل « بعنوان المقدرة السلبية في النقد » . ولقد ادهشني فعلا كون التعليق منقولا برمته عن كتاب « مرآة النفس لليونيل تريلينغ ، ترجمة الدكتور سليم سلامه »

يبدأ التعليق بعبارة « تتميز القصة الحديثة اليوم بقوى معينة من الادراك الحانق تحولت الى هذا الجزء اللاواعي من الثقافة فجعلته في متناول الفكر الواعي » واصل العبارة كما وردت في « المقدمة ص ١٠ » : « ان الذات العصرية تتميزبقوى معينة من البصيرة الحانقة تحولت لى هذا الجزء اللاواعي من الثقافة فجعلته في متناول الفكر الواعي » . والعبارة التي تلي العبارة الاولى في التعليق : « وقد يظن ان ذلك يعني ان لاتعنى القصة الحديثة بالافكار وان القصاص المبدع بمنجاة من حكم العقل الصحيح » منقولة عن الكتاب « ص ٤٢ » . والعبارة : « ان الوسيلة الوحيدة لتقوية العقل هي عقد النية على لاشيء وجعل الذهن طريقا عاما لجميع الافكار لالنخبة مختارة » منقولة عن « ص ٤٢ » ايضا . ثم « الامور يجب ان تجري كما تجري في الحياة حيث الكثير منها لايجري قط بذات الاسلوب .. ان الناقد يرى ان القصاص كلما توغل في النادر والغريب زداد غموضا وتعنتا » منقولة عن « ص ٩١ » . ويتابع : « قد يكون الحافز على هذا القول استنارة عقلية جديرة بالاحترام الا انه لايسعنا التجاوب معها في هذه الايام ، فنحن نهوى الغريب النادر ، ولا نتجاوب مع المألوف المبتذل في الادب او لعل علاقتنا بالمبتذل معقدة على الاقل ، فقد نرغب في شيء من عناصر الابتذال في لغة الشعر والادب عموما ، على ان يبلغ حد التطرف والتهويل ، بحيث يخدم كحد اقصى امكانيات الحياة اليومية وبالاختصار نرضى بالمبتذل متى قارب الغريب النادر واندمج فيه » منقولة عن « ص ٩٢ » . ثم : « لقد امتاز بكونه تحليلا سيكولوجيا للغة ، وهذا اسلوب نافع لولا ان الادب لحظات لاتبوح بسر قوتها الى دراسة لغوية ، لان تلك القوة لاتعتمد على اللغة ، بل على الخيال الادبي . عندما نطالع ... » نقلت عن « ص ٧٨ » .. ويتابع « اي شيء يستطيع ان يوضح سلطان هذه اللحظات علينا ؟ بل وحتى عندما نستحسن التعبير اللفظي عن تلك المشاعر لايسعنا ان نعالج لغته بالتحليل لان التعبير انما كان حقيقة ادبية لا منطقا سيكولوجيا » عن « ص ٧٨ » . ثم « أن ميزة فن النقد هي قوته واندفاعه بحيث تتبخر الاشياء البغيضة بسبب قربها من الجمال والحقيقة » عن « ص ٤٣ » . والعبارة الاخيرة في التعليق : « يجب ان يجمع بين حكم الاداب وحكم الذوق والجمال » منقولة عن « ص ١١ » .. وهنالك تراكيب متفرقة نقلت عن الكتاب نفسه ، « ان يظلوا قانعين بنصف المعرفة » « ص ٤٣ » . « تصدم عقل المثقف ... » « ص ٤٤ .. الخ ... »

وينسب كاتب التعليق ماااستشهد به « انهم رجال اذكياء .. عن محاولة العثور عليها » (الى الهلال ١٩٤٦) والحقيقة ان ذلك قد ورد « ص ٤٣ » . من الكتاب بصيغة المفرد .. وبقية التعليق ترداد للتعابير التي وردت في نقد الاستاذ صدقي اسماعيل للقصص . وترداد ايضا لعبارات سالارويه ، فاضل السباعي ، وزكريا تامر . وماذا يبقى للسيد حسان منير ؟.. لا شيء . ولست بصدد مناقشة الاراء الواردة ، فانها عامة بحيث انه استعملها للقصة في حين استعملها كاتبها الاصلي كمعايير تنطبق على اشياء اخرى . مثلا استبدل كلمة « الذات العصرية ص ٢٠ » بكلمة « القصة الحديثة » ، وكلمة « الشعر » في « قد يظن البعض .. الشعر بالافكار » ص ٤٢ ، بكلمة « القصة الحديثة » ..الخ.

واحبا ن اختتم كلمتي بايضاح ان المقدرة السلبية في النقد تعني رفض التقيد بحكم نهائي ومثال على الاندفاع في نظرية الجدل في بحث المسائل الكبرى « مرآة النفس ص ٤٠ » ولا ادري مدى انطباق ذلك على نقد الاستاذ صدقي الذي يكن القراء لارائه كل احترام وتقدير .

هذا واتمنى على الدكتور سهيل ادريس كقارىء يثق « بالاداب » نشر كلمتي هذه ليكون في ذلك تبيان كاف للحقيقة .

دوما — صادق البكار

نقـــد الابحاث

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

ومخاضها العسير ، على الكاتب النفسي « بروست » الذي بدأ عنده المشكله الكبرى التي ستكون قلب الرواية الوجودية الحديثة ، مشكلة « الضياع » وان يكن هذا الضياع عند « بروست » ضياعا فنيا . وينقله حديثه عن « بروست » الى الصميم من سمات الادب المعاصر ، ادب القلق لا أدب الحنين ، الى أنشودة الوحدة والعزلة ، الى ثلاثية الوحدة التي نظمها « كافكا » الى البطل المعاصر ، بطل العصر وأسطورته ، أي بطل المدنيـــة .

وبطل العصر بطل مفروض على كاتب الرواية مادام وليد أسطورة العصر وازمه . انه بطل السقوط . ولقد نبدى هذا السقوط لـدى كاتب كدوستويفسكي في صراع البطل مع تناقضات المجتمع وقيمة الطبقية وكان هذا الشكل الاول للسقوط بداية المعاناة النضالية لبطل الروايه الحديثة ، ولكن في شكلها السلبي .

اما « بروست » فكان ايضا ممثلا لهذا الصراع مع نظام المجتمع ونظام الذات ، وكان ادبه استنفادا لهذه المرحله ، التي ستعقبها مرحله جديدة على يد « دوهاميل » حيث نجد الارهاص الواضح باتجاه العصر الحديث كله ، وولادة الموضوعة الاولى في موضوعات الرواية الوجودية ، موضوعية الفشل والعدم واللامعقولية . ومثل ذلك او اكثر منه يصدق على « جول رومان » حيث نجد بواشير فكرة « الضياع » وان كانت هذه البواشير مانزال مبهمه ضائعة بعض الشيء . اما الروائي الذي رسم تجربة الضياع والسقوط رسما واضحا لاول مرة فهو « مالرو » زعيم جيل « الملعونين » والرائد الاول لفكرة العزله والوحدة والضياع ، وان تكن عزله ادانـة للوجود دون تحديد اي بهمة جزئية محددة ضده .

وقبل ان ينتقل الكاتب الى الصورة المثلى للروايه الوجوديه الحديثه على يد سارتر وكامو ، يعرج على الرواية الاميركية ويعقد مقارنة بـين الكتاب الاوروبيين الذين يختارون ابطالهم عادة من المثقفين او الارستقراطيين او المنحرفين عقليا وبين الكتاب الاميركيين الذين يختارون هؤلاء الابطال من النماذج الوحشية المباينة للمدنية . ويحدثنا على هذا النحو عن « فولكنر » خاصه وعن بطله الاميركي « البطل الابله » ، هذا البطل الذي تتحدد معالمه بوضوح اكبر على يد « شتاينبك » . وينتهي المطاف بالكاتب الى الحديث عن الرواية الوجودية في كامل صورها على يد « سارتر » فيصف لنا بطله « بطل الضجر » والغثيان والقلق . يحدثنا عن المعرية الشافة التي يلجأ اليها ، في « الغثيان » وفي « طرق الحرية » ، عن البطل الـذي هو وجود خالص لا مبرر لـه . ويبين كيـف بـدأ مـن هذه النقطة تلميذه العاق « كامو » الذي جعل من فكرة العزلة نفس الوجــود .

والعرض كله كما قلت تحليل عن طريق نظرة خلفية ، لمولد الرواية الوجودية الحديثة ولبذور هذه الرواية في تاريخ الفكر الغربي . بـل انه في جملته يستند الى فكرة اساسية وهي ان القصة والرواية كانت اسرع الى اكتشاف الفلسفة الوجودية من الفلسفة ، ثم سارت معها بعد ذلك جنبا الى جنب .

والذي يلفت النظر في المقال كله اسلوبه الذي يجاز بصلة القربى بينه وبين أسلوب الكتاب الوجوديين الفرنسيين . بل هو في ايماءاته المكثفة العميقة واشاراته الخاطفة لتجربة ثقافية طويلة ، أقرب الـى نمط المعالجة الغربية منه الى اسلوب البحث العربي .

وان يكن لنا على المقال من مأخذ ، فاشارات هينات الى بعض الالفاظ . انه في جملته نجاح كبير في التعبير تعبيرا عربيا واضحا عن مصطلحات غربية فيها الدقة ولها مدلولاتها الفنيه الخاصة . وهو بهذا يفصح عـن هضم بيتن لمستوى من التفكير الغربي العميق .

سوى ان بعض الالفاظ المعربة مانزال فيه غير مستقرة ، ونكتفي بـان نذكر منها مايؤدي الى اخطار في المعاني . وأبرزها ترجمته لكلمـــة Roman - fleuve بالروايه المتتابعه . في حين ان هذه الكلمة تحمل مدلولا خاصا ، يسيء اليه ان نرده الى مجرد التتابع . انها كما نعلم الروايه التي تحرص على خلق عالم مغلق ، يشبه النهر في غزارة مجراه وانتظامه . وهي بالتالي لاتخضع للعقدة والحل كما تخضع الرواية العاديه ، بل تنتهي فيها الامور نهايه اقل عنفا واكثر خضوعا للمنطـق المجرد . وفيها يفقد الاشخاص أهميتهم ، الا اذا نظرنا اليهم كرواة وشهود لطـور ينجـاوزهم .

كذلك لاندري لماذا يورد الكاتب اسم الرواية الثالثة من روايات طرق الحريه لسارتر باسم «سورزيس» في حين ان هذه الكلمة تعني «التأجيل»!

حضارتنا ثورة فكرية بقلم عادل الهاشمي

الكلمة دفاع حار مؤمن عن التراث العربي وشأنه ، بوجهه الكاتب خاصة الى اولئك الذين هاموا بحياة الغرب فانساهم ذلك حضارتهم وتنكروا لماضيهم .

والمقال في جمله خلاصه سريعة خاطفه يقذفها صاحبها في وجه اولئك

الجاحدين ، فيذكرهم ببعض جوانب التراث العربي المجيد ، وبالمكاسب العقلية والعلمية الكبرى التي قدمها للانسانية . وهكذا يعرج على ذكر اخوان الصفاء وما كان لهم من سبق في نظريات التطور وعلى ابن خلدون واضع علم الاجتماع قبل كونت . ويقف وقفة خاصة عند كتاب العربية الخالد ، القرآن ، مبينا بعمق الاسس الفكرية والانسانية التي وضعها ، وما كان له من شأن في توكيد النظر الكلي الشامل ولنظر الموضوعي والفكر المعلل والفكر المتأمل ، مبنيا بعد هذا كله ما كان لفرسة القرآن المباركة من آثار في تفكير العرب من بعد ، وما خلقه لديهم من اعتماد للمنهاج التجريبي الذي كان سببا في الدور الكبير الذي لعبوه في مجال العلوم من رياضيات وفلك وطب وغيرها .

والبحث كما قلنا خلاصة خاطفة ، فيها يحاول الكاتب ، حماسة منه لموضوعه ، ان يذكر قارئه بكل شيء في عجالة لاتتسع لكل شيء ، وهكذا



يقع في عدم التركيز واضطراب الخطة . لاسيما ان البحث الذي تناوله لايجزيء فيه ان يكون موضوعاً لمقال وحيد ، ويحتمل دوما فضلا من التفصيل .

المتنبي والقومية العربية بقلم محمد خير الحلواني

في هذه الكلمة يحاول الكاتب ان يدحض ذلك الرأي السائد الذي ينسب الى المتنبي غيرة على العروبة وانتصارا لها . وينتهي الى القول بان مثل هذا المنزع خطأ شاع لدى الباحثين ، من أمثال الاستاذ شفيق جبري والاستاذ حنا فاخوري وعبد الوهاب عزام وأمين الريحاني وغيرهم، دون ان يكون في الواقع مؤيدا بحياة المتنبي أو شعره .

وصاحب المقال يجيد حين يبين ان السمة البارزة لدى المتنبي كانت طموحه الشخصي الذي كان يستبيح كل شيء في سبيله . اما الابيات التي يفندها والتي لايرى فيها شواهد على انتصار المتنبي للعروبة كما يرى غيره ، فلا تخلو نظرته اليها من فكرة مبيتة . ولا نستطيع ان نقول انه بدأ فعلا من شعر المتنبي لينتهي الى رأيه ، والاوضح من هذا انه بدأ برأي مبيت وأراد على أساسه ان يفسر بعض ابيات المتنبي .

والحق ان الابيات الجزئية التي اوردها ولم يجد فيها ما وجده غيره من روح عربية ، ينبغي ان تفهم ضمن الجو العام لحياة المتنبي وشعره كاملا . ومن القسر لاكثرها ان نسلبها معنى الانتصار للعرب . ومن العسير ان ننكر على الابيات الشهيرة التي مطلعها « وانما الناس بالملوك » روحها العربية وان نوافق صاحب المقال على رده لها الى « هجاء يصدر عن حقد » . ومثل ذلك يصدق على البيت الشهير « ولكن الفتى العربي فيها » ، فسواء كان الفتى العربي المقصود هو المتنبي او الفتى العربي بوجه عام ، يظل من الصحيح ان فيها لوعة على افتقاد العروبة في معاني الشعب .

وفي اعتقادنا ان البحث في حاجة الى مزيد من التنقيب والتقري والنظرة الشاملة الى جملة ديوان المتنبي وحياته . والا فهل من اليسير ان نتجاهل الروح العربية المبثوثة هنا وهناك في ارجاء الديوان ، وفي ابيات كالتالية :

ومجدي يدل بني خندف ... على ان كل كريم يماني

جزت بني الحسن الحسنى فانهم ... في قومهم مثلهم في الغر عدنانا

ـ ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثرد صيني الجفان

ـ وانا لمن قوم كأن نفوسهم ... بها انف ان تسكن اللحم والعظما

ان في مثل هذه الابيات ، حين تتردد وتتواتر ، مايمنح شعر المتنبي عبقا عربيا به ينبغي ان نفسر ابياته المفردة .

ومهما يكن من امر فمن التجني بعد هذا كله ان نصف عصر المتنبي كله ، كما فعل الكاتب ، بالبعد عن الشعور بالقومية العربية . فسيطرة الاعاجم على الامصار كما نعلم كان من شأنها اذكاء الشعور العربي لا اطفاؤه . ولم يمنع سيف الدولة خضوعه لسلطان بني بويه من ان يكون ممثلا للروح العربية الثائرة .

يوسف كرم ومأساة الانسان الحديث بقلم غالي شكري

عقل كبير ذوى منذ حين ، وذبالة مشرقة متوضعة انطفأ سناها من عالم الفلسفة ، ذلك هو يوسف كرم الذي يحدثنا عنه صاحب هذه الكلمة في عمق وجلال . وليست الكلمة حديثا عن شيخ الفلسفة الحديثة الراحل فحسب ، وانما هي في الوقت نفسه فلسفة تحدد خطوطها من خلال فلسفة الاستاذ . فالكاتب يصف لنا استاذه ، باحثا علميا ، ونصيرا لاتخاذ الفلسفة تجربة تعانى وتحيا . ويحدثنا عن ابتعاده عن تأسيس

مدرسة فلسفية ايمانا منه بان طبيعة الدراسات الفلسفية « لاتدع من الباحثين فيها اساتذة ولا من طالبيها تلامذة ولا من اتجاهاتها مدارس » . كما يلخص لنا منهج أستاذه واصفا اياه بانه منهج العرض التاريخي غير انه بعد هذا الوصف لمنازع الاستاذ مايلبث حتى يحاول ان يتجاوزه ، ان ينقده نقدا باطنيا فيه المحبة والتعاطف والتبرير ، حين ينطلق من مفاهيم هذا الاستاذ المتصلة بالفلسفة اليونانية والفلسفة في العصر الوسيط والفلسفة الحديثة ، الى مفاهيمه هو ، وحين يضع في مقابل تفسيرات استاذه التي تجنح في نهاية الامر الى العودة الى مذاهب اليونان ومذاهب ارسطو خاصة ، تفسيرات اخرى اكثر واقعية يحاول عن طريقها ان يبحث عن الظروف الموضوعية للمذاهب الفلسفية عبر التاريخ .

والكلمة في جملتها خير تمجيد للاستاذ الراحل لانها جديرة به في عمقها وروحها الفلسفية الواضحة المطمئنة . انها من الكلمات القلائل التي نشعر من خلالها ان كاتبها يستنشق حقا جو الفلسفة التي يكتب فيها ، ويعيش هذا الجو حتى الاعصاب والعروق .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**

نقد القصص

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

وذلك لان الاثر الادبي الكامل يحمل في ثناياه عنوانا صريحا ينادي ، فلا يحوج الاديب الى البحث . وانما البحث الحق عن الموضوع والهيكل الذي يصاغ فيه ذلك الموضوع ، ولسوف ينبثق العنوان بعد ذلك جاهزا ويقدم لنا نفسه . وعلى ذلك يمكن ان نحكم بان الاثار الادبية الهزيلة التي لا تملك هدفا فنيا واضحا هي وحدها التي يتعب المؤلف في اختيار عنوان لها . وفي هذه الحالة يمكن ان تقترح عناوين غير قليلة يعوض احدها عن الاخر لانها كلها غير واضحة فهي تصلح عنوانا لاثر غير واضح المعالم .

وانا اميل الى ان اصنف قصة مي يتيم في الصنف الثاني . ان عنوانها « ألوان .. » عنوان عام لايصف شيئا ولا يعين شيئا ، وقد زاده التنكير ضبابية وضياعا ، فكان في ذلك جزء من اقصوصة لاتملك من مقومات الفن القصصي شيئا معينا . وللاسماء ـ كما يقول العرب ـ نصيب من مسمياتها .

ولعل اهم ماينقص هذه القصة هو وجود أزمة ، وقد نسيت الكاتبة ـ ويشفع لها انها ناشئة ـ ان الاصل في كل قصة ان تكون حكاية وان تقص علينا حادثا سرعان مايصل الىمستوى الاشكال فيثير اهتمام القارىء واذ ذاك يأتي الحل نوعا من الفرج والاستقرار . وقصة « الوان ... » خالية من هذا الاشكال خلوا تاما . انها لاتملك ذروة متأزمة وانما هي « مسطحة » كليا من بدايتها الى اخرحرف فيها حتى كادت تصبح نوعا من المذكرات تصف يوما عاديا من حياة رسام . حقا ان للقصة موضوعا واضحا هو حياة فنان في يوم ما من حياته ، ولكن هذا الموضوع لم يصغ في كيان فني من أي لون فلم تحدث الكاتبة عقدة للحادث وانما تركت الخرز مبعثرة لايشدها خيط . حسن الفنان يخرج الى الشارع وهو يشعر انه فاشل في فنه ، وهناك يلتقي بصحفي يصفه هو نفسه بانه « لسان ثرثار » ، وهذا الصحفي يحكم على حسن بانه « فنان كبير » . ثم يلتقي صاحبنا بفتاة يصفها بالسطحية وبانها « ليست فنانة » وبانها « كالببغاء » وهذه الفتاة تشعره باهميته كاستاذ في فنه . واذ ذاك يعود الفنان الى غرفته وهو يشعر بانه « لم يفشل » . فاين العقدة في هذا كله ؟ وماذا كان الحل ؟ لاريب في ان مي يتيم ارادت التعبير عن فكرة ما ، غير انها في الواقع لم تحسن خلق الاطار القصصي المثير الذي تصوغ فيه الفكرة ولذلك تبدو قصتها بلا فكرة ولا عقدة .

وقد كانت في التأليف ـ ماعدا ذلك ـ عيوب فرعية ابرزها ذلك الحوار ذو الطبيعة المقالية عن المنظور والالوان فالمرء يشعر انه دخيل في القصة . ان الخروج بحكاية ما من سياق الاحداث الى سياق تقرير الحقائق العلمية والمناقشات التكنيكية امر قد يرد في القصص والمسرحيات الرصينة احيانا ، ولكنه ينبغي ان يكون دائما جزءا من الاحداث بحيث يلقي ضوءا على نفسية الاشخاص او يساعد على تقدم الحكاية والا عاد اشبه باستطراد علمي ليس له مكان فني .

ومن عيوب قصة «الوان» ان الاحداث فيها كانت بلا غاية . قد يقال في الدفاع عن وجود حادث مافي قصة ان مثل ذلك يقع في الحياة . والجواب على ذلك ان القصة الفنية المؤثرة لاتقص كل ما في الحياة وانما تختار وتركز لكي تحدث تأثيرا حادا مباشرا . ان الحياة منثورة غير مبلورة ولا مركزة والقصة تعزل كل ماهو ضروري حاد التأثير وتضمه في اطار . وعلى هذا الاساس نتساءل : ماذا كانت قيمة الاحداث في قصة مي يتيم ؟ لقد داس حسن على قدم سيدة في الشارع ، فما فائدة ذلك لهيكل القصة ؟ لقد رأى صحافيا ، فما جدوى ذلك للقصة ؟ وماذا لو انه لم يقابله ؟ وما دور الام ؟ لماذا لعنها حسن في اول القصة بفلظة وقسوة ثم احتضنها في اخرها ورفعها بين ذراعيه فجأة ؟ قد يكون الجواب على هذه الاسئلة ان الكاتبة مي يتيم ارادت ان تلقي ضوءا على نفسية حسن فجعلته يمر بهذه الاحداث . واعتراضنا على ذلك ان القصة القصيرة « وحتى الطويلة » لم تكن قط يوما ، ولن تكون ، وسيلة مباشرة للتحليل النفسي . وانما ياتي التحليل عرضا فيها ويأتي نتيجة لتسلسل الاحداث . والواقع ان احدى الغلطات الشائعة في قصتنا العربية ان يكون هدفها المباشر هو التحليل النفسي . ذلك ان هذا مغاير للحياة

الانسانية ، والقصة ليست الا ظلا امينا للحياة . ان المرء لا يعيش لكي يدرس نفسه او نفسيات الناس وانما يعيش لان الحياة تفرض عليه ان يحبها وان يتمسك بها . وانما تأتي الومضات النفسية عبر معيشتنا للحياة . والحق ان الحياة تصبح مضحكة وسخيفة لو اننا عشناها وفق قواعد علم النفس او اردنا بها ان نكشف تجربة نفسية او نحو ذلك . ترانا نحب اصدقاءنا لاننا نحبهم ونحب صداقتهم ام لاننا مهتمون بدراسة سايكولوجيتهم ؟ كذلك ينبغي ان نترك ابطال قصصنا يعيشون بكل عواطفهم من اجل الحياة نفسها ، دون ان نجعلهم يمرون باحداث معينة تثبت لهم نفسية من صنف ما .

واذا درسنا قصة مي يتيم من ناحيتها الواقعية الاجتماعية وجدناها تستقي افكارها من منابع غير محلية (بعكس ما رأينا في قصة سميرة عزام) ويغلب على ظننا ان هنالك محاولة التأثر بالشخصية التي اصبحت مقلدة كثيرا في الادب الاوروبي المعاصر : شخصية(روكانتان) بطل سارتر في (La Nausée) فهذا الفنان حسن يقاوم حبه لاهله ويتظاهر بتحجر العاطفة . ان محبة امه له « تثقل على نفسه » وهو يسمى حنان اخيه وتحذيراته المخلصة« مضايقات » ـ ويصطنع العلو الفكري فيسمي الفتاة التي يحبها « سطحية » ويصفها بانها مثل«البطة» وبذلك يجرد نفسه من الحب الذي هو اجمل مظاهر الانسانية في الانسان. ثم انه يقابل ملاحظات الصحفي بالبرودة ويصفه بانه « لسان ثرثار » ، ويمشي في الشارع بلا مبالاة فيدرس اقدام المارة ، ويتحدث عن كل ذلك وكأنه عمل بطولي . ثم هو يلعن ويسب ويتصرف تصرفا متوحشا . وكل ذلك لانه يريد ان يكون فنانا .. او ان يقلد بطل البير كامو الذي قتل انسانا لمجرد ان الشمس كانت حارة . والسؤال المثير هو : اين مثل هذه الشخصية في حياتنا العربية؟ ولماذا يجب ان نقلد اشخاص القصة الاوربية في قصصنا ؟ اني لاحب ان اتصور مي يتيم فتاة عربية طبيعية فيها اصالة الفرد العربي العادي بما فيه من عاطفة وحنان طبيعي وحب للمجتمع . ولذلك لا استطيع تماما ان افهم سر تحدثها بضمير المتكلم عن رجل بارد ميت الاحساس يريد ان يشتق فنه من لعناته لامه الطيبة الحنون واخيه المخلص ومن سخريته من صديقة رقيقة تحترمه وتضع فيه ثقتها ، ويحسب انه اذ داس اقدام المارة ارتفع الى ذرى الفن .

وبعد فلعل استعمال الضمير الغائب كان اقرب الى المعقول ما دامت الكاتبة تتحدث عن بطل رجل لا عن بطلة فتاة . ذلك ان الضمير المتكلم انما يستعمل في الحالة التي يحتاج فيها المؤلف الى ان يذهب عميقا وبعيدا في تحليل مشاعر بطله ولفتات ذهنه وخلجات قلبه ، ومثل ذلك قد يبلغ من التفصيل بحيث يتضمن التفريق بين ادق مظاهر السلوك الاجتماعي والنفسي بين الرجل والمراة ، فهل حقا تستطيع فتاة ، اية فتاة ، ان تتكهن بما يحس به رجل في موقف ما ؟ سؤال مطروح ، على كل حال ، وقد يكون القطع بجوابه غير يسير.

ومهما يكن فنحن نحتاج الى قصة عربية تغمس القلم في بوادينا وخضرة نخيلنا وخشونة خيامنا ، وتصف الرجل العربي الذي يمشي في شوارع المدينة العربية ، تصفه بكل مشاكله وعواطفه وافكاره . اما ان نرسم ظلالا باهتة من اشخاص سارتر وكامو ونجعلهم يتكلمون بالعربية فان ذلك يفقدنا اصالة العروبة وخصوبة المنابع الموهوبة في قلوبنا. والخسارة جسيمة ، ففي الغد ينبغي ان ينبعث منا جيل من القصاصين الخلاقين يفرضون الروح العربية الفنية على الادب العالمي فرضا . ولن يأتي ذلك اليوم الا اذا كففنا عن النظر بازدراء الى ما في ايدينا من موهبة وخصوبة وتدفق . وما اصدق كلمة امرسن : « نحن نملك ما نحب وانما نحرم انفسنا بالاشتهاء. »

— ٣ —

« قرنفلة للاسفلت المتعب » لزكريا تامر

العنوان المبهم لهذا الشيء الذي اطلق عليه الكاتب اسم « قصة » هو « قرنفلة للاسفلت المتعب » وتفسره العبارة في القصة : « ربما سأقول لحظة اسمع تحطم عظام جمجمتي : خذي دمي يا مدينتي قرنفلة قرمزية لصدرك المتعب » ومن الحق ان نلاحظ ان العنوان عابر ولا صلة له بالقصة وانما هو مقتبس من عبارة ما ليس لانها مرتبطة بعقدة القصة وانما لمجرد ان فيها صورة شعرية . وقد كان من السهل ان تسمى القصة باي اسم اخر مقتبس من عبارات اخرى مثل « بحثا عن ربيع لا يرحل » او « بحارة بلا وجوه » او « المدينة التي لا تسافر اليها الشمس » فكل هذه الامور صور وردت في القصة ولست ارى في العنوان الحالي ما يميزه عنها من ناحية الصلة بالعقدة .

والواقع ان هذا « الشيء » ليس قصة وليس له من الكيان القصصي اي شيء . وانما هو مجموعة صور متعاقبة ملتقطة من زاوية فكرية معينة. ففي البداية نرى فتاة مجهولة لا اسم لها تضطجع على سريرها وتصغي الى اغنية تأتي من راديو الجيران وتغرق في حلم جنسي فظيع ينم عن شذوذ فيها . ثم يتلاشى المنظر وينتقل الى مشهد جنازة في الشارع لا صلة لها بالفتاة . ثم يأتي مشهد ثالث : شابان يتحاوران حول الموت و لحياة وتتعاقب بعد ذلك مشاهد سريعة جدا، رجل يجتاز الشارع، شاب يلمس ذراع فتاة ، عامل يأكل ، رجل يقتل رجلا تحرش باخته ، قابلة تذهب لتوليد امرأة ، مقهى فيه رجلان يلعبان النرد ثم مشهد جنسي اخر تختتم به القصة . والحق ان ذلك كله لا يكون قصة وانما هو اشبه شيء بتلك الكوابيس المطربة المتنافرة التي قد يراها المرء بعد عشاء ثقيل ، فينتقل الذهن من مشهد بلا معنى الى مشهد اخر بلا معنى ويكون الانتقال مفاجئا ولا تكون هناك روابط . والطابع الكابوسي ملموس احيانا في قصة زكريا تامر مثل قوله : « ما زال الحمار سيدا . وليسقط أبي . فلتعش امرأة جارنا . كلنا سنموت . » ويبدو ذلك في تناقض العبارات المتعاقبة التي ينطق بها الاشخاص فتترك وقعا غريبا في النفس، فبينما يقول الشاب :

— ما الفائدة من الوقوف تحت الشمس ؟ لنسر .

تغني الفتاة الصغيرة :

— ايمتى بدك تجي يا ماما .. تأخرتي يا ماما

وبينما يقول الشاب المطعون :

— اوه ساموت ، لماذا تحرشت باخته ؟

ينادي الجرسون في المقهى :

— واحد قهوه

والمشاهد نفسها متناقضة تناقضا ملحوظا . ومن هذا كله يبدو انه لا يصح لنا ان نتحدث عن هذه القصة كبناء قصصي فليس لها كيان فني من اي نوع وانما هي تعاقب مشاهد يريد الكاتب ان يثير بها احساسا ما في نفس القاريء ، او يعطي انطباعا ما عن الحياة بمخطط رمزي. انها اذن ليست قصة وانما هي تخطيط اعتنى الكاتب فيه بالشكل عناية بالغة ، وعبر عن افكاره تعبيرا غنائيا حتى كاد يجعل للفكرة مظهر الموسيقى السمفونية . والحق ان المقطوعة كلها تذكر باجواء طالما اثارتها في نفسي الحركة الثالثة من السمفونية الرابعة لتشايكوفسكي حيث يحاول الفنان ان ينام فتنبعث في ذهنه مشاهد صوتية لها طبيعة الكابوس مثل منظر رجل سكران يتعثر في طريق ضيق ، وصدى نشيد حزين يغنيه اطفال الشوارع المشردون ، ومنظر فرقة من الجنود المشاة مزهوة بالبستها . وسدى يحاول الفنان ان يغفو الا بعد ان يستنفد ذهنه هذه الصور والاصوات . وانما تذكرني مقطوعة زكريا تامر بالموسيقى لان جوها كان منغوما الى درجة لا بد ان يكون الكاتب قد تعمدها ، فقد قام على الاصوات ورنين الكلمات فكان هناك صوت الراديو القادم من بين الجيران في افتتاحية القصة ، واجراس عذبة الايقاع تقرع عبر سهوب شديدة الحزن، وضجيج القوارب ، وضربات المجاذيف الرتيبة ، واصوات الرجال السبعة الذين ارادوا اغتصاب الفتاة ، وتحطم عظام الجمجمة على الاسفلت ، وغناء البنت الصغيرة ، وصوت المؤذن ، وضجة المقهى ، وقعقعة النرد وغير ذلك من الاصوات المسموعة . كما ان الكاتب تعمد ان يستعمل التنغيم في عباراته فكانت لغته موسقة مملوءة بالصور وكانه يقصدها لذاتها كعبارات شعرية جميلة دون ان يعنى كثيرا بان تكون لها صلة بسياق القصة ، وهذه امثلة :

« صوتها مدينة خضراء تسافر اليها شمس ناعمة الضوء وسماء زرقاء وعصافير تبحث عن ربيع لا يرحل واصداء اجراس عذبة الايقاع تقرع عبر سهوب شديدة الحزن ».

« موسيقى شبيهة بطيور رمادية محمومة فوق حقل اصفر . »

« فرحا باهرا غريبا يحمل في جوفه حزنا قد يتفتح ورده الاسود في كل لحظة . »

« بحارة يملكون اجسادا ... مبللة بعطور ليست ارضية ولا يملكون وجوها . »

« عيناها حمامتان وديعتان تحطمت اجنحتهما »

« ابتسمت حبيبتي بغبطة ثملة وكأن شرايينها امتلأت خمرا . »

ما اجمل هذه الصور ، وما احفلها بالشعر ، ولكن ما علاقتها بالقصة وماذا تضيف الى هيكل الاحداث ؟ وهل يصح للقصاص ان يغرق في اوصاف شعرية لا تنمي سياق موضوعه ولا تضيف اليه شيئا ؟ او ليس التركيز والاقتصاد خاصية ملازمة للقصة القصيرة بحيث ينبغي ان يستفيد الكاتب من كل كلمة يقولها في اضافة لمسة الى حياة شخصياته او الى تطور الاحداث ؟ قد يجيب الكاتب بان قصته رمزية وان الموسيقى تكون الجانب الرئيسي من كل رمز ناجح وجوابنا ان الرمزية في القصة ينبغي الا تكون هدفا واعيا للكاتب وانما عليه ان يقص الاحداث ويترك الرموز تتساقط عفوا بين يدي القاريء الواعي. فالحياة الحقة لا تقصد الرمز ولا التلميح وانما نحن نعيش لاننا نحب ان نعيش ومن حياتنا الطبيعية هذه تنبت الرموز والصور غنية كثيفة . وليس من الصحيح ان نعيش عيشة رمزية ، وان نكتب قصصا رمزية لمجرد اننا رمزيون . ان الحياة تأتي اولا ، ومنها تنبجس الرموز سواء اكان ذلك في القصص ام في الحياة .

هذا كله من ناحية البناء والشكل العام للقصة . ثم نأتي لننظر في المضمون فماذا سنجد ؟ اننا بازاء عالم مظلم لا ينيره ضوء ولا فرح وكأن الحياة قد استحالت قبرا كبيرا كالحا . فالرجال في القصة اناس شهوانيون بلا عواطف وذلك بسبب العامة والعذاب المرأة ، والشجرة التي كانت تحبها العصافير تستحيل الى تابوت ، والرجل الذي كان له بيت وغد واحلام يصبح لحما باردا اصفر محمولا في نعش ، وحفار القبور رجل بلا انسانية يخفي الخبث وموت الشعور ، والطبيعة — التي يمثلها الغراب — تقف جامدة غير مبالية بهموم الانسان ، وللشباب

متشائمون يتحدثون عن الموت والجنون وفراغ الدنيا وعبث الحياة ، والله .. حتى الله الذي يتصف بالرحمة يتحول في القصة الى ايذاء وكراهية وبرودة . وفي الدرب قتيل .. والحبيبة الطيبة التي هي منبع العذوبة والجمال تتحول الى مومس . ذلك هو الجو العام لقصة زكريا تامر التي تصور مدينة تعب فيها حتى الاسفلت كما يلوح من العنوان. قصة لا شيء فيها غير الرعب والعذاب والشر والجريمة . ما من نبضة طيبة تخفق ، ما من ابتسامة ، ما من خفقة حب ، فمن اين جاءنا زكريا تامر بكل هذا ؟ واين مثل ذلك في حياتنا العربية ؟

الواقع اننا في هذه الدنيا العربية ما زلنا اناسا غزيري العاطفة نحب الحياة ونتطلع اليها متفائلين، والرجل العربي العادي يؤمن بالعاطفة وبان الله كريم رحيم مملوء بالمودة ، وبان الطبيعة تتعاطف مع الانسان حتى لتبكي احيانا بدموع المطر وانين الرياح على جنازة عزيز . والرجل الذي تتحول حبيبته الى مومس لا يمكن ان يبكيها في مقهى وانما يقلب ان يقتلها قتلة شنيعة .. ثم اننا – وتلك نقطة اساسية – لا نشعر قط في هذا الشرق العربي بان المدينة شريرة او قذرة او انها تكرهنا . ذلك اننا ما زلنا شعبا يبني ، وما زالت مدننا العربية صبايا يافعة تفتح اعينها المبهورة على فجر جديد لا عهد لها به . انها مدن جديدة لم تبلغ مرحلة الشباب بعد ونحن ما زلنا نبنيها بأيدينا المتحرقة للنشاط والحياة بعد خمود قرون . وانما نجد صورة المدينة العجوز المريضة في شعر بعض شبابنا وقصصهم لان هؤلاء يستقون من اداب اوروبا العجوز حيث المدن قد شاخت واصبحت بؤرا للجريمة والمرض والظلام والغثيان، وحيث الادب المعاصر نفسه لا يعكس غير ذلك الجو القاتم الموبوء . وانه ليبدو مضحكا جدا ان نستعيد ثياب جيراننا القذرة الممزقة في الوقت الذي نملك نحن فيه انقى الثياب واحدثها واجملها . ذلك يذكرني دائما ببيت عميق المغزى من شعر الشاعر العربي المبدع سليمان العيسى يجري هكذا : (البحر الخفيف)

كيف راح السليم يبتر ساقيه
ليسعى زحفا على اعواد

فذلك هو حالنا حقا . نحن الاغنياء بالحياة والروح والاصالة والاخلاق نترك مواهبنا وينابيعنا بالخصوبة ونتطلع مستجدين الى ادباء اوروبا التي تتفسخ حضارتها وتحتضر وتقترب من نهايتها المحتومة . نحن الذين تقبل الدنيا علينا اليوم وتتطلع الينا لنعيد بناء العالم ، نحن انفسنا نزدري كنوزنا الفكرية والحضارية ونقف اذلاء على موائد الغرب المنحطة التي تشيع الجريمة والذعر واليأس والغثيان في انفس القراء. ولماذا نفعل ذلك واية مصلحة لنا فيه ؟

وبعد فان قصة زكريا تامر ليست متفردة في نهجها هذا بين القصص العربية . ان هناك عددا غير قليل من الكتاب يكتبون هكذا فلا يشتقون اجواء قصصهم من جونا العربي الملتهب بالحياة والنشاط والوعود المبشرة ، وانما يقتبسونها من منابع كئيبة جامدة تقذفنا بها البلاد الاوروبية الكهلة المتشائمة . وهم بهذا يسكتون صوت عواطفهم الغزيرة ليصغوا مقلدين الى الضجة القادمة من الغرب . والمقلدون لا يبدعون حتى اذا كانوا اذكياء او موهوبين . وانما يبدع الاديب اذا هو ركن الى نفسه وعبر عن احاسيسه الحقة واندفع مع كل خلية في قلبه اندفاعا طبيعيا. او ليس الاديب انسانية مركزة ؟ وهل تشقى الحياة الانسانية وتذوي الا حين تكبت ويغلب عليها التصنع والجمود والتقليد ؟

وقد يكون الاهم من عنصر التقليد في قصة « زكريا تامر » ان الاشخاص ليسوا عربا وثقافتهم ليست عربية . فلماذا يقول هذا الشاب :

– كلنا مجانين . وديستويفسكي مجنون . سارتر ابله لا يحب الشمس. رامبو ولد غير مهذب . تشايكوفسكي ضفدع حزين . لوركا بلبل اسود . كافكا صرصار من حجر . جيمس ماسون طبل .

اليس هذا استخذاء امام الفكر الاوربي ؟ اي مسخ ذلك لشخصيتنا الفكرية بحيث لا نستطيع ان نتذكر اسما واحدا عربيا حين نحاول التعبير عن انفسنا ؟ وهل حقا ان المثقف العربي المتوسط يشعر ان من البداهة ان يتحدث عن لوركا ورامبو وسارتر بهذه البساطة ؟ هل هذه هي افكارنا ؟ هل تلك هي حياتنا ؟ الا ليت الكاتب قد ترك المؤذن الذي ينادي (الله اكبر) خارج قصته لكي نسميها له قصة اوروبية فنرتاح من نقده وتخف دهشتنا من العامل العربي الذي يخاطب الرغيف قائلا له :« يا عاري الكبير » .

واحب اخيرا ان اتحدث عن العنصر الاخلاقي في قصة زكريا تامر .

كانوا يقولون دائما ان الفن لا يتصل بالاخلاق وان ليس لنا الحق في ان ننقد فنا على اساس خلقي . وذلك حق ونحن نؤيده تأييدا قاطعا. فقد تكون القصة التي تصف جريمة اخلاقيةمنكرة قصة مكتملة منالناحية الفنية فتبهرنا بجمالها ونخشع امام الفن فيها . وانما تنهار القصة اذا كان المقصود بها ان نكتب فنا غير اخلاقي فتصبح اللااخلاقية غاية يستهدفها الكاتب ونضحي من اجلها بالفن والواقعية معا . والامر كذلك عندما تصبح اللااخلاقية نمطا شائعا او زيا مستوردا نفرضه على ما نكتب لمجرد انه مستعمل لدى غيرنا . وانا اكاد اميل الى ان اسمي قصة زكريا تامر شبه دعوة لهدم الاخلاق العربية ، سواء اكان الكاتب يقصد ان يدعو لذلك ام كان يكتب وهو غافل لمجرد انه ينساق مع دعوة خفية يبشر بها اناس وراء الستار . وما من دعوة ، من وجهة النظر القومية العربية ، اسوأ نية من الدعوة لهدم الاخلاق . فعلى اساس اي شيء سنبني مستقبل الامة العربية ان نحن تركنا شبابنا يرون مثلهم الاعلى في نموذج فتاة تحلم بان يغتصبها سبعة رجال ، ورجل تحولت حبيبته الى مومس ، وشاب يشعر بان الله يكرهه ، وفتى ينادي بوقاحة « فليسقط ابي ، فلتعش امرأة جارنا » ... وفتاة تتمنى موت امها ؟ هل هذه هي الاخلاق التي ستدفع الشباب العربي الى بناء امة شامخة تعطي من ذهنها الموهوب وروحها المكتنز حضارة تضيء الظلام ؟

ولعل خير صورة اختتم بها هذه الكلمة الطويلة عن قصة زكريا تامر هي عبارته التي انهى بها قصته :

« ما امنيتك ايها الرجل الكئيب ... ؟ »
« ان انام مئة سنة »

تلك خاتمة تصلح رمزا للقصة كلها . فها ان هذا الرجل العربي يحصر امانيه كلها في ان ينام مئة سنة . وليس هذا هو احساس العروبة اليوم . ان الشباب العربي يصحو اليوم ويهب منتشيا نشيطا ويفتح نوافذ تدخل منها شمس صباحية مفعمة بالرطوبة والعبير ، هذا الشباب يندفع اليوم في حرارة ونشوة لينفق طاقاته الفكرية والجسمية في بناء امة تعمل من المحيط الى الخليج ، فاين اين فينا نموذج هذا الرجل الخامل البليد الذي يريد ان ينام مائة سنة وكانه بمعزل عن الحياة كلها ؟ اوليس من حقنا ان ندعو لمثله بنومة لا يقوم منها ابدالدهر؟

بيروت

نازك الملائكة

اينـما كـان

– تتمة المنشور على الصفحة ٨ –

بين دلالها المختلفة الاحجام المتدرجة في الصغر من القمقوم الى المصب. جمدت في مكاني اتطلع اليه في قيامه الصابر امام الباب الذي كان واقفا حياله ، كفاه ممسكتان احداهما بالاخرى وراسه مطرق الى الارض ونظره مثبت في نقطة واحدة من اسفل الباب .. واقفا ينتظر ، من امد طويل هممت بان اندفع اليه فأهز يديه واقبل وجنته وكتفه ، ولكني لاطراقة رأسه الثابتة الصابرة ولوقفته التي لا تتبدل بدلت عزمي . احسست بيد تعصر قلبي وبمرارة تتسرب الى اعماق نفسي فتملأها . ماذا اقـول له وكيف اتقدم اليه ؟... انه يقف هنا وقفة تكاد ان تكون وقفة الذل امام تابع تابع تابع الرئيس الذي اعاد هو الى روعه ، بمشيته الهادئة بسيف مهتريء الغمد على حصان هزيل ، اعاد هو الى روع ذلك الرئيس الهدوء والى صدور رجاله قلوبهم التي طارت منها . فما الذي اقول لـه في وقفته هذه امام هذا الباب ؟ هل اقول انا بعددنا واسلحتنا وما كنـا نمثله من دول وقوى وراءنا عجزنا عن ان نحمي ارضه التي كان هـو يحميها . بنفسه وابنائه ؟ .. انه ليعرف ذلك جيدا ، والا لما كانت لههذه الاطراقة وهذه الوقفة في هذا المكان . ام اقول له اننا دفعنا رجالنـا في المالكية وفي الراس الاحمر وفي عين زيتيم وجئنا هنا لنتسلق المجد على اجداثهم وننشد لنا الفخار باعمالهم ؟.. وشعرت بالخزي يملأ علـى جوانب نفسي وباني عاجز عن مواجهة هذا الشيخ الكئيب في هذا المكان وفي هذه الساعة ، فعدت الى مكتب صديقي الذي خرجت منه وارسلت استفهم من المكتب المجاور عما جاء به الى هذا المكان . فجاء الجواب حاسما : لقد جاء يطلب ما لا يمكن تحقيقه .. صودرت منه ست بنادق فجاء يتوسط الى الرئيس، ذي الحول والطول ، مدعيا انه عرفه فـي ذات مرة في فلسطين ، ما اكثر من عرف الرئيس في فلسطين وفي غير فلسطين ! جاء يتوسط اليه ليراه وليسترحم منه الافراج عن بنادقه الست .. ولكن الرئيس غير فارغ للقاء هذا البدوي الخرف ، واذا فرغ له فانه لن يلبي طلبه ، فان هؤلاء البدو الشياطين الذين يتسللون كل يوم مـن الحدود واليها لا يؤتمنون لا على سلاح ولا على ارض ولا على وطن !

ربما كان الان في قريته التي تتالف من بضعة منازل من الحجر الغشيم، الذي لم يصقل ولم تحسن تسويته ، منازل يتكون كل منهـا من حجرتين او ثلاث حجر مبنية متلاصقة على صف واحد ، متجهة كلها الى الجنـوب حتى تتلقى الشمس بجباهها وتترك ريح الشمال وراء ظهورها ، تحيـط بهذه المنازل ارض منبسطة ولكنها مزروعة رؤوس حجارة وفتات صخور ينبت في تربتها الفقيرة عشب لا يكاد يشبع بطون دوابه القليلة من نعاج هزيلة وافراس ضئيلة القد وبضعة حمير وبعير او بعيرين .. ربما كـان الان في قريته تلك التي لا يربطها بما حولها من مدن او قرى الا دروب ضيقةفي الارض الصخرية، ولكنجنود اسرائيليبرزونفيها بينالحينوالحين ليحصوا الذكورمناهل القريةوليتفقدوافيها بطاقاتالتموين،فاذااقتحمواعليه الحجرة المبيضة النصف الاسفل من جدرانها الداخلية بالكلس والتي كان يعدها مضافة لزواره وجدوه يتشاغل باشعال نار كان في يوم مـا يعد عليها القهوة للضيوف ، فينتهرونه ، فيقوم اليهم متكاسلا بين البرم والتائر بينما يتسلل احفاده هاربين الى الحجرة الاخرى حيث تجمعت في زاوية منها حفيداته وامهاتهن وجداتهن ،عينهن الى الباب واسماعهن الى المضافة وصدورهن مملوءة بالتوجس والخوف والغم ..

ربما كان الان في قريته تلك او في قرية اخرى بعيدة ، قرية عـلى الحدود ، في كوخ مصنوع من القش و لطين او في بيت من الشـعر قائم على عمودين ، عنده كما عند كل رجال الحدود بندقية ولكنه لا يحملها على كتفيه فهي على كتفيه الواهنتين ثقيلة وانما يعتمد عليها حين يقوم . ينظر من تحت حواجبه الكثة الى ابناء ابنائه وبناتهم فلا يملأ صـدره الفم الذي يملأه لو كان في قريته حيث يقتحم عليه جنود اسرائيل المضافة وانما تملؤه حسرة ان ينتهره حين يتكاسل في القيام والاحترام عريـف لا يدري من هو ، اين كان ، واين امسى .. وان يرتقب ليقيـم اوده ويطعم صغاره وصغار ابنائه ان تصل اليه حصته من معونة الشتاء ، وان يمد بصره فيرى بمده طلائع الارض التي هي ملك له او ملك لمن هـو منهم ولكنه لا يقوى على الوصول اليها ..

ربما كان في قريته تلك وراء الحدود او في قرية اخرى على الحدود، وربما لم يكن في هذه ولا في تلك وكان في مكان اخر . ان عشرة أعوام امد طويل على شيخ ينوء بعبء السنين.. ربما كان في جدث تحتالارض انطفأت فيه عيناه اللامعتان وهمد صوته الحاد واتى الموت فيه عـلى حركات ذراعيه المقتصدتين وخطوه الهاديء المتزن ، فلم تبق منه الا حجارة مركومة على قبر ضائع في تلك الارض البعيدة وهي القريبة ، المرخصة وهي الغالية ، المنسية وهي التي لا تنسى ..

ربما كان الان في قريته وربما كان في قرية اخرى على الحدود او كان دفينا في قبره . اينما كان فاني اذكره واحيي ذكراه ، واخفض الرأس لتحيته ولدى تذكاره... اينما كان !

عبد السلام العجيلي